تاريخ الأقباط

الجزء الثالث

تأليف

الأستاذ زكي شنوده

المحامي

الطبعة الأولى

١٩٦٦

يطلب من مطبعة التقدم

٤٤ شارع الموازدي بالمنيرة بالقاهرة

تاريخ الأقباط

الجزء الثالث

تأليف
الأستاذ زكي شنوده
المحامي

الطبعة الأولى
١٩٦٦

يطلب من مطبعة التقدم
٤٤ شارع المواردي بالمنيرة بالقاهرة

تقديم

للدكتور باهور لبيب

عضو المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب وعضو المجمع العلمي المصري
وعضو معهد الآثار الألماني ببرلين وأستاذ التاريخ المصري القديم
بجامعة القاهرة ومدير المتحف القبطي سابقا

لقد طال انتظار الأقباط منذ عهود بعيدة لهذه الموسوعة التي تضم تاريخهم وتسجل مفاخرهم وأمجادهم ، حتى إذا نهض الأستاذ زكي شنوده المحامي بهذه المهمة الضخمة ، كان خليقاً بالشكر والتقدير .

ولا يسعنا إلا أن نبدي إعجابنا بالطريقة التي عالج بها المؤلف تدوين تاريخ الأقباط ، إذ توخى الدقة والأمانة الخليقين بكل مؤرخ يدرك قيمة الواجب الملقى على عاتقه ، فلم يقنع - حين شرع في كتابة تاريخ الأقباط - بما اعتاد المؤرخون أن يقنعوا به من تناول الناحية الدينية من ذلك التاريخ فحسب ، مما جعلهم يبدأون دراستهم بزمن دخول المسيحية في مصر ، وإنما عمل على أن يقيم بحثه على أساس متين ، فربط بين تاريخ الأقباط وتاريخ أجدادهم الأوائل قبل ظهور المسيحية بآلاف السنين ، حتى يتوفر له أكبر قسط من التعمق والتحليل ، ويتمكن من رد كل ظاهرة إلى أسبابها الأولى ومصدرها الأصيل .

ولا شك أن الأقباط هم السلالة المباشرة لقدماء المصريين ، وأن تراثهم ما هو إلا امتداد لتراث أولئك الأجداد ، وقد ورثوا عنهم الملامح والطبائع

والأخلاق، بل أن لغتهم القبطية ماهى إلا التطور الأخير للغة قدماء المصريين . فدراسة تاريخ أولئك الأجداد إذن ضرورة لازمة لدراسة تاريخ الأقباط ، ولعل مما يؤيد ذلك ويؤكده أن المؤرخين الحديثين قد هجروا النظرية القديمة التى كانت تربط التاريخ القبطى بظهور المسيحية ، وأصبحوا يمتدون بذلك التاريخ إلى بداية العصر اليونانى فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، وهو العصر الذى طويت فيه صفحة الفراعنة الوطنيين ، وظهر الشعب المصرى ـ تحت ربقة الغاصبين الأجانب ـ بمظهر الشعب الثائر المكافح .

وقد اهتم المؤلف على الخصوص بعقائد قدماء المصريين ، فبحثها فى تعمق وعرضها عرضاً ينطوى على الفهم الدقيق لجوهرها ، حتى أزال عنها كثيراً من غوامضها ، وأثبت أنها تتضمن فى حقيقتها إيمان قدماء المصريين بالله وبوحدانيته إيماناً نابعاً من تفكيرهم الحكيم وشعورهم المرهف ووجدانهم الذى بلغ حد النبوءة والإلهام . كما أثبت إيمانهم بخلود الروح وبقيامة الأموات وحسابهم فى اليوم الآخر ، وهى العقائد التى تتفق إلى حد كبير مع عقائد الدين المسيحى ، وكان لها أثر كبير فى اعتناق المصريين لذلك الدين بمجرد أن بشرهم به مرقس الرسول .

وكذلك اهتم المؤلف بسائر النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفنية لدى قدماء المصريين ، فكان ذلك تمهيداً لابد منه لدراسة هذه النواحى جميعاً لدى الأقباط فى عصورهم التالية .

وإننا إذ نعرب عن تأييدنا للمؤلف فى الخطة التى انتهجها فى التقديم لتاريخ الأقباط بهذه الدراسة العامة لمظاهر حضارة مصر القديمة ، نرجو أن يمضى فى تسجيل تاريخ قدماء المصريين بشىء من الإفاضة والتفصيل ، لأن التاريخ سلسلة مترابطة الحلقات ، وما أحداثه إلا كأمواج النهر الجارى يدفع بعضها بعضاً ، ويؤثر كل منها فيما يليه .

وإننا لنتطلع إلى الأجزاء التالية من هذه الموسوعة ، راجين لمؤلفها كل توفيق .

باهور لبيب

تمهيد

كان الجزء الأول من هذا الكتاب يتضمن مقدمة لتاريخ الأقباط تهدف بها إلى مجرد التعريف بالأقباط ، على أن نبدأ بعد ذلك شرح تاريخهم الطويل ، جيلا بعد جيل .

ولكننا رأينا أننا لن نستطيع فى الواقع أن نفهم تاريخ الأقباط ، إلا إذا فهمنا قبل ذلك عقيدة الأقباط ، لأن هذه العقيدة هى الأساس الذى قام عليه ذلك التاريخ ، وفى مبادئها يكمن السر فى كثير من أحداثه ، ومن ثم اضطررنا قبل الشروع فى دراسة تاريخ الأقباط أن نخصص الجزء الثانى من هذا الكتاب لدراسة عقيدة الأقباط .

والآن يجدر بنا فى هذا الجزء الثالث ، ونحن نشرع فى دراسة تاريخ الأقباط بشىء من التفصيل والتحليل ، أن نتبين معالم الطريق الذى علينا أن نسلكه ، وأن نرسم حدوده ونعلم من أين يبدأ وإلى أين ينتهى . كما يجدر بنا أن نفهم طبيعة هذا الطريق ، وأن ندرك أبعاده ، كى يمكننا أن نسير فيه على هدى وبصيرة ، وأن نجتاز ما فيه من عوائق وعقبات كثيرة .

وقد سبق لنا أن علمنا فيما سلف من الأبحاث أن الأقباط هم السلالة المباشرة للمصريين القدماء ، وأن لغتهم القبطية هى التطور الأخير للغة المصرية القديمة ، وأنهم مازالوا يحتفظون فى سيماتهم بملامح أولئك الأجداد ، ومازلوا يحتفظون فى كنائسهم بتلك اللغة التى مافتئت تقاوم عاديات الزمن وتجاهد أروع جهاد .

فتاريخ الأقباط إذن هو تاريخ المصريين. ولن يمكننا أن نحيط بتاريخ الأقباط إحاطة كاملة شاملة، إلا إذا أحطنا قبل ذلك بتاريخ أجدادهم الأولين، لأن ذلك التاريخ القديم هو المرحلة التى لابد أن نقطعها من بدايتها لنفهم النتائج من مقدماتها، ونقيم البناء على أساس متين، ولأن فى ذلك التاريخ تمتد الجذور البعيدة التى يستمد منها الأقباط أخلاقهم وطبائعهم، بل أن فى ذلك التاريخ تنطوى الدوافع التى جعلتهم يعتنقون المسيحية ويصبحون أقباطاً.

فلماذا أقبل المصريون على الإيمان بالمسيح عندما بشرهم به مرقس الرسول. ولماذا تمسكوا بإيمانهم ذلك التمسك الذى لم يسبق له فى تاريخهم أو تاريخ البشر مثيل. وماذا دفعهم لأن يصمدوا ذلك الصمود الذى يزلزل الجبال أمام الأباطرة الذين أذاقوهم الأهوال كى يتخلوا عن عقيدتهم الجديدة، وساقوهم إلى ساحات العذاب وسقوهم كأس الموت، فلم يخضعوا ولم يتزعزعوا وإنما ظلوا مناضلين، واستعذبوا العذاب وشربوا كأس الموت فرحين متهللين، وما فتئت يد الطغيان تحصدهم حصداً حتى استشهد منهم الملايين. وما الذى جعل البقية الباقية منهم بعد ذلك تقف أمام نوائب الزمان فى صبر وصلابة وقوة إيمان. فما لانت تحت ضغط، ولا استكانت أمام ضيم، ولا كانت المصاعب أو المصائب على مر العصور إلا دافعاً لها على التعلق بعقيدتها، ومشجعاً لها على التشبث بكيانها، مهما هبت العواصف أو اشتدت الأعاصير أو امتدت يد الظلم إليها بالعدوان أو الحرمان أو الهوان . . ألم يكن كل هذا الذى فعله المصريون منذ البداية منبثقاً من ينبوع مجتمعهم ومن مجموع صفاتهم وملكاتهم وظروف حياتهم، ومن أعماق طبيعتهم التى اكتسبوها قبل اعتناق المسيحية بآلاف السنين؟

وحتى إذا تأملنا فى أنفسنا نحن الأقباط من أبناء هذا الجيل، وتناولنا بالتحليل ما نعرفه عن أنفسنا ويعرفه الناس عنا من طباع فردية وأوضاع

اجتماعية وأنواع من التفكير والتقدير تتخذها فيما نعالج من أمرنا ، ونتميز بها عن غيرنا ، تبين لنا إذا بحثناها أننا ورثناها عن قدماء المصريين . فكما أننا أخذنا عنهم التقاطيع والملامح وسائر الأوصاف الجسدية ، أخذنا عنهم كذلك ما اتصفوا به فى سائر النواحى الفكرية والعاطفية والعائلية والعملية . بل أخذنا عنهم كثيراً من عوائدهم وتقاليدهم . بل لا زلنا نحتفل بكثير من أعيادهم ، ونلتزم بكثير من مواسمهم ومواعيدهم . فإذا نحن أهملنا تاريخهم ونحن نكتب تاريخنا ، أو تجاهلنا مالهم من أثر فينا ، كنا كمن يبنى بيته على غير أساس ، أو ينزع الشجرة بعيداً عن جذورها فيمنع بذلك عنها ما تمدها به من حياة وحيوية وإحساس . فلئن كانت مسيحيتنا هى التاج الذى وضعناه فوق رؤوسنا ، فقد كانت مصريتنا هى المهد الذى فيه نشأنا ، ومنه نبعت مشاعرنا وخلجات نفوسنا ، وإليه تطلعت خواطرنا على الدوام وعلى مدى الأعوام .

وإذن فدراسة تاريخ قدماء المصريين منذ نشأتهم الأولى هو المقدمة الطبيعية لدراسة تاريخ الأقباط ، وبدونها تكون هذه الدراسة سطحية وناقصة ومبتورة ، بل تكون قد خسرت كثيراً من أسباب روعتها ورونقها ، وبهجتها وبهائها . لأن تاريخ قدماء المصريين فضلا عن أنه جزء لا يتجزأ من تاريخ الأقباط ، فإنه سجل خالد لأمجاد بلادهم ومفاخر أجدادهم . فلئن كان العالم كله يتطلع إلى تاريخ تلك البلاد وأولئك الأجداد فى فيض من الإعجاب والإجلال ، ومن التقدير الذى يكاد أن يبلغ حد التقديس ، فكم يكون أجدر بنا نحن أبناء تلك البلاد وأحفاد أولئك الأجداد أن نجعل من ذلك التاريخ ذخراً نحتفظ به ونحافظ عليه ، وفخراً نضيفه إلى فخرنا بالإيمان الذى فتحنا له أبواب قلوبنا ، وفى سبيله جاهدنا واستشهدنا ، وصبرنا وصمدنا صمود الأبطال كل هذه الأجيال .

وإنه وإن كان تاريخ قدماء المصريين تاريخاً طويلا يستغرق عدة آلاف

من السنين ، وقد سجله المؤرخون فى مجلدات ضخمة ، فإن من واجبنا — مع ذلك — أن نستعرضه بقدر ما يمكن من الإحاطة والوضوح ، وبقدر مايمكن — فى ذات الوقت — من التركيز والإيجاز ، حتى يمكننا بذلك أن نوفق بين ضرورة التمهيد لدراسة تاريخ الأقباط بدراسة نشأتهم الأولى وتاريخ أجدادهم الأولين ، وبين ضرورة حصر هذه الدراسة التمهيدية فى الحيز الذى يحتمله حجم هذه الموسوعة المخصصة لتاريخ الأقباط .

ولما كان هدفنا الأول من دراسة تاريخ قدماء المصريين فى هذا المجال هو استخلاص جوهر شخصيتهم ، واستنباط العوامل التى ساهمت فى تكوين عنصرهم ، وبناء كيانهم ، وإنشاء الأسس التى أقاموا عليها صرح مدنيتهم ، كى ننتفع بكل ذلك فى دراسة تاريخ الأقباط ، ينبغى أن نبدأ بكلمة عامة تتناول فيها نشأة قدماء المصريين ، وميلاد دولتهم وقيام حضارتهم ، ومظاهر تلك الحضارة التى مافتئت تتطور وتتقدم على مدى السنين ، حتى بلغت الذروة فى كل المجالات والميادين . فإذا انتهينا من ذلك أمكننا بعد ذلك أن نمضى فى دراستنا على ضوء ما وصلنا إليه من نتائج ، وما توصلنا إليه من حقائق ، وما حصلنا عليه من معارف ومعلومات .

ولا شك أن الأقباط لا يهتمون بشىء قدر مايهتمون بالدين ، فهو محور حياتهم ، وجوهر صفاتهم ، ومصدر أفكارهم ومشاعرهم وتصرفاتهم ، وهو الذى اعتنقوه فنالوا به الخلاص ، وأذاقهم الظالمون من أجله الذل فذاقوه فى صبر وإخلاص . ومن ثم كان الدين أعز وأغلى مافى الدنيا لديهم . ولذلك يجدر بنا أن نهتم بدراسة الدين لدى قدماء المصريين ، حتى يتاح لنا أكبر قدر من عوامل المقابلة والمقارنة ، وحتى نستطيع أن نتابع تطور العقائد الدينية منذ نشأتها الأولى فى مصر وما كانت قد انتهت إليه حين جاءت المسيحية وأقبل المصريون على اعتناقها . ولعل من دواعى سعادتنا وفخرنا أن نعلم عن أجدادنا أنهم كانوا أول

شعب آمن بالله قبل ظهور الأنبياء بآلاف السنين ، وأنهم ظلوا يعرفونه ويعبدونه ويدينون بدينه فى كل مراحل تاريخهم ، رغم كل العوامل التى توافرت وتضافرت على تشويه ذلك الدين ، حتى بدوا — وهم الحكماء الأتقياء الذين أدركوا وجود الله بالإلهام — كأنهم يعبدون الأصنام . بيد أنهم ما تلقوا بشارة مرقس الرسول حتى كانوا أسرع الشعوب إلى فهمها ، لأن قلوبهم كانت مستعدة لها ، فكانوا كالتربة المتعطشة إلى الماء وقد انهمر عليها فيض السماء .

إلا أن دراسة الدين وحده لدى قدماء المصريين لن تغنينا فى هذا المجال عن الإحاطة بالجوانب الأخرى من حياتهم ، ولا سيما أننا فى دراستنا لتاريخ الأقباط ، وإن كنا سنهتم بالناحية الدينية باعتبارها الجوهر والأساس ، فإننا سنهتم فوق ذلك بكل ما ينبغى أن يتضمنه التاريخ المكتوب لشعب من الشعوب . فلئن كان الأقباط قد وجهوا كل عنايتهم فى كل ما كتبوه حتى اليوم من تاريخهم إلى شئون دينهم ورؤسائهم الدينيين ، فإنما يرجع ذلك إلى أن الدين هو أقوى رابطة تجمع بينهم ، وأن رؤساءهم الدينيين هم موضع إجلالهم ومعقد آمالهم . بيد أننا لو وجهنا بعض عنايتنا إلى الجوانب الأخرى من تاريخنا ، لاكتشفنا كثيراً من مفاخرنا ، وعرفنا أننا لم نضرب المثل الأعلى فى إيماننا وتفانينا فى المحافظة على كياننا فحسب ، وإنما ضربنا كذلك أروع الأمثال فى كل ميدان وكل مجال : فقد كان من نتائج اعتناق المصريين للمسيحية منذ البداية أنهم وقفوا من الدولة الرومانية التى كانت تحتل مصر فى ذلك الحين موقف الأعداء ، وقد أبدوا فى صدامهم مع تلك الدولة العنيفة العاتية من صور البسالة والبطولة وبذل الأرواح ما يضارع أروع ملاحم الكفاح التى خاضتها الشعوب المحكومة على مدى التاريخ ضد الحاكمين الدخلاء . وقد ظلوا على الدوام بعد ذلك مثالا للوطنية وتمثالا حيا لروح الحرية . فما اعتدى معتد على مصر إلا نهضوا ليصدوه ويردوه على أعقابه ، وكانوا وقود الثورة ضد الغزاة والفاتحين فى كل عصر وفى

كل حين. فكانوا فى الحياة السياسية والقومية مثالا للمواطنين الوطنيين الشرفاء . كما كانوا فى كل مجالات الدولة الإدارية والتشريعية والقضائية مثال العاملين المخلصين الأكفاء . أما حياتهم الاجتماعية فكانت فى كل الأجيال مثالا للفضيلة والكمال . إذ كانت حياتهم العائلية جزءاً لا يتجزأ من حياتهم الدينية ، وكانت صلة الزوج بزوجه ، وصلة الوالد بولده ، وصلة الإنسان بالإنسانية كلها قائمة على مبادىء الدين وما تضمنته من أبدع التعاليم وأروع القوانين . وقد نبغوا وبلغوا الذروة فى العلوم والآداب والفنون ، وفى الزراعة والصناعة والتجارة وغير ذلك من الشئون. فكانوا فى كل ذلك أساتذة وأقطابا جمعوا كل أطراف المعرفة ولم يتركوا بابا إلا برعوا فيه ، وسعوا إلى إماطة اللثام عن أسراره والإحاطة بخوافيه .

ومن ثم تركوا لنا من أخبارهم ومن آثارهم ميراثاً مجيداً وتراثا خالدا ، سيظل موضع فخارنا ومنبع احترامنا واعتبارنا لدى العالم فى كل زمان . لذلك يجدر بنا أن نتناول بالبحث والدراسة كل هذه النواحى لدى قدماء المصريين بقدر مافى الإمكان من تدقيق وتحقيق وإتقان ، حتى نكون قد أحطنا بكل تفاصيل الحياة فى كل المجالات ، وربطنا بين تاريخ الأقباط وتاريخ أجدادهم الأولين . ومن ثم نكون بذلك قد سلكنا الطريق من بدايته ، وملكنا الوسيلة التى يمكننا بها أن نبلغ مارسمناه لهذا الكتاب من أهداف ، وما أقمناه من غايات نرجو من الله أن يمنحنا القدرة على تحقيقها مهما اقتضى ذلك من مجهودات ، ومهما انقضى فى سبيل ذلك من سنين .

وبناء على هذه الخطة نتكلم فى الفصول التالية عن نشأة الأمة المصرية وميلاد المجتمع المصرى ، وعن أصل المصريين وعوامل قيام الحضارة المصرية . ثم نتكلم بعد ذلك عن قيام الدولة المصرية ونظامها السياسى والإدارى والقضائى ، وعن الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة ، والعقائد الدينية التى كان يؤمن بها قدماء المصريين ، ثم نتكلم عن حياتهم الثقافية التى بدأت باكتشافهم للكتابة واهتمامهم

بالتعليم وشغفهم بالآداب ، وتقدمهم الرائع فى العلوم ولاسيما الفلك والرياضيات والطب ، وبراعتهم الفائقة فى الفنون ولا سيما العمارة والنحت والنقش والرسم والموسيقى . ثم نتكلم عن الحياة الاقتصادية لديهم وما أتقنوه من أساليب الزراعة والصناعة والتجارة منذ أقدم العصور . ثم نتكلم عن مكانة مصر فى العالم القديم وكيف كانت لها الزعامة على كل الأمم المعاصرة لها فى كل المجالات والميادين . وبذلك نكون قد ألممنا بكل عناصر الحياة لدى المصريين قبل اعتناقهم المسيحية ، وتكون لدينا صورة كاملة وشاملة للمجتمع المصرى حين جاء مرقس الرسول إلى مصر ليبشر أبناءها برسالة يسوع المسيح .

الفصل الأول

نشأة الأمة المصرية

مصر هى أقدم مواطن الحضارة فى العالم ، وتاريخها هو حجر الأساس فى تاريخ البشرية كلها ، وقد كان أبناؤها المصريون الأوائل هم أصحاب الفضل الأكبر بين كل شعوب الأرض فى تشييد صرح المدنية ، وإخراج الإنسان من ظلام الحياة البدائية إلى نور المعرفة والتقدم والارتقاء .

فأين كان ميلاد المجتمع المصرى ، ومن أين جاء المصريون ، وما هى عوامل قيام الحضارة المصرية ؟

ذلك ما نتناوله فى ثلاثة أبحاث متوالية .

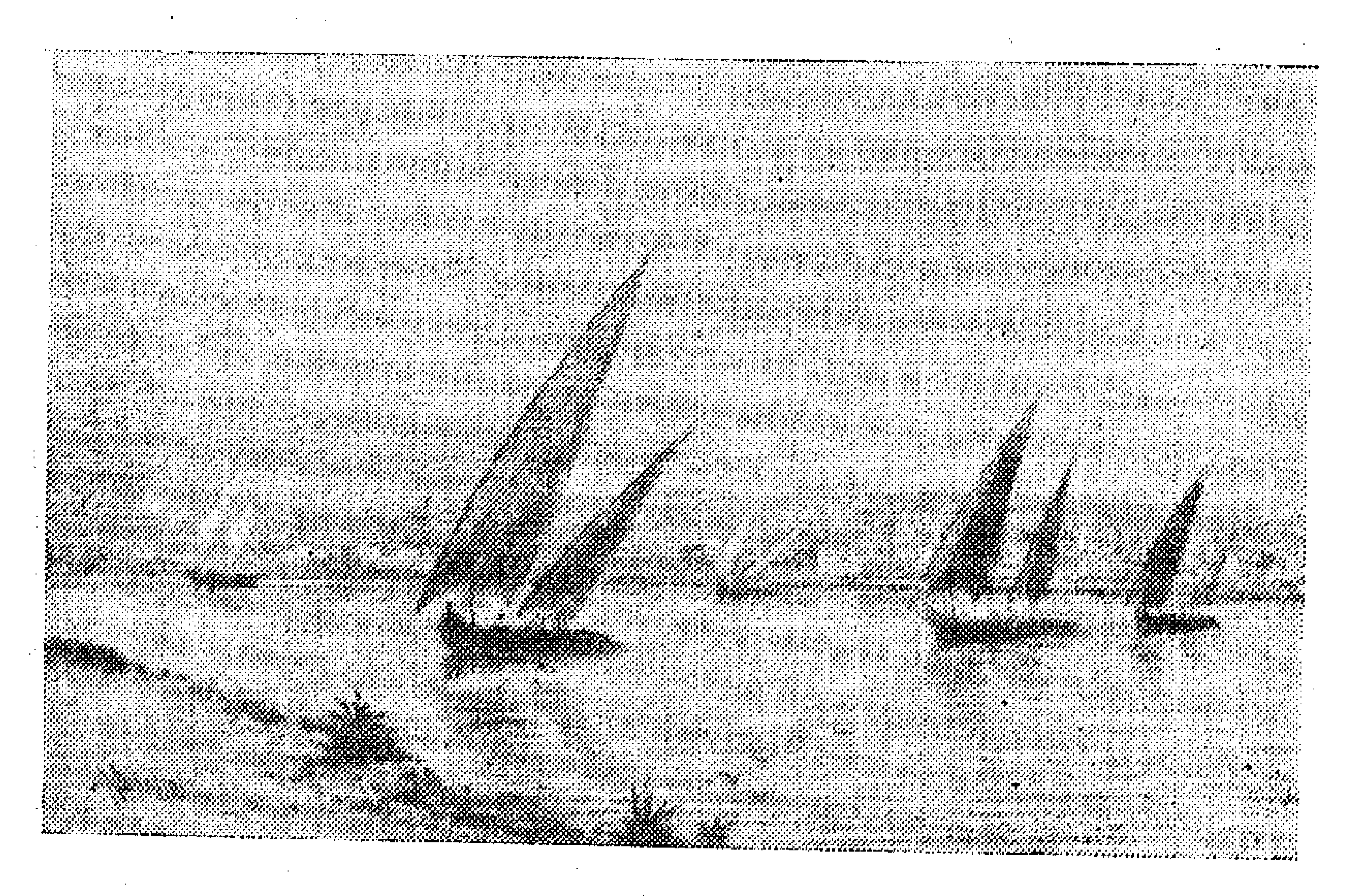
البحث الأول

ميلاد المجتمع المصرى

نشأ المجتمع المصرى وبزغت شمس الحضارة المصرية ،فى تلك الرقعة المستطيلة من الأرض التى تشغل الركن الشمالى الشرقى من قارة أفريقيا ، ويحدها من الشمال البحر الأبيض المتوسط ، ومن الشرق البحر الأحمر ، ومن الغرب الصحراء الكبرى ، ومن الجنوب الجزء الأعلى من وادى النيل . ويجرى نهر النيل فى وسطها من الجنوب إلى الشمال ، منتهيا بالدلتا ، حيث ينقسم إلى فرعين يصبان فى البحر الأبيض المتوسط .

بيد أن هذه الرقعة التى تشغلها مصر ، لم تكن فى قديم الزمان على حالها الذى نراه اليوم ، وإنما كانت فى العصور السحيقة هضبة كثيرة الجبال والوديان، يغمر ماء البحر جانبا كبيرا منها إلى قرب قنا . ولم يكن بها أى صحراء أو منطقة جدباء، وإنما كانت كلها بمثابة غابة عظيمة ، يكتنفها طقس شديد الحرارة، ويتدفق عليها سيل لا ينقطع من الأمطار . وقد زخرت بكل أنواع النباتات والأشجار ، وانطلقت فيها كل أنواع الحيوانات المفترسة ، كالأسود والفهود والذئاب ، أو الحيوانات آكلة العشب كالفيلة والوعول والظباء وقطعان الماشية .

وقد شق النيل مجراه فى هذه الهضبة ، مندفعاً من أواسط القـارة ، حيث تنهمر السيول العظيمة على المرتفعات ، وتنحـدر فى القنوات الطبيعية التى تتخلل الأرض . وكان ذلك النهر فى بداية تكوينه متسع المجرى قليل الغور ، يصب فى البحر الأبيض المتوسط عند بقعة تقرب من مدينة القاهرة الحالية . وكانت تكسو سطحه مساحات شاسعة من زهور اللوتس ، وتنمو فى وسطه أجمات كثيفة من



« نهر النيل »

نبات البردى ، وتسبح فى مياهه قطعان عظيمة من التماسيح وأفـراس النهر ، وتنتشر من حواليه المراعى الفسيحة ، والأحراش الزاخرة بأشجار الفاكهة كالكرم والتين والزيتون ، وبأنواع النبات المختلفة ، كالقمح والشعير والكتان . ثم أخذ النهر مع الوقت يقل عرضا ويزداد عمقا ، بينما تتسع الرقعة الخصبة التى تمتد على جانبيه بما يجلبه معه من الطمى والغرين وغيرهما من عناصر تلك التربة الطيبة التى ما فتئت تبعث الحياة فى وادى النيل على مر الزمان .

وكان المصريون فى تلك العصور الأولى يعيشون فى حدود الإمكانيات التى تمدهم بها البيئة المحيطة بهم ، فكانوا يعتمدون فى حياتهم على ما تجود به عليهم

الغابات من خيرات . كما كانوا يعتمدون اعتمادا كبيرا على الصيد ، مستخدمين طبيعتهم القوية وبراعتهم الفطرية فى التغلب على قسوة الظروف التى تكتنفهم ، وتذليل العقبات التى تقف أمامهم فى الحصول على حاجاتهم وضرورات حياتهم وحماية أنفسهم ، وقد لجأوا فى هذا السبيل إلى الحجر الصلد يقتطعونه ويصنعون منه آلاتهم وأدواتهم وأسلحتهم . وقد وصل إلى أيدينا من آثارهم الحجرية فى ذلك العصر البعيد نماذج هى آية فى الدقة والروعة وبراعة الصنع ، مع ما فى نحت الحجر — ولا سيما أنواعه الشديدة الصلابة — من صعوبة ، وما يحتاج اليه ذلك من صبر ومقـــدرة . ولذلك سمى ذلك العصر الذى لم يكن فيه أمام المصريين سوى استخدام الحجر بالعصر الحجرى .

غير أن الأحوال المناخية فى مصر كانت لاتفتأ تتغير من جيل إلى جيل ، فراح المطر يقل بالتدريج حتى انعدم تقريبا ، وزحف الجفاف على الأرض حتى أمات مافيها من نبات ، وتكونت الصحارى على جانبى النيل ، وبدأ الحيوان يهجر مواطنه الأولى إلى جهات أخرى أصلح لحياته . من ثم ترك الإنسان أعالى الهضبة ونزل إلى ضفاف النهر الذى أصبح هو المورد الوحيد للماء ، والملجأ الوحيـد لكل الأحياء فى الوادى .

وقد كان ذلك الانتقال من الهضبة إلى ضفتى النيل نقطة تحول حاسمة فى تاريخ المصريين ، بل فى تاريخ البشر أجمعين ، إذ انتهى به عصر الصيد ، وابتدأ عصر الزراعة ، الذى فتح الأبواب للمدنية على مصراعيها ، وانتقل أثناءه الإنسان فى الحضارة من طور إلى طور .

ذلك أن احتراف الزراعة قد أدى بالمصريين إلى قيام أول نظام للرى عرفه العالم فى كل العصور ، إذ دفعت بهم فراستهم وحماستهم فى أداء كل عمل يزاولونه إلى توفير كل الظروف الملائمة لحصولهم من تربة بلادهم على أكبر قـدر يمكنها

ان تعطيه من خير : فقاموا بتسوية الأرض فى كل أنحاء الوادى، وحفروا خلالها الترع والمصارف ، وأقاموا على النيل الحواجز والسدود للانتفاع بالزائد من ماء الفيضان، وما فتئوا يراقبون أحوال زراعتهم ، ويواظبون على تسجيل كل مايمر بهم من التجارب فى هذا الشأن حتى برعوا فى تحديد الوقت الملائم لبذر كل نوع من البذور ،وجنى كل نوع من الثمار ، فما كاد ينبثق فجر التاريخ فى مصر حتى كان المصريون قد تغلبوا على كل العقبات والصعاب التى تعترض سبيل تقدمهم .

وقد استوجبت حياة الزراعة انقلابا خطيرا فى حياة المصريين وطريقة معيشتهم وظروف مجتمعهم ، إذ أدى بهم ارتباطهم بالأرض التى يزرعونها إلى هجر حياة التنقل والترحال ، والإخلاد إلى حياة السكينة والاستقرار . كما أدت بهم حاجتهم المشتركة إلى توفير الظروف الملائمة للزراعة ، إلى الشعور بضرورة الترابط والتعاون فيما بينهم . ومن ثم دفعت بهم هذه الأحوال مجتمعة إلى بناء المسكن من ناحية ، وإلى ظهور الأسرة من الناحية الأخرى ، فكانت هى النواة الأولى للمجتمع . ثم أدت حياة المجتمع إلى كل ماتوصلت إليـــه البشرية بعد ذلك من معتقدات وعادات وتقاليد ، ومن علوم وآداب وفنون .

ولم تلبث المدنيـة المصرية أن انتقلت إلى مرحلة جديدة من مراحل التقـدم حين اكتشف المصريون معدن النحاس ، فقد انتهى بذلك العصر الحجرى ، وبدأ العصر المسمى بعصر النحاس ، قبل الميلاد بنحو أربعة آلاف وخمسمائة سنة ، ويسميه البعض عصر ماقبل التاريخ ، وقد استمر حوالى ألف وخمسمائة سنة ، وانتهى بظهور الكتابة المصرية ، وقيام الدولة المصرية الموحدة فى نحو عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد .

وكان المصريون فى بداية عصر النحاس قد بلغوا درجة عظيمة فى المدنيـة جعلت بينهم وبين الأجناس الأخرى من البشر فى ذلك الزمان هوة سحيقة . وقد مهد ذلك لقيام أول وحدة سياسية وأول دولة منظمة عرفها التاريخ .

البحث الثانى

أصل المصريين

المصريون هم السلالة التى نشأت فى وادى النيـــل منذ حقبة طويلة جدا من الزمان يقدرها بعض المؤرخين بمـائة ألف سنة . وهم شعب أبيض من سلالة البحر الأبيض المتوسط .

ويظن بعض العلماء أن أفواجا من النازحين قد وفدت إلى مصر فى دفعات متتاليـة من شمال غرب أفريقيا وجنوب وادى النيـل ، واختلطوا بالمصريين الأوائل . كما يظنون أن أقواماً من الساميين فى آسيا قد غزوا مصر قبل العصور التاريخية ، واختلطوا بالمصريين كذلك . بيـد أنه ثبت — حتى مع افتراض صحة هذا الظن — أن المصريين احتفظوا على مر العصور بطابعهم الأصيل ، فلم يترك فيهم النازحون أو الغزاة أى أثر يذكر ، ولا أدل على ذلك من أن المصريين فى عصورهم التاريخيـة المعروفة قد تعرضوا لغزو شعوب مختلفة كالهكسوس والآشوريين والفرس واليونان والرومان والعرب ، ومع ذلك احتفظوا بخصائصهم الجنسية التى تميزهم عن سائر الشعوب .

البحث الثالث

عوامل قيام الحضارة المصرية

رأينا كيف كانت مصر هى أسبق الأمم إلى التقدم نحو المدنية والأخذ بأسباب الحضارة . ولاشك أن ذلك إنما يرجع إلى توافر العوامل الأساسية اللازمة لبلوغ هذه الغاية ، كما يرجع إلى ماتوافر للمصريين القدماء من صفات الفطنة والمثابرة والتعاون ، التى كفلت لهم الانتفاع إلى أقصى الحدود بالمميزات الطبيعية لبلادهم .

وقد لعب النيل دوراً خطيراً فى قيام الحضارة المصرية ، فهو المصدر الأول والأوحد للخصوبة التى حولت مصر من صحراء مجدبة إلى جنة ناضرة . وقد عرف المصريون القدماء هذا الفضل الذى أسبغه النيل عليهم فقدروه وقدسوه ، بل اعتبروه فى مرتبة الإله ، لأنه وهبهم الحياة . وقد بذلوا كل ما فى مقدورهم من تفكير وتدبير وجهد ، للانتفاع بما يأتيهم به من ماء وطمى وفير . كما أن أطواره العنيفه فى بعض الأحيان ولا سيما أثناء فيضانه قد دفعت بهم دفعاً إلى تجميع جهودهم ، وتوثيق عرى التضامن فيما بينهم لدفع خطره من ناحية ، وتنظيم وسائل الانتفاع بالفائض من مائه من ناحية أخرى . فضلا عن أنهم اتخذوه وسيلة للانتقال فيما بين قراهم ومدنهم المتناثرة فى مختلف أنحاء الوادى ، فكانوا

هم أول من ابتدع السفن التى تمخر عباب الماء ، وكان ذلك من أهم العوامل التى زادت فى تقاربهم وترابطهم وساعدت على تبادلهم الأفكار والحاصلات ، ومن ثم مهدت لاتحاد ولاياتهم بالتدريج حتى اندمجت آخر الأمر فى دولة واحدة .

وقد وهب الله مصر مناخاً معتدلا ، لاهو بالحار أو البارد ، ولا هو بالشديد الرطوبة أو الشديد الجفاف . وإنما توافرت لها الشمس المشرقة ، والسماء الصافية، والهواء العليل ، والرياح التى لاهى بالعاصفة ولاهى بالساكنة . فساعد كل ذلك على توافر الظروف الملائمة للمصريين كى يعملوا فى جد ومثابرة ، ويصلوا إلى الذروة فى كل نواحى الفكر والفن ، وكل شئون الدين والدنيا . كما ساعد اختلاف حرارة الفصول على تنوع المحصول ، ومن ثم على توافر الخيرات وكفالة الرخاء ورغد العيش ، فكان هذا وذاك من أهم العوامل التى قامت عليها الحضارة المصرية .

وذلك فضلا عما تفردت به مصر من موقع ممتاز بين الأقطار : فهى تتوسط ثلاث قارات كبيرة هى أفريقيا وآسيا وأوروبا . وتطل على بحرين عظيمين هما البحر الأبيض والبحر الأحمر . كما أن حوض النيل يؤدى بها إلى أواسط أفريقيا . ولذا كانت مصر حلقة الاتصال بين بلاد العالم ، مما أتاح لتجارتها أن تروج فى أوسع نطاق ، ولحضارتها أن تزدهر وتنتشر فى جميع الآفاق .

وقد حظيت مصر بحماية طبيعية أسبغتها عليها حدودها المنيعة : ففى الشمال يصد عنها البحر الأبيض أطماع الشعوب الأوروبية ، وفى سائر جهاتها الأخرى تمتد الصحراوات الشاسعة التى كانت على الدوام بمثابة الدروع الواقية لمصر من غزو الغازين وعدوان المعتدين ، وإن كانت تلك الحوائل مع ذلك لم تقطع صلات مصر بغيرها من البلاد المحيطة بها ، وإنما نظمت ما بين مصر وتلك البلاد من علاقات ، وخففت من أثر هذه العلاقات على الحضارة المصرية ، فلم تتح لها أن تطغى عليها ، ولم تسمح لها بأن تطمس معالمها .

وأخيراً كان من أبرز مقومات الحضارة فى مصر ماتزخر به أرضها — فضلا عن التربة الخصبة — من معادن أهمها الذهب والحديد والنحاس ، ومن صخور أهمها الرخام والجرانيت والأحجار الكريمة ، ومن تلك المعادن وهذه الصخور استطاع المصريون القدماء ابتداع الآلات والأدوات اللازمة لزراعتهم وصناعتهم ، كما استطاعوا بها بناء هياكلهم العظيمة ، وتشييد أهراماتهم الخالدة ، ونحت تماثيلهم الرائعة، وصياغة حليهم البديعة .

فهذه البلاد إنما تمثل أرضاً طيبة ووطناً غنياً ، نجحت فيه جهود البشر وأفلحت فى إنشاء حضارة عظيمة ، عريقة الأصول ، متصلة الحلقات ، إستطاعت أن تغالب الدهر وأن تبقى على الزمن ، ولم يكن ذلك ناشئاً عن مجرد صدفة أو اتفاق ، وإنما نشأ كما رأينا عن توافر مقومات خاصة ، وتكامل عناصر معينة ، كان لها أثرها فى مختلف نواحى الحياة : فالنهر تجرى مياهه بالخير فى كل عام ، والتربة خصبة على الدوام ، والطقس بديع صالح الإنتاج والإبداع ، والموقع الممتاز جعل من مصر ملتقى الطرق إلى جميع أنحاء الأرض ، والموانع الطبيعية من ماء وصحراء أحاطت بالوادى من جميع جنباته ، فحمته من كل غاز وغاصب، والأرض زاخرة بكل ما هو نافع وثمين . فكان لهذه العوامل متضافرة الأثر الأكبر فى تكييف حياة المصريين وبناء صرح مدنيتهم، وبقاء مظاهر حضارتهم الآلاف العديدة من السنين .

الفصل الثانى

قيام الدولة المصرية

تكلمنا فى الفصل السالف عن نشأة المصريين الأوائل ، وعن حياتهم فى العصر الحجرى ، ثم فى عصر النحاس ، أو مايسمونه بعصر ما قبل التاريخ ، وفى هذا الفصل نرى كيف تطور المجتمع فى مصر بعد ذلك حتى انتهى إلى قيام الدولة المصرية ، ونعرض صورة سريعة لما كان عليه نظام هذه الدولة من النواحى السياسية والإدارية والقضائية ، على أن نعود فيما بعد فنتناول هذه الصورة بمزيد من الإيضاح فى كل عصر من عصور التاريخ المصرى القديم .

المبحث الأول

النظام السياسى

رأينا أن المصريين الأوائل حين هبطوا من الهضبة بعد جفافها إلى وادى النيل الخصيب — وكان ذلك من نحو عشرة آلاف سنة قبل الميلاد — إقتضت حياة الزراعة التى امتهنوها فى بيئتهم الجديدة نوعاً آخر من التنظيم الاجتماعى، غير ما كان مألوفاً لديهم من قبل، إذ أدت بهم إلى الاستقرار، الذى أدى بهم بدوره إلى بناء المسكن، وإنشاء الأسرة، فكانت هى النواة الأولى للمجتمع المصرى.

بيد أن الحاجة إلى التعاون وتبادل الحماية والمنفعة المشتركة لم تلبث أن ازدادت واشتد الشعور بها مع مرور الزمن ورسوخ أسس الحياة الجديدة، فاتسع نطاق الأسرة وظهرت الجماعة أو القبيلة، ثم لم تلبث أن تكونت القرية، فكان ذلك هو أول السبيل إلى قيام مجتمع متكافل وسلطة منظمة. ثم ازداد حجم القرى فى بعض الجهات فظهرت المدن. ثم أدت الضرورات الاجتماعية بعد ذلك إلى انضمام عدد من القرى والمدن فظهرت المقاطعات فى كل من منطقتى الدلتا ومصر العليا، اللتين عرفتا فيما بعد بالوجه البحرى والوجه القبلى. وقد كان فى الوجه البحرى

عشرون مقاطعة ، وفى الوجه القبلى إثنان وعشرون مقاطعة . ويرجع تاريخ تكوين هذه المقاطعات إلى زمن بعيد جداً يصعب تحديده . كما أنها ظلت متميزة الكيان إلى نهاية التاريخ الفرعونى .

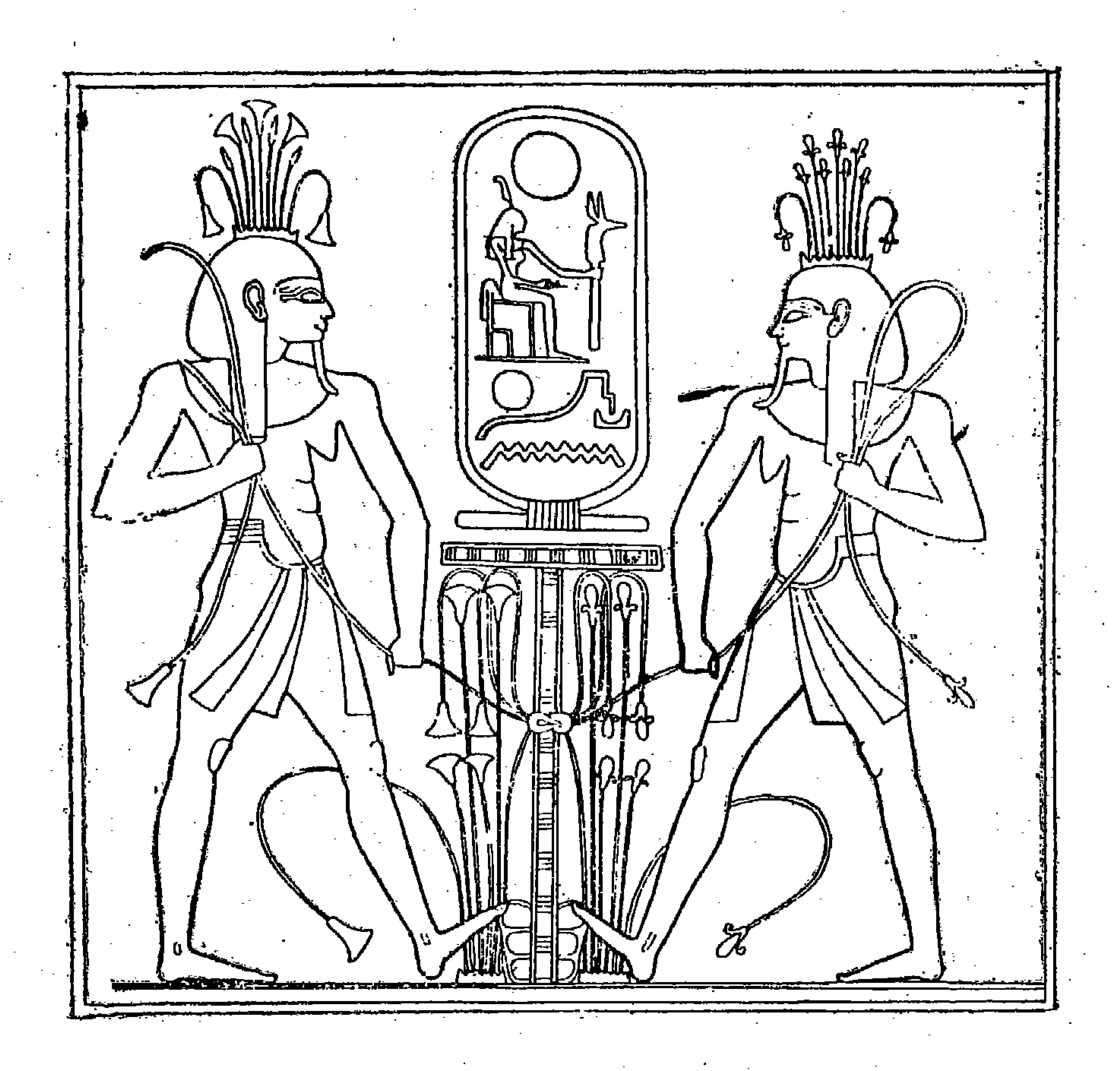
ثم بمرور الزمن قامت حركة اتحاد فى الوجه البحرى ، حينما تجمعت مقاطعاته فى دولتين : إحداهما فى الغرب وكانت عاصمتها « بحدت » بالقرب من دمنهور ، والأخرى فى الشرق وكانت عاصمتها « بوصير » بالقرب من سمنود . ثم لم تلبث هاتان الدولتان أن اندمجتا بعد فترة من الزمان فى مملكة واحدة ، هى مملكة الوجه البحرى ، وأصبحت عاصمتها « بحدت » . وفى ذات الوقت قامت حركة اتحاد فى الوجة القبلى ، حينما تجمعت مقاطعاته فى دولة واحدة ، وكانت عاصمتها بلدة « نقادة » بالقرب من الأقصر .

إلا أن طبيعة الحياة والمصلحة المشتركة لم تلبث أن أدت إلى قيام وحدة أكبر ، حين حاولت دولة الوجه البحرى تحقيق هذه الوحدة بضم دولة الوجه القبلى إليها ، وقد نجحت فى ذلك ، فكونت أول حكومة متحدة شملت مصر كلها ، وجعلت عاصمتها مدينـــة «أون» فى مكان « عين شمس » الحالية . وقد تم ذلك حوالى عام ٤٢٤٢ قبل الميلاد .

غير أن هذا الاتحاد لم يدم طويلا ، فلم تلبث مصر أن انقسمت مرة أخرى إلى دولتين : إحداهما مملكة الوجه البحرى فى الشمال وعاصمتها « بوتو » شمالى دسوق ، وكان ملكها يلبس تاجاً أحمر اللون ، وقد اتخذت نبات البردى رمزا لها . والأخرى مملكة الوجه القبلى فى الجنوب ، وعاصمتها «نخن» فى مكان بلدة الكوم الأحمر الحالية ، وكان ملكها يلبس تاجاً أبيض اللون ، وقد اتخذت زهرة اللوتس رمزا لها .

ولكن البلاد لم تلبث أن استعادت بعد ذلك وحدتها ، إذ استطاع أحد

الملوك الأقوياء من مدينة « طينة » بالقرب من العرابة المدفونة فى الوجه القبلى، وهو الملك « مينا » أن يضم دولتى الوجه البحرى والوجه القبلى فى دولة واحدة، تديرها حكومة مركزية قوية، وكان ذلك فى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد. وأصبح



« رسم رمزى منقوش على الآثار المصرية القديمة »

« يمثل توحيد الوجهين البحرى والقبلى »

الملك مينا أول حاكم يحمل لقب ملك الوجهين البحرى والقبلى، ويضع على رأسه التاج المزدوج الذى يضم التاجين الأحمر والأبيض. وقد أسس أول أسرة مالكة فى تاريخ مصر، بل فى تاريخ العالم كله، وجعل عاصمة ملكه مدينة « منف »

التى كانت فى مكان بلدة ميت رهينة الحالية بمحافظة الجيزة ، والتى سماها اليونان فيما بعد « منفيس » .

وتعتبر بداية عهد الملك ميناهى بداية التاريخ المصرى القديم ، وقد استمر هذا التاريخ أكثر من ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد ، ومن ثم يعتبر أطول تاريخ أمة فى العالم .

وقد قسم المؤرخ المصرى القديم «مانيثون» تاريخ قدماء المصريين إلى ثلاثين أسرة ملكية ، ثم اقتفى كل المؤرخين بعد ذلك أثر « مانيثون » فى هذا التقسيم. وقد جرى المؤرخون الحديثون — فضلا عن احتفاظهم بهذا التقسيم — على التمييز بين ثلاثة عصور مختلفة فى التاريخ المصرى القديم ، هى عصر الدولة القديمة، وعصر الدولة الوسطى ، وعصر الدولة الحديثة . وتضم كل دولة من هذه الدول عددا من الأسر الفرعونية التى ذكرها « مانيثون » ، والتى حكمت مصر المتحدة .

المبحث الثانى

النظام الادارى

كانت أول حكومة مركزية لمصر المتحدة — وهى حكومة الملك مينا — كاملة التنظيم راسخة التقاليد بحيث يتعذر تحديد الوقت الذى تكونت فيه أنظمتها وتقاليدها . وذلك لأن الحكم الملكى فى مصر كان فى ذلك الوقت حكما عريقا لايمكن التكهن بالزمن الذى نشأ فيه . وقد كان يحكم مقاطعات مصر قبل عهد الوحدة الكاملة بأجيال طويلة ملوك محليون وصلت إلينا بعض أسمائهم ، وفى عهودهم المتوالية توطدت أسس الحكم ورسخت أنظمة الدولة ، حتى إذا انتهى العصر المعروف بعصر ماقبل التاريخ وبدأ العصر التاريخى على يد الملك مينا ، كان حكم البلاد مصحوبا بهيبة عظيمة وسطوة هائلة ، واحترام شديد يبلغ حد العبادة للملك ، وقد لقبه رعاياه « بالمعبود الطيب » ، ثم لقبوه « بالبيت الكبير » أى « برعو » باللغة الهيروغليفية . وكانوا فى بداية الأمر يطلقون هذا اللقب على قصر الملك ، ثم أصبحوا يطلقونه بعد ذلك على الملك ذاته . وقد حرّف الاسرائيليون فيما بعد هذا اللقب فنطقوه « فرعون » ، وبقى مستعملا كذلك إلى الآن .

وقد كان المصريون يعتقدون أن فرعون يمثل الله على الأرض ، ومن ثم

كانوا يعتبرون سلطانه مقدسا . ولذلك تركزت فى يده كل السلطات ، فكان هو رأس الدولة والمهيمن على كل شئونها .

وكان من مظاهر اكتمال الإطار الذى اتخذه الحكم الملكى فى عهد الملك مينا — بصورة تكاد تضارع أعظم الأنظمة الملكية فى العصر الحديث — ما درجت عليه تقاليد الحاشية الملكية حينذاك فى معاملاتها الرسمية التى كانت تراعيها بكل دقة . وقد كان أعضاء الحاشية الملكية من الوزراء العظام وكبار الضباط ، كما كان يحيط بالملك رئيس الديوان الملكى وكبير الأمناء والأمناء ، وكان أولئك جميعا من صفوة أبناء البيوت الرفيعة فى البلاد . وقد حفظ لنا التاريخ بعض الرتب وألقاب الشرف التى كان الملك ينعم بها على كبار موظفى القصر فى تلك العصور السحيقة . وكان نظام التشريفات يقتضى مراعاة هذه الرتب مراعاة دقيقة فى الاحتفالات الرسمية ومناسبات المثول بين يدى الملك .

بيد أنه على الرغم من مظاهر التقديس والإجلال التى كان المصريون يسبغونها على فرعون ، لم يكن متعاليا أو مغالياً فى الكبرياء والانزواء عن شعبه ، وإنما كان دائم العناية بهذا الشعب والعمل على راحته ورفاهيته ، كما كان دائم الاتصال بكل طبقاته والاستماع إلى كل مطالبه وشكاياته . فكان يستقبل رعاياه فى أيام الأعياد والاحتفالات والمناسبات العامة . وكان يأذن للمظلومين منهم — ولو كانوا من أبسط الطبقات — أن يدخلوا عليه فى قصره ليرفعوا إليه مظلماتهم ، فينصت إليهم وينصفهم .

ومن ثم لم تكن حياة فرعون حياة دعة ورفاهية ، وإنما كانت حياة نشاط وعمل ، وكان يقضى معظم وقته فى التشاور مع رجاله فى شئون الدولة ودراسة ما يعرضونه عليه من وثائق وتقارير ، وإصدار ما يراه بشأنها من أوامر وتعليمات . وكان إذا تعرضت البلاد لخطر الغزو تقدم الصفوف بنفسه ليحميها ويصد عنها عدوان المعتدين .

وكان الذى يلى فرعون فى المكانة والسلطان هو الوزير . وكان يعتبر ممثلا لفرعون ، ومسئولا أمامه عن كل شئون الدولة الإدارية والمالية والحربيـــة والقضائية . ولذا جرت العادة على انتخابه من أعرق العائلات وأكثرها إخلاصا للملك . وكثيراً ما كان الملك يختاره من بين أبنائه أو أفراد أسرته الأقربين . وكان من التقاليد المتبعة حين يقوم فرعون بتعيين الوزير أن يوجه إليه طائفة من النصائح والتوجيهات ، فكان مما يقوله له : « كن حريصا مخلصاً فى إدارة شئون البلاد ، وإذا أتاك مظلوم بشكاية فابحث بنفسك شكواه ، والتزم جانب الحق والعدل ، ولا تكن محابيا لأن غضب الله يحل على من يجنح إلى المحاباة . ولتكن معاملتك لمن لا تعرفه كمعاملتك لمن تعرفه ، ومعاملتـــك للغريب كمعاملتك للقريب » .

وكان الوزير — بحكم سلطاته وإشرافه على كل مرافق الدولة — بمثابة رئيس الوزراء فى العصر الحديث . كما كان كبار الموظفين الذين يخضعون لرئاسته بحكم اختصاصاتهم أشبه بالوزراء الحاليين : كوزير المالية ووزير الحربية ووزير العدل ووزير الزراعة وغيرهم .

وكان الوزير يباشر سلطاته من العاصمة حيث كانت توجد المراكز الرئيسية الإدارات المختلفة : كإدارة بيت المال التى هى بمثابة وزارة المالية ، وإدارة الأشغال وكانت تتولى بناء المعابد والأهرامات والقلاع والسدود وغيرها من المنشآت العامة . وإدارة الحملات وتشبه إدارة الجيش ، وكانت تتولى تجهيز الحملات لصد غزوات الغزاة وحفظ الأمن بالمناطق النائية . وإدارة الوثائق الملكية وتتولى حفظ المراسيم والأوامر التى تصدر عن الملك . وكان يقوم بالعمل فى هذه الإدارات وغيرها طوائف متعددة من الموظفين الذين يتفاوتون فى الرتب

والاختصاصات والمسئوليات بمقتضى نظام مسلسل ، لايقل فى دقته عن أحدث النظم الإدارية .

وحين ازدادت أعمال الوزير بعد أن أصبحت لمصر امبراطورية واسعة الأرجاء فى أزهى عصور التاريخ المصرى ، أصبح للدولة وزيران أحدهما لشئون الجنوب يقيم فى طيبة، والثانى لشئون الشمال يقيم فى منف.

وكان لكلّ مقاطعة من مقاطعات البلاد حاكم يعينه الملك ويخضع لإشراف الوزير ، وكان برأس الإدارات الحكومية فى مقاطعته ، ويتلقى أوامر الملك ومراسيمه ويتولى إذاعتها وتنفيذها ، يساعده فى ذلك عدد كبير من الموظفين فى الإدارات المحلية على نسق ما كان يجرى فى الإدارات المركزية فى العاصمة .

وإذ كانت مصر على الدوام — نظرا لثروتها ومركزها الممتاز — هدفاً لقبائل البدو المحيطين بها ، ومطمعاً للمغامرين من ملوك الأمم المجاورة ، كان من أهم واجبات السلطات الحاكمة ، العمل على تأمين حدود البــلاد ، وصد عدوان المعتدين عليها . ولذا كانت مصر أول دولة فى العالم عرفت الجيوش النظامية . فمنذ قرابة خمسين قرناً ،كان حاكم كل مقاطعة من مقاطعات مصر يقوم بتسجيل أسماء الشبان الذين يصلحون للتجنيد ، ثم يعمد إلى تدريبهم على الأعمال الحربية . حتى إذا دعت الضرورة إلى القتال ، كان فرعون يدعو حكام المقاطعات لإمداده بمــا لديهم من رجال ،فيسارع كل منهم على رأس جنوده ليشاركوا جميعا فى الذود عن البلاد ودفع الأعداء عنها . ثم إذا انتهت الحرب عادوا إلى مقاطعاتهم التى أتوا منها . بيد أن الحاجة لم تلبث أن دعت فراعنة مصر إلى الاحتفاظ بقوة مسلحة دائمة ، وتعتبر هــذه القوة أقدم مثــال للجيش الثابت فى التاريخ . كما عرفت مصر الأساطيل الحربية واستخدمتها فى نقل الجنود

وما تحتاج إليه من مؤونة وعتاد . ثم استخدمتها في المعارك البحرية ، دفاعا عن البلاد . وقد استطاع فراعنة مصر الأقوياء بواسطة جيوشهم وأساطيلهم طرد كل غاز أو غاصب يعتدى على أرض وطنهم أو يهدد حرية مواطنيهم . كما استطاعوا بواسطتها تكوين امبراطورية مترامية الأطراف شملت أغلب أقطار العالم التي كانت تحيط بمصر في ذلك الحين .

المبحث الثالث

النظام القضائي

كانت العدالة فى مصر منذ أقدم العصور مبدأ جوهريا من المبادىء التى يقدسها المصريون ، ويفيض حكماؤهم وحكامهم فى الحض عليها والإشادة بها والتنديد بمن يحيد عنها أو يعتدى على حرمتها : فيقول الحكيم « بتاح حوتب » فى ذلك « ما أعظم العدالة، فإن قيمتها خالدة ، وما من امرىء تعدى عليها إلا حل به العقاب » . ويقول الملك « خيتى » لابنه « كن حريصا على العدل وهدىء من روع الباكى ، ولا تظلم الأرملة ، ولا تحرم إنسانا من ثروة أبيه ، ولا تطرد عاملا من عمله ، لأن الله عليم بالرجل الظالم ، وهو يجازى ظلمه بالموت » . كما يقول الأمير « أمنمؤوبى » لابنه « لا تقبل هدية رجل قوى ، ولا تظلم الضعيف من أجله ، لأن العدل هبة عظيمة من الله » .

لذلك كان تحقيق العدالة هدفاً من أهداف الدولة منذ بداية التاريخ المصرى. وقد رأينا كيف كان فرعون يوصى وزيره عند تعيينه فى منصبه بأن يحقق العدالة بين الناس . كما كان فرعون يضع القوانين التى تهدف إلى هذه الغاية ، فكانت هذه القوانين هى أقدم التشريعات التى عرفها العالم . وقد ثبت أن القوانين الرومانية التى تعتبر أساساً للقوانين الحديثة إنما استمدت مبادئها من قوانين قدماء المصريين. ويقول المؤرخ القديم ديودور أن القوانين كانت موضوعة ومدونة فى عصر الملك

مينا . وقد توالى سن القوانين بعد ذلك . فقد أشير فى مواضع كثيرة من الآثار إلى قوانين قديمة جداً ، منها تشريعات الوزير « منتوحتب » أحد وزراء الملك « سنوسرت » الأول . التى أصدرها فى عام ١٩٧٠ قبل الميلاد ، وأوامر الملك تحوتمس الثالث ، أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، التى أصدرها فى عام ١٤٨٠ قبل الميلادإلى وزيره « رخمى رع » ، وأشار فيها إلى قوانين قديمة جداً. كما نرى فى مقبرة هذا الوزير صورة له وهو جالس على منصة العدالة باعتباره القاضى الأعظم ، وقد ظهرت أمامه على المنصة مجموعة من القوانين فى أربعين مجلداً . ومن أهم المجموعات القانونية التى وصلت نصوصها الينا ، مجموعة قوانين الملك « حور محب » الذى حكم فى نحو عام ١٣٣٠ قبل الميلاد . وقد جاء فى ديباجتها أن الملك أصدر هذه القوانين تحقيقاً للعدل وضمانا لرفاهية شعبه . وهى تشتمل على بيان العقوبات التى يتعين توقيعها على مرتكبى جرائم ابتزاز أموال الأهالى ، واستعمال القسوة معهم عند جمع الضرائب ، وسوء معاملة العبيد ، واختلاس الأموال العامة ، وغير ذلك من الجرائم . كما تشتمل على شروط تعيين القضاة والمبادىء التى ينبغى عليهم انتهاجها فى أداء واجبهم ، ومنها أن يحكموا بين الناس بالعدل ، وأن يمتنعوا عن قبول الهدايا وغيرها مما يعتبر فى حكم الرشوة، وقد جاء فى هذا الصدد « لا تأخذوا أى هدية من أحد ، لأنه كيف يمكنكم أن تحكموا بالعدل إذا كنتم أنتم أنفسكم جناة على القانون » .

ولعل أبرز مثال للعدالة فى عهد قدماء المصريين ، ما وصل الينا من أنباء محاولة اغتيال الملك رمسيس الثالث ، وما اتبع من الإجراءات فى محاكمة المتهمين بهذه الجريمة . ووقائع القضية كما ترويها الآثار أن الملكة تى زوجة الملك رمسيس الثالث علمت أنه عدل عن توريث العرش لابنه الشرعى منها وهو ولى العهد الأمير « بنتاؤور » ، واعتزم أن يورثه لأحد ابنائه غير الشرعيين . لذلك دبرت مع ابنها مؤامرة لاغتيال الملك ، فاتفقت مع بعض النساء والضباط

وموظفى القصر الملكى على قتله وتنصيب الأمير بنتاؤور مكانه . إلا أنه قبل تنفيذ المؤامرة عدل أحد المتآمرين عن الاشتراك فيها فافتضح أمرها . وقد كان للملك الحق بحكم سلطانه الإلهى فى إعدام المتآمرين دون محاكمة . ولكن رمسيس الثالث أبى إلا أن تأخذ العدالة مجراها ، وكان المتبع فى ذلك الحين أن تشكل محكمة الجنايات من عدد لا يزيد عن ثمانية قضاة . ولكن الملك — ضمانا للعدالة التامة — أمر بتشكيل محكمة من أربعة عشر قاضيا لمحاكمة المتآمرين ، وأوصى أولئك القضاة بأن يحكموا طبقا للقانون وما تمليه عليهم ضمائرهم دون تأثر بأى اعتبار آخر . كما أنه كى يكفل نزاهة الحكم إلى أقصى الحدود تنحى فى هذه القضية عن حقه الثابت باعتباره المرجع الأعلى والأخير فى تقرير العقاب ، وجعل الرأى النهائى فى ذلك للمحكمة . وقد قامت المحكمة بتحقيق القضية فى جو من الحياد التام ، وأصدرت فيها أحكاما مختلفة . فحكمت على المتآمرين الأصليين بالإعدام وحكمت على الشركاء الذين قاموا بأدوار ثانوية فى المؤامرة بعقوبة أخف . أما المتآمر الذى عدل عن الاشتراك فى الجريمة فقد حكمت ببراءته . ومن ذلك تتبين مدى ما بلغه المصريون فى تلك العصور البعيدة من حرص على العدالة ومن تقدم فى المبادىء القانونية والاجراءات القضائية ، حتى لو أن هذه القضية عرضت على محاكم أرقى الدول فى عصرنا الحاضر وطبقت بصددها أحدث القوانين ، لما اختلف حكمها عن هذا الحكم الذى أصدره القضاة المصريون منذ آلاف السنين . ولعل مما يستلفت النظر أن الفراعنة عرفوا جريمة الاعتداء على الملك وميزوا بينها وبين الجرائم العادية ، وأن الملك — إذ وقعت الجريمة على شخصه — تنحى عن ولاية القضاء فيها ، تحقيقا لنزاهة الحكم وتطبيقاً لمبدأ الفصل بين السلطات . وأن المحكمة قضت ببراءة المتآمر الذى عدل عن ارتكاب الجريمة ، وهذا يشبه ما تقضى به القوانين الحديثة ، إذ تعفى مثل هذا الشخص من العقاب .

أما من وجهة التنظيم القضائى ، فقد كان الملك هو رأس السلطة القضائية ، وهو

الذى يتولى إجراء العدالة . إلا أنه من الناحية العملية لم يكن يمارس القضاء بنفسه وإنما كان يعهد به إلى الوزير الذى كان يعتبر إلى جانب اختصاصاته الأخرى « كبير القضاة » . وكان الوزير بدوره يعهد بهذه السلطة إلى قضاة يجتمعون فى شكل دوائر للنظر فى الدعاوى الجنائية أو المنازعات المدنية، وكان يعاونهم كاتب قضائى يقوم بتسجيل الدعاوى وتدوين مايدور فى الجلسة بصددها ، ثم يسجل بعد ذلك الأحكام الصادرة فيها . كما كانت تعاون القضاة فى تحقيق الدعاوى وتنفيذ الأحكام بعض تنظيمات الشرطة المخصصة لذلك .

وكانت هيئة المحكمة تستمع إلى المتقاضين فى جلسة علنية . وكان القانون المصرى يحتم على المحكمة سرعة البت فى القضايا ، ويحدد لذلك مدة معينة لا يصح تجاوزها ، ليكفل بذلك العدل والطمأنينة لكل ضعيف أو مظلوم .

وكانت المحاكم فى مصر تنقسم إلى محاكم جنائية ومحاكم مدنية : وتختص المحاكم الجنائية بالنظر فى الجرائم على إختلاف أنواعها ومعاقبة مرتكبيها على مقتضى القانون . وتختص المحاكم المدنية بالفصل فى المنازعات حول الملكية وإثباتها وانتقالها بالبيع أو الهبة أو الوصية أو الميراث ، وما إلى ذلك من صور المعاملات. وكانت توجد ثلاثة أنواع من المحاكم المدنية : فكانت هناك محاكم القرى ، وتعقد فى كل قرية برئاسة حاكمها ، وكانت هناك محاكم عواصم المقاطعات وتعقد فى عاصمة كل مقاطعة برئاسة حاكمها كذلك . وكان وزير العدل هو الذى يعين قضاة هذين النوعين من المحاكم . أما النوع الثالث فهو محاكم استئنافية تنظر فيما يستأنف اليها من أحكام النوعين السالفين من المحاكم، وكانت تتكون كل منها من ستة قضاة يعينهم الملك .

ومن ذلك العرض السريع لنظام التشريع والقضاء لدى قدماء المصريين يتبين لنا إلى أى حد كانت العدالة مكفولة فى مصر ، وإلى أى درجة رفيعة وصلت العقلية القانونية لدى المشرعين والقضاة المصريين فى ذلك العهد البعيد ، فكانوا بالحقيقة هم أساتذة العالم فى هذا الميدان .

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية

بلغت الحياة الاجتماعية لدى المصريين منذ أقدم العصور قدرا عظيما من التقدم والرقى: إذ كانت الأسرة راسخة الأسس متينة البنيان، وكانت حياة المجتمع قد قطعت شوطا بعيداً فى المدنية التى تكاد تقرب فى كثير من مظاهرها من مدنيتنا الحاضرة .

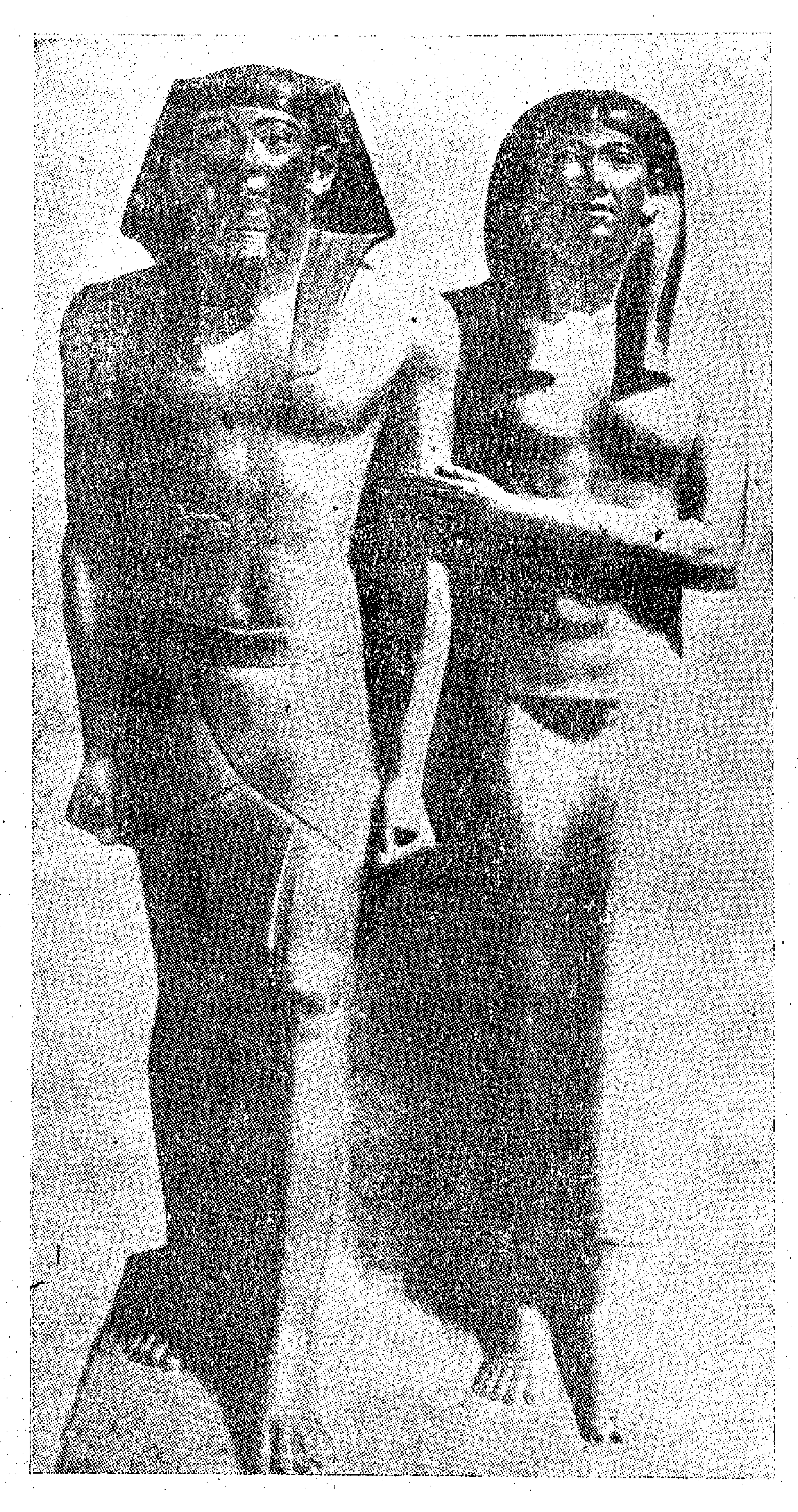
وقد عرف المصريون نظام الأسرة منذ أزمان طويلة يتعذر تحديدها . وكان لهذا النظام لديهم قدسية عظيمة واحترام كبير . وكانوا يلتزمون آداب الأسرة وتقاليدها التى تواضعوا عليها ، ويعتبرون من يهملها أو يحيد عنها جديراً باللوم والعقاب . ولذلك درجوا على أن ينصحوا أبناءهم بالزواج ، وبالتبكير فيه بقدر الإمكان ، معتبرين ذلك من أهم العوامل التى يقوم عليها المجتمع الصالح . وقد ظل الحكماء فى كل عصور التاريخ المصرى يؤكدون هذا المعنى : فقال حكيم الدولة القديمة « بتاح حوتب » ينصح ابنه « إذا كنت حكيما ، أسس لنفسك بيتا ، واتخذ لك زوجة تكون سيدة قلبك » . وقال حكيم الدولة الحديثة « آنى » مرددا هذه النصيحة « اتخذ لنفسك زوجة وأنت فى شبابك ، لتنجب لك ولدا ، حتى تعيش لتراه وقد أصبح رجلا ، لأن أفضل مافى الوجود هــو بيت يأوى إليه

الإنسان مع عائلته ، وما أسعد الرجل الذى يكثر أهله وعياله ، وما أرفع منزلته بين الناس » .

وكان الزواج يقوم على رغبة متبادلة بين الزوجين، يباركها الوالدان ويتوجانها بموافقتهما ، ثم تتم الإجراءات بتحرير عقد بين الزوجين يشبه العقود الحديثة إلى حد بعيد . وقد عثر الباحثون بين الآثار المصرية على عقد زواج يقول فيه الزوج لزوجته « لقد اتخذتك زوجة ، وللأطفال الذين تلديهم لى كل ما أملك الآن وما سأملك فى المستقبل » .

وكان قدماء المصريين يعتبرون الزوجة حجر الزاوية فى كل الشئون المتعلقة بالبيت وإدارته . ولذا كانوا يلقبونها « سيدة البيت » . وكانت موضع الحب والرعاية من زوجها . وقد قال « بتاح حوتب » فى ذلك « إذا كنت عاقلا فامنح حبك لزوجتك فى صدق وإخلاص ، ووفر لها الطعام والكساء ، واجلب لها العطور لأنها تسعدها ، وأدخل السرور إلى قلبها مادمت حيا ، لأنها حقل مثمر وأرض طيبة » . كما كان الرجل موضع الحب والاحترام والاهتمام من زوجته . ويمكننا أن نتبين روح الألفة والمودة التى كانت تسود بين الزوجين فى كل الرسوم التى وردت على جدران المقابر أو التماثيل التى خلفها لنا قدماء المصريين .

وكان الرجل يكتفى بزوجة واحدة ويخلص لها كما تخلص له . وكانت عقوبة الخيانة الزوجية هى الموت . إذ كانت قواعد الأخلاق وآداب السلوك التى تواضع عليها الناس فى مصر القديمة تقضى بالابتعاد عن الخيانة والإثم ، وإنزال العقاب الشديد بكل من ينحرف عن هذه القواعد . وفى ذلك يقول «بتاح حوتب» وهو ينصح ابنه « إياك أن تقرب الإثم فإن متعته قصيرة كالحلم ، ولكن جزاءه الموت » . ويقول « آنى » فى هذا المعنى « لا تتطلع إلى امرأة أخرى غير زوجتك ولا تجعلها تسرق قلبك » . ويقول « كن على حذر من المرأة التى تأتى من بلد



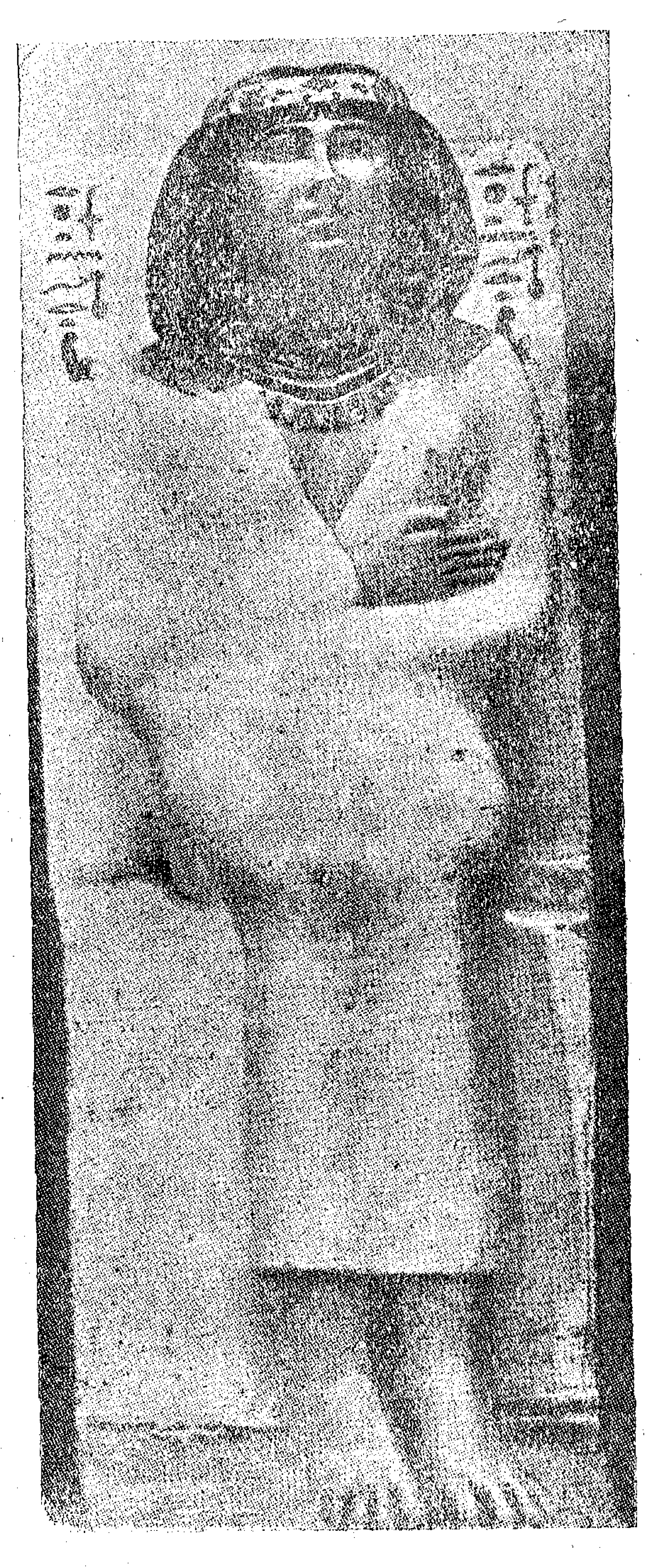
« تمثال لرجل وزوجته »

« يبدو فيه بوضوح مايجمع بينهما من تعاطف ومحبة »

غريب ولا تكون معروفة فى بلدك . لا تطل النظر اليها حين تمر بك ، وإياك أن تربطك بها صلة، لأنها ماء عميق القاع لا يعرف الرجل أغواره ». ويقول « إن المرأة التى غاب عنها زوجها لاتفتأ كل يوم تغريك بجمالها ، وتحاول بعيداً عن أنظار الناس أن توقعك فى فخها . فحذار أن تضعف أمام فتنتها ، لأن ذلك جرم عظيم يستحق الموت ، وإذا ارتكبه الإنسان هان عليه بعد ذلك اقتراف كل إثم ».

وكان للمرأة فضلا عن مكانتها فى البيت مكانة ممتازة فى المجتمع لم تبلغها لدى شعب آخر من الشعوب ، إذ كانت تتساوى مع الرجل فى كل الأمور ، وتختلط بالرجل دون حجاب ، وتجد من الجميع كل مودة واحترام : فكانت ترث من والديها نصيباً يتساوى مع نصيب إخوتها من الذكور ، وكان لها من الوجهة المدنية مطلق الحق فى التصرف فى أموالها دون الرجوع إلى أحد من أفراد عائلتها وكانت تنال حظا موفورا من الثقافة ، ومن ثم كان يتسنى لها أن تساهم فى الحياة العامة بنصيب لا يقل عن نصيب الرجل ، مما أتاح لها أن تشغل أرفع المناصب فى الدولة ، حتى لقد تولت العرش مراراً وانفردت بالسلطان. وتاريخ مصر حافل بعدد وافر من النساء اللاتى جلسن على العرش . ومن أشهرهن فى الدولة القديمة الملكة « نيتوكريس »، وفى الدولة الوسطى الملكة « سبك نفرو رع » ، وفى الدولة الحديثة الملكة « حتشبسوت » ، وفى العصر اليونانى الملكة « كليوبترا » .

وكان الزوجان يحبان أبناءهما ويقومان على تربيتهم وتعليمهم . ويقول « بتاح حوتب » فى ذلك « إذا كنت رجلا عاقلا فليكن لك ولد تقوم على تربيته وتنشئته . فذلك شىء ينال رضى الرب . حتى إذا اقتدى بك ونسج على منوالك، واهتم بشئونك ورعاها ، فعامله بكل محبة ورفق ، ولا تجعل قلبك يجافيه ، لأنه ولدك وقطعة من نفسك وروحك . أما إذا ركب رأسه وحاد عن الطريق القويم وتكلم بالبهتان فاضربه وأدبه حتى يعتدل ويستقيم أمره ويلزم الصدق فى قوله ، وباعد بينه وبين رفقاء السوء حتى لا يفسد ، لأن من يسير على دليل لا يضل » .

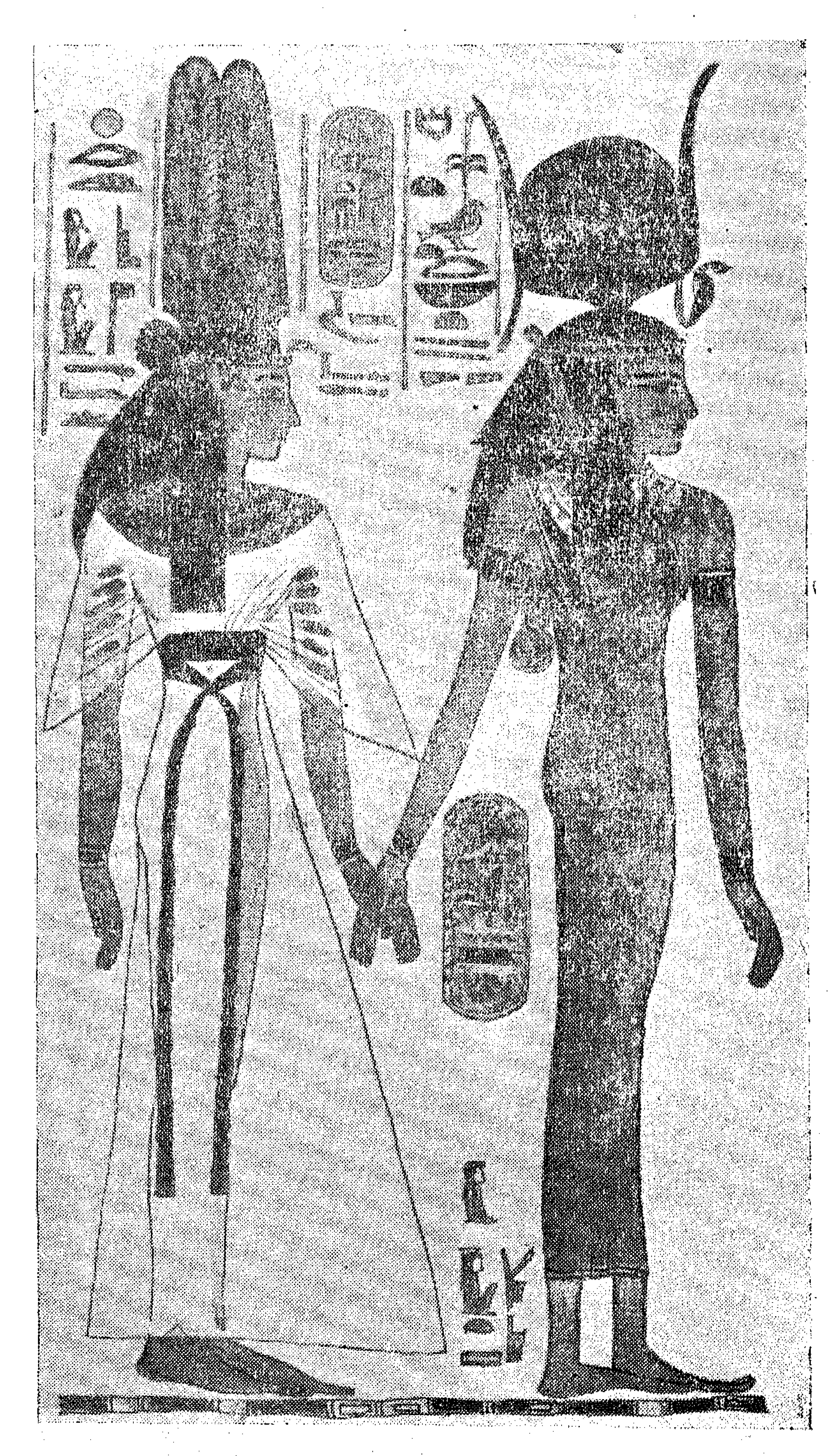


« تمثال للمرأة فى مصر القديمة »

ويقول المؤرخ القديم ديودور الصقلى فى كتابه عن مصر « إن الآباء المصريين كانوا ملزمين بتربية أبنائهم جميعاً . فلم تكن لدى المصريين عادة قتل بعض أطفالهم ، تلك العادة التى كانت متفشية فى اليونان » . كما يؤكد سترابون هذه الحقيقة قائلا « إن من التقاليد التى كانت مرعية لدى قدماء المصريين أن يقوموا بتربية كل من يولد لهم من الأطفال ، فى الوقت الذى كانت تنتشر فيه عادة قتل الآباء لأطفالهم لدى سائر الشعوب الأخرى » . ولا شك أن ذلك إنما يرجع إلى رسوخ الأسس الأخلاقية فى الأسرة المصرية وفى المجتمع المصرى . ومما يؤكد ذلك أن القانون المصرى فى ذلك الزمان كان يقضى بعقوبة قاسية على الرجل الذى يقتل طفله ، إذ يحتم عليه أن يظل محتضنا جثته ثلاثة أيام وثلاث ليال كاملة . ومن الواضح أن هذه العقوبة الغريبة كان المقصود منها إيقاظ ضمير الرجل وإشعاره ببشاعة جرمه ، ودفعه دفعا إلى الندم على مافعل .

وكان الطفل إذا بلغ السادسة أو السابعة من عمره يرسله أبوه إلى المدرسة حيث يتلقى العلم ويتدرج فيه من مرحلة إلى مرحلة ، حتى يصبح أهلا لأن يتولى الوظائف العامة أو يمتهن الطب أو غيره من المهن الراقية .

وكان الأبناء من ناحيتهم يحبون آباءهم ويحترمونهم ويطيعونهم ويعاونونهم فى كل الأمور . ويقول « بتاح حوتب » فى ذلك « ما أجمل أن يطيع الإبن أباه ، فيصبح أبوه من ذلك فى فرح عظيم » . ويقول « أطع والدك لأن المطيع يحبه الله » ويقول « آنى » موجها النصيحة لابنه « كن رحيما بأمك التى أنجبتك ، حتى إذا أصبحت شابا واتخذت لنفسك زوجة واستقر بك المقام فى بيتك ، لا تنس حق أمك عليك ، لأنها حملتك تسعة أشهر كنت فيها عبئا ثقيلا عليها . ثم حين ولدتك ظلت مع ذلك مغلولة بك ترضعك من ثديها ثلاث سنوات كاملة . فضع نصب عينيك على الدوام كل ماقاسته فى سبيلك ، وما فعلته لتربيتك وتنشئتك ، ولا تجعلها تغضب عليك أو ترفع يديها إلى الله بالشكوى منك ، لئلا يسمع الله شكواها » .



« نماذج من أزياء المرأة فى مصر القديمة »

ويتضح لنا من كل ذلك أن المصريين القدماء كانوا يتمتعون بحياة عائلية سعيدة، عامرة بالمودة والسلام . وقد كانت هذه الصفات كلها تنعكس على بيوتهم التى كانت آية فى الأناقة والجمال ، وكانت تحوى كل وسائل الراحة والرفاهية التى عرفها الإنسان فى أزهى العصور . وكان أثاثها — مع بساطته وملاءمته للغرض المقصود منه — غاية فى رقة المظهر ودقة الصناعة وبراعة التكوين . وقد بقيت لنا منه — بين آثارهم — قطع من أبدع وأروع مايتصور الإنسان بالنسبة [illegible] الحقبة السحيقة من الزمان ، وقد صنع بعضها من العاج والأبنوس ، وغلف [illegible] والفضة ، وزخرف بالرسوم المنقوشة أو الصور المزدانة بأبدع الألوان. وكانت تحيط بمنازلهم الحدائق الغناء الزاخرة بكل أنواع الفواكه والزهور ، ويحف بها الماء الجارى فى الجداول والغدران ، فيكسو الحياة من حولها بغلالة رقيقة من البهجة والهدوء .

وكان من مظاهر التقدم الاجتماعى لدى قدماء المصريين — فضلا عما رأينا من سمو حياتهم العائلية — ماكانوا يقيمونه من أعياد ومآدب وحفلات .

وقد كانت أعيادهم كثيرة ومتنوعة المناسبات والأسباب : فكانت منها الأعياد الموسمية كعيد رأس السنة وعيد الحصاد وعيد الفيضان . ومنها الأعياد الدينية كعيد أوزوريس وعيد إيزيس وعيد آمون . ومنها الأعياد الملكية كعيد ميلاد فرعون وعيد تتويجه وعيد نصره . وكان الاحتفال بكل هذه الأعياد فاخراً فخما ، زاخراً بكل مظاهر البهجة والسرور ، تشترك فيه البلاد كلها حكومة وشعباً ، وتخرج فيه المواكب العظيمة حاملة البيارق والأعلام والزهور .

وكان سراة المصريين — فضلا عن ذلك — يكثرون من إقامة المآدب والولائم والحفلات الخاصة حيث كانت تتجلى العلاقات الاجتماعية بين الناس فى أروع صورها ، وحيث كان يبدو من مظاهر الرفاهية والترف مايدل على [illegible] مابلغه المصريون فى ذلك الزمان من حضارة ورخاء .

الفصل الرابع

العقائد الدينية

نشأت العقائد الدينية لدى قدماء المصريين منذ عصور بعيدة جدا لا يمكن التكهن ببدايتها . وقد كانت لهذه العقائد فى حياتهم الأثر الأكبر والمكانة العظمى ، فكانت تسيطر على كل تفكيرهم وتؤثر فى كل أمورهم ، وكانت هى الأساس والمصدر لكثير مما عرفوه من أسباب التقدم وما خلفوه من مظاهر المدنية والحضارة .

ولا ريب أن العقائد الدينية فى ذاتها دليل على يقظة الفكر وصحوة الوجدان لدى الإنسان فى عصوره الأولى ، بعد أن كان يحيا على الفطرة ، لاهياً عما يحيط به من مظاهر الكون وأسرار الكائنات . فلئن كان المصريون قد بدأوا فى ذلك الزمان البعيد يتأملون فيما حولهم ويتساءلون عن كنه ما يكتنفهم من خفايا وخبايا ومعضلات ، ثم يدركون أن وراء هذا الوجود المنظور قوة غير منظورة ، هى التى أوجدته ، وهى التى تدير دفته وتدبر أموره وتقرر ما يقع فيه من أحوال وأحداث ، فقد برهنوا بذلك على أنهم انتقلوا من ظلام الحياة البدائية إلى نور العقل المعرفة ، وأنهم كانوا فى ذلك أسبق أهل الأرض جميعاً .

وقد آمن المصريون ، بعد التأمل والتفكير ، بوجود الله القدير ، فعبدوه وتعبدوا له ، وشيدوا المعابد ليقدموا إليـــه فيها فروض الولاء والإجلال ، ويقوموا له بفرائض الدعاء والابتهال . وقد دلهم شعورهم الصافى وضميرهم الصادق على ديانة الله التى أودعها فى أعماقهم ، وعلى شريعته التى شرعها لتكون أساساً ونبراسا لأعمالهم ولأخلاقهم . فكانوا أكثر الناس تمسكا بذلك الدين واستمسا كا بتلك الشريعة . وكانوا من ثم أوفر الشعوب نصيبا من المبادئ السامية والتعاليم الكريمة ، التى تدعو إلى الفضيلة وتنهى عن الرذيلة ، وترتب على انتهاج كل سبيل من هذين السبيلين المتعارضين ماينا سبه من ثواب أوعقاب. ذلك أنهم اهتدوا فضلا عن إيمـــانهم بالله إلى الإيمان بالخلود . فاعتقدوا أن الإنسان لايفنى بالموت ، وإنمـا ينتقل بعد الموت من هـذه الحياة المؤقتـة على الأرض إلى حياة دائمة فى السماء ، حيث يقدم حسابا عن كل ما أتاه فى حيـاته الأولى من حسنات أو سيئات ، ثم يتلقى الحـكم له أو عليه بالنعيم أو الجحيم .

وهكذا أصبح للدين لدى قدماء المصريين مكانة جعلته فوق كل شئون الدنيا ، وأصبح له من الخطر والأثر فى حياتهم ماحدى بهم لأن يخصصوا له القدر الأكبر من تفكيرهم وتدبيرهم وجهدهم ، ويقصروا عليه الجانب الأوفر من آدابهم وعلومهم وفنونهم . ومن ثم أصبح لرجال الدين — وهم الـكهنة — الأهمية العظمى والمنزلة التى لاتدانيها منزلة لديهم ، وأصبحوا يكرسون كل ما يملكون من مواهب وموارد وثروات ، لإقامة المعابد لله ، والمقابر لأنفسهم حين ينتقلون من هذه الحياه ، ويقضون العمر فى العبادة والاستعداد للحياة الخالدة بعد الموت ، وهم لايفتأون لهذه الغاية يزاولون الشعائر والطقوس والمراسيم، ويحاولون بسلوكهم المستقيم أن يكفلوا لأنفسهم ما وعد الله به الأتقياء من الجنة والنعيم .

فلا عجب أن كانت الديانة المصرية القديمة مناراً يهدى بضوئه كل أنحاء العالم القديم . وقد تأثرت بمبادئها فى ذلك الحين أغلب الشعوب المحيطة بمصر أو الخاضعة لسلطانها ، فلهجت بذكرها ، وانتهجت ذات سبيلها ، وكان لها بين أبنائها شأن أى شأن .

وسوف نتناول فيما يلى عقائد قدماء المصريين بشىء من التفصيل والتحليل: فنتكلم عن إيمانهم بالله ، ثم نتكلم عن اعتقادهم بالخلود ، وما كان له من أثر فى كل نواحى الحياه . ثم نتكلم عن المعابد وما استخدموه فى بنائها من علوم وفنون ، وعن الكهنة وما كان لهم من منزلة ونفوذ فى كل الشئون . ثم نتكلم أخيرا عما كان للعقائد الدينيـــة لدى قدماء المصريين من أثر فى ديانات الأمم الأخرى.

البحث الأول

الإيمان بالله

كانت لدى المصريين منذ أقدم العصور فكرة نقية صافية عن الله : فكانوا يؤمنون بوجوده ، وكانوا يؤمنون بوحدانيته ، وبما اجتمع له من صفات الكمال والجلال . وقد قرر المؤرخون القدماء هذه الحقيقة ، فقال هيرودوت « إن المصريين قوم يعرفون الله ويخافونه أكثر من أى شعب آخر » . وقال جامبليكس « إن المصريين كانوا يعبدون إلهاً واحداً هو سيد العالم وخالقه » . كما قرر المؤرخون الحديثون هذه الحقيقة كذلك ، فقال السيربيتر رينو « إن أصوات التسبيح للإله الواحد ، قد ارتفعت فى ربوع وادى النيل منذ أكثر من خمسة آلاف عام . وإن الاعتقاد بوحدانية الله وصفاته القدسية باعتباره الخالق السرمدى ومصدر الناموس الأبدى ، إنما يبدو كجوهرة متألقة بين أكداس المعتقدات الفرعونية التى تراكمت خلال العصور الطويلة » . وقال بروكش « إن المصريين كانوا يؤمنون بالله الواحد الذى خلق كل شىء » . ويؤيد ذلك أننا لا نجد فى الآثار التى وصلتنا عن العصور الأولى أى تمثال أو صورة لإله بعينه ، وإنما تسيطر على النصوص الدينية لتلك العصور شخصية إله لا تمثال له ولا صورة ، وتسميه تلك النصوص « الإله الأعظم » . ويقول بونكر تعليقاً على ذلك « إن الإله الأعظم للمصريين لم يكن فى الأصل هو إله الشمس رع ، ولم يكن هو أوزوريس ، وإنما كان سيد الزمان الأزلى » .

ولئن كان يبدو فى الظاهر — على مقتضى الدراسة السطحية للآثار — أن المصريين كانوا يعبدون آلهة متعددة . إلا أن الواقع أن هذا لم يكن إلا تعدداً ظاهرياً ، وقد نشأ عن تطور الحياة الاجتماعية ذاتها فى مصر منذ أقدم العصور : فقد رأينا أن المجتمع المصرى بدأ بالأسرة ، ثم بالقبيلة . وكانت كل قبيلة فى العصور السابقة على التاريخ قد هداها الوجدان إلى الإيمان بوجود الله ، بيد أنها كانت تتصوره بالطريقة التى تلائم عقليتها وتتفق مع بيئتها الخاصة ، وتعطيه اسماً خاصاً يتفق مع لغتها ، كما تجعل له رمزاً يتفق مع فهمها لطبيعته ، إذ كانت ترى أن هذه القوة الإلهية التى دل عليها الشعور الكامن فى أعماق النفس إنما تتمثل فيما حولها من الكائنات، فاعتقدت أن هذه الكائنات رموز لتلك القوة العجيبة والسلطة الخالقة البعيدة عن متناول الإدراك أو الإحساس ، فاحترمتها وقدستها وإن كانت تتمثل فى أصغر الموجودات . وقد ظل المصريون على احترامهم لهذه الرموز وتقديسها حتى فى أرقى عصورهم مدنية وحضارة . ويقول « كورت لانج » فى ذلك « إن مصر القديمة حتى نهاية حياتها الفرعونية ظلت بنت العصر الحجرى . وإن بقاءها فى داخل هذه التخوم الحضارية إنما هو مصدر قوتها وسيطرتها وسحرها . فإذا نحن فهمنا ذلك أمكننا أن نجد تفسيراً لكل تلك الأحاجى والألغاز التى تطرحها علينا مصر بلسان أبى الهول ، والتى أثارت إعجاب الإغريق والرومان ، وما فتئت تبعث على التأمل إلى اليوم ».

ومن ثم تطورت القبائل إلى قرى ، ثم القرى إلى مقاطعات ، ثم المقاطعات إلى دولة واحدة متحدة ، ولكن أهل هذه الدولة ظلوا مع ذلك يحتفظون بالاحترام لآلهة القبائل والقرى والمقاطعات الأصيلة جميعاً ، لأن من عادة المصريين الراسخة أن يحافظوا على كل قديم لديهم ويحترموه ، بل يقدسوه ويقدموه على كل جديد . بذلك احتفظت كل جهة بالصورة التى تخيلتها لله ،

وبالإسم الذى اختارته له ، وبالرمز الذى اتخذته ليدل عليه . ثم لكى يوفق الكهنة — فى عصر الوحدة — بين هذه الصور والأسماء والرموز المختلفة لله التى تبدو فى ظاهرها آلهة متعددة ، عكفوا على إيجاد إطار واحد ينتظم هذه الآلهة جميعاً ، ثم وضعوا كل إله منها فى المرتبة التى تليق به فى تقديرهم . وقد كانوا غالباً يعمدون — فى سبيل تحقيق هذه الغاية — إلى تقسيم الآلهة المختلفة إلى فئات تتألف كل فئة منها من أسرة مؤتلفة ، نظراً لما كانوا يكنون لنظام الأسرة من احترام . فكانت الطريقة المتبعة لذلك أنهم يبدأون بتعيين الإله الأكبر ، ثم يعينون إحدى الإلهات زوجة له ، ثم يجعلون لهذين ثالثاً يعتبرونه ابنهما : ففى طيبة مثلا كان الإله الأكبر هو « آمون » وزوجته هى الإلهة « موت »، وابنهما هو الإله « خنس » . وفى منف كان الإله الأكبر هو « بتاح » ، وزوجته هى الإلهة « سخمت » ، وابنهما هو الإله « نفرتم » . وهكذا .

وغالباً ما كانت تتدخل الاعتبارات السياسية فى الترتيب الذى يضعه الكهنة للآلهة . فكانت منزلة الإله الخاص بمدينة ما تعظم بارتفاع مكانة هذه المدينة : ومن ذلك أنه حين تأسست مملكتان عظيمتان فى الوجه البحرى والوجه القبلى ، صار الإله المحلى للمدينة التى وفد منها الملك فى كل من الوجهين يعلو على سائر الآلهة ، وأصبح هو إله المملكة كلها وحاميها ، فأصبح « حوريس » معبود « بهدت » هو إله الوجه البحرى ، وأصبح « ست » معبود « أمبص » هو إله الوجه القبلى . ثم حين اتحدت مملكتا الوجه البحرى والوجه القبلى ، وصارت عاصمة المملكة المتحدة هى « أون » المسماة الآن عين شمس ، إعتبر إله هذه المدينة المسمى « رع » هو الإله الأعظم والأوحد . بيد أن الحقيقة كما ذكرنا أن هذه الآلهة المتعددة لم تكن إلا مظاهر مختلفة لمعبود واحد ، أو بعبارة أخرى لم تكن إلا أسماء متباينة لإله واحد ، هو الله الذى لا إله غيره . ولكن الكهنة

فى محاولتهم الاحتفاظ بكل أسماء الله وكل صوره وصفاته التى كان معروفا بها فى كل مكان يعبد فيه ، اضطروا إلى ابتداع كثير من الأساطير التى أدت إلى كثير من المتناقضات . غير أنهم كانوا يدخلون فى روع الشعب أن هذه المتناقضات ليست إلا ضرباً من الحكمة العالية والأسرار المقدسة التى لا يقدر على فهمها إلا النخبة المختارة والصفوة الممتازة التى تنحصر فى رجال الكنهوت وحدهم . وعلى هذا الزعم أخذوا يتفننون فى حل تلك الإشكالات التى أوجدوها بأنفسهم . ومن أمثلة ذلك أن كهنة عين شمس لكى يوفقوا بين الآلهة المختلفة مع تمجيد إلههم « رع » زعموا أنه فى البدء كان الكون عبارة عن محيط هائل من المياه ، هو المحيط الأزلى الذى يتمثل فى الإله « نون » . وفى هذا المحيط ظهر الإله « رع » بقوته هو ومن صنع نفسه ، ومن ثم كانوا ينعتونه بأنه « الموجود بذاته » . ثم خلق « رع » بإراته الإله « شو » والإلهة « تفنوت » . وهذان باقترانهما أنجبا الإله « جب » إله الأرض ، والإلهة « نوت » إلهة السماء . ثم تزوج « جب » من « نوت » فأنجبا « أوزوريس » و « إيزيس » و « ست » و « نفتيس » . وكانوا يطلقون على أولئك الآلهة جميعا لقب « التاسوع الإلهى » .

بيد أن هذا المذهب الذى وضعه كهنة عين شمس ، والذى يظهر فيه الإله « رع » بمظهر الخالق الأول لم يصادف قبولا لدى كهنة الأشمونين الذين كانوا يعبدون الإله « نون » ، فابتدعوا أسطورة أخرى زعموا فيها أن « رع » لم يكن هو الذى خلق نفسه ، وإنما خلقه إلههم « نون » ، ومن ثم فهذا هو الإله الأعظم لأنه الخالق للإله « رع » ولجميع الآلهة .

حتى إذا أصبحت منف عاصمة المملكة المتحدة ، أراد كهنتها لإلههم « بتاح » أن يحتل مكان الصدارة بين الآلهة ، بل أن يرتفع فوق « رع » نفسه ، فقالوا إن « بتاح » هو قلب رع ولسانه ، أى عقله وإرادته ، وأن رع تدبر بقلبه ثم نطق

بلسانه فكانت الخليقة. فلولا «بتاح» إذن ما كانت الخليقة كما قالوا أن «بتاح» هو الفؤاد يختلج بالفكر، واللسان ينطق بما اختلج به الفؤاد، فهو خالق الآلهة جميعاً، ومبدع كل ماينبض بالحياة.

وكذلك أخذت بعض المعاهد الدينية الأخرى عن كهنة عين شمس مذهب خلق العالم الممثل فى تاسوعهم الإلهى، وجعلته ملائماً لأحوال كل منها، بأن وضعت كل جهة من الجهات إلهها المحلى موضع «رع» إله عين شمس، أى على رأس التاسوع ليكون له المكانة الأولى، ويمجد على أنه خالق السموات والأرض: فهكذا فعل كهنة طيبة بالنسبة لمعبودهم «آمون»، وفعل كهنة سايس بالنسبة لمعبودتهم «نيت»، وكهنة دندرة بالنسبة لمعبودتهم «حاتحور».

وهكذا نرى كيف كان الكهنة يستغلون مكانتهم المرموقة لدى الشعب العميق الإيمان، فيتصرفون فى المعتقدات الدينية وفقا لما تمليه الاعتبارات السياسية والرغبة فى التفوق والاستئثار بالسلطان. بيد أن هذه المعتقدات التى صاغها الكهنة على هواهم لم تكن يوماً ما من معتقدات الشعب، بل كانت على العكس محجوبة عنه، وكان يحتكرها المتفقهون فى اللاهوت. أما عامة أفراد الشعب فكانوا يعرفون الله فى صورته البسيطة المستقاة من الوجدان، ويقدمون له العبادة والخضوع كما كان يفعل أجدادهم منذ قديم الزمان. وكان حكماؤهم يذكرون الله فى أمثالهم ونصائحهم مجرداً عن أى تسمية، ومنزهاً عن أى تعدد: فيقول «آنى» لابنه «قدم القرابين لله واحترم اسمه لأن من حقوقه عليك التبجيل والإجلال. ولا ترفع صوتك فى بيته ولا تجهر بصلاتك، وإنما ابتهل إليه بقلب خاشع وهو يستجيب لك». ويقول «أمنمؤوبى» لابنه «لا ترقد بالليل متخوفا مما يجىء به الغد، لأن الغد فى يد الله، فاترك أمرك إليه وهو يدبّر كل شىء».

ومما يدل كذلك على أن المصريين كانوا يعبدون إلها واحدا لا شريك له وإن تعددت أسماؤه ، تلك الأناشيد التى كانوا يترنمون بها فى معابدهم : فكان أتباع أوزوريس يتعبدون له قائلين « الحمد لك ياأوزوريس ، ياإله الأبدية ورب الأرباب ، ياصاحب الأسماء المتعددة والعرش الأزلى . الواحد القوى الذى تمجده السماء والأرض » . وكان أتباع آمون يتعبدون له قائلين « الحمد لك ياآمون رع ، الموجود فى كل مكان ، الكائن فى كل شيء ، الوحيد فى طبيعته ، إله الآلهة ورب الأرباب ورئيس رؤساء الأرض ، الواحد الأحد الذى لاشريك له ، خالق كل الأشياء » . وكان أتباع آتون وعلى رأسهم الملك إخناتون يتعبدون له قائلين « ياآتون الحى . . أنت الموجود منذ الأزل ، أيها الإله الواحد الذى لا شريك له ، الذى خلق نفسه بنفسه ، ثم خلق الناس وكل ما على الأرض . أنت سيد الجميع ورب الأرباب » .

ويتبين لنا من كل ما سلف أن قدماء المصريين كانوا يؤمنون بالله الواحد ، وإن كان يبدو للوهلة الأولى أنهم كانوا يعبدون آلهة متعددة . وأن هذا التعدد إنما نشأ فى الظاهر عن أن كل قبيلة أو قرية أو مدينة أو مقاطعة فى مصر كانت تعرف الله باسم خاص بها . حتى إذا أصبحت مصر دولة متحدة إحتفظت بأسماء الله فى كل أنحائها . وقد عمل الكهنة على تعقيد الديانة المصرية كما رأينا ، بإدماج هذه الأسماء المتعددة لله وإدراجها فى نظام واحد يستند إلى المنافع الذاتية والغايات السياسية قبل كل اعتبار .

وكان من أبرز الآلهة — أو بعبارة أخرى أسماء الله — قبل توحيد البلاد على يد الملك مينا : الإله « بتاح » فى مدينة منف ، والإله « آمون » فى مدينة طيبة ، والإله « مين » فى مدينة قفط ، والاله « تحوت » فى مدينة الأشمونين . بيد أن الإله الذى كان أكثر ظهوراً فى ذلك العهد هو « حوريس » ، ولذلك كان

المصريون فى العهد التاريخى يسمون العصر الذى سبق توحيد البلاد « عصر أتباع حوريس». والمعنى الحرفى لحوريس هو « الواحد العالى » أو « الواحد السماوى »، وكانوا لذلك يرمزون له بالنسر المنطلق فى الفضاء .

حتى إذا تم توحيد البلاد وصارت عاصمة المملكة المتحدة هى « أون » أو عين شمس ، كان معبود هذه المدينة المحلى هو « رع » ، وكان كهنتها يعتقدون أنه يتمثل فى الشمس المضيئة ذاتها ، ويبشرون بأنه هو الإله الأعظم والأوحد ، وأن الإله القديم « حوريس » هو فى الحقيقة « رع » وأن الفرق بين الاثنين فى الإسم فقط . ولذلك أطلقوا على « حوريس » إسم « حوريس رع » . وقد بقى « رع » بعد ذلك هو أهم الآلهة لدى المصريين طوال التاريخ القديم ، وإن كانوا قد أطلقوا عليه فى بعض الأحيان أسماء أخرى ، منها « آتوم » و « آتون » و « حوريس » و « هاراختى » . فمهما تعددت المذاهب الدينية التى نشأت فى عين شمس وغيرها ، إلا أنها فى جوهرها لم تحد عن عبادة « رع » ، وإن كانت قد أدخلت فيها بعض التغييرات الطفيفة .

وفضلا عن الإله « رع » الذى يتمثل فى الشمس، كان ثمة الإله « أوزوريس» الذى يتمثل فى النيل . وقد كانت الشمس والنيل بالنسبة للمصريين أقوى مظاهر الطبيعة التى تتحكم فى حياتهم . لذلك فإنهم كما قدسوا الشمس وجعلوها رمزاً للإله « رع » ، كذلك رأوا فى النيل مصدر الحياة الأول ، وقد بدا لهم كأنه ساحر مس بعصاه الأرض الجديبة فحولها إلى جنة ناضرة ، فقدسوه ، وجعلوه رمزا للإله « أوزوريس » الذى كان من أحب الآلهة إلى قلوبهم ، لأنهم كانوا يعتبرونه إله الخير الذى انتصر على أخيه « ست » إله الشر .

وفى بداية العصر التاريخى ، حين أسس مينا المملكة المتحدة وجعل عاصمتها مدينة منف ، أصبح إله هذه المدينة « بتاح » هو الإله الأكبر . ومنذ ذلك

الحين احتل هذا الإله فى كل عصور التاريخ المصرى مكانة مرموقة بين سائر الآلهة .

كذلك حين ارتفع شأن طيبة فى بداية عهد الدولة الوسطى ، إعتبر « آمون » معبودها المحلى إله الشمس ، ومن ثم أصبح اسمه « آمون رع » ، وأصبحت منزلته فوق كل الآلهة ، وأقيمت له المعابد العظيمة ، وكان فراعنة مصر فى عصر الامبراطورية يقودون جيوشهم الظافرة إلى الفرات شمالا وإلى أقاصى السودان جنوبا فى حماية هذا الإله ، وكانوا يهبونه الجانب الأكبر من الغنائم التى يعودون بها من البلاد المقهورة . وقد أصبح « آمون » معبود مصر القومى فى عهد الدولة الحديثة ، فلم يكن لغيره من الآلهة المصرية مكانة عظيمة إلا « رع حوريس » إله عين شمس ، و « بتاح » إله منف . لذلك كانت تقام المعابد فى البلاد الأجنبية التى يغزوها الفراعنة للإله آمون أولا ثم لرع حوريس ثانياً ثم لبتاح بعد ذلك . وكان أهل تلك البلاد يعبدون هذه الآلهة باعتبارها الحامية للامبراطورية المصرية كلها .

وقد ارتفع شأن الإله « ست » فى بعض عصور التاريخ المصرى وكان فى أول الأمر هو المعبود المحلى لمدينة « أمبص » . ثم أصبح إله المملكة الجنوبية . ثم دخل ضمن آلهة « التاسوع الأكبر » لعين شمس . ثم استقرت عبادته فى شرق الدلتا ، ولا سيما فى مدينتى تانيس وأواريس . ثم تخطى الحدود المصرية وصار حامياً للبلاد الخاضعة لمصر فى آسيا . وقد اعتبره ملوك الأسرة التاسعة عشرة جداً لهم وتسمى بعضهم باسمه ، ومنهم « سيتى » و « سيتنخت » . وعند ما نقل رمسيس الثانى مقر حكمه إلى مدينة تانيس ارتفعت مكانة ذلك الإله ، لأنه كان معبود هذه المدينة ، فأصبح من أهم المعبودات فى الدولة ، وأصبح يضارع فى منزلته الآلهة آمون ورع حوريس وبتاح . ولذلك أقيم له بدلا من معبده القديم معبد جديد فخم لاتزال بقاياه العظيمة تشهد ببهائه الغابر . ويبدو أنه فى أواخر عهد

الامبراطورية ، حين أخذت العلاقة بين مصر وممتلكاتها الآسيوية فى التفكك ، تدهورت عبادة « ست » ، لأن المصريين بدأوا يشعرون بالعداء نحوه ، إذ اعتبروه حامى أعدائهم ، كما أخذ الكهنة يبرزون الدور الذى نسبوه إليه فى قصة أوزوريس ، إذ غدر بأخيه إله الخير وقتله ، ومن ثم اعتبره المصريون إله الشر ، وأصبح فى نظرهم رمز الظلام ورب القحط ، وتمثلوه شيطاناً بين الآلهة ، ثم انتهى الأمر بإخراجه من بين المعبودات المصرية ، فبطلت عبادته فى كل مكان .

وكان من الآلهة المعروفة فى كل أنحاء البلاد الإله « تحوت » إله الأشمونين ، وكان الكهنة يعتبرونه إله القمر ، ويقولون أنه هو الذى أبدع نظام الطبيعة ، وأوجد فصول السنة ، ووضع المواقيت والمقاييس ، ولذا كانوا يعتبرونه كذلك إله العلم والحكمة .

كما أن من الآلهة الأخرى التى بلغتنا أسماؤها « شو » إله الهواء ، و « تفنوت » إله الماء ، و « جب » إله الأرض ، و « نوت » إلهة السماء ، و « معات » إلهة العدل ، و « حاتحور » إلهة الجمال ، و « تاتننت » إلهة الفن ، و « أنوبيس » إله التحنيط ، و « إيزيس » زوجة « أوزوريس » ، وأختها « نفتيس » . وذلك فضلا عن الآلهة « نون » و « نيت » و « موت » و « ميتيت » و « باخت » و « خنوم » و « نفرتم » و « سبك » و « وبوات » ، وغيرهم من الآلهة العديدة التى لم تكن تمثل سوى صفات متعددة وأسماء مختلفة لله كما عرفه قدماء المصريين .

ومن أشهر القصص الدينية لدى قدماء المصريين أسطورة « أوزوريس » التى كان لها شأن كبير فى كل عصور التاريخ المصرى ، ومؤداها أن « أوزوريس » كان ملكاً على مصر فى قديم الزمان ، وكان حكيما فاضلا فى طبيعته ، ورحيماً عادلا مع رعيته ، فأحبه الناس كل الحب وأخلصوا له كل الإخلاص .
ومن ثم حسده أخوه « ست » وحقد عليه وعزم على أن يتخلص منه

ويجلس على العرش في مكانه ، فصنع صندوقاً جميلا في حجم « أوزوريس » ، مغلفاً بالذهب والفضة ، ومرصعاً بالجواهر والأحجار الكريمة ، ثم أقام وليمة فاخرة لأخيه دعا إليها عدداً كبيراً من المتآمرين معه . وفي أثناء الوليمة عرض « ست » على المدعوين ذلك الصندوق الثمين ، وأعلن أنه يمنحه هدية لمن يكون مطابقاً لجسمه . فأخذ كل منهم يرقد في داخله ولكنه لم يطابق جسم أحد منهم ، وأخيراً تقدم أوزوريس ورقد في الصندوق ، فأسرع المتآمرون وأغلقوه عليه ودقوه بالمسامير ثم ألقوه في النيل . فلما علمت إيزيس زوجة أوزوريس بما حدث له ، حزنت عليه حزناً شديداً وبكته بكاءاً مراً ، وانطلقت تبحث عنه في كل مكان . ولم تلبث أن عرفت أن الأمواج قد حملت الصندوق الذي يحوي جثته وألقت به على شاطيء فينيقيا بالقرب من مدينة بيلوس ، فأسرعت إلى هناك حيث عثرت على الصندوق بعد جهود مضنية ، وعادت به إلى مصر . إلا أن « ست » كان في انتظارها فما لبث أن اعترض طريقها واستولى على الصندوق وفتحه وأخرج منه جثة أخيه ومزقها إلى قطع عديدة ، وألقى بكل قطعة منها في ناحية من أنحاء مصر ، كي يتخلص من أخيه إلى الأبد . فما رأت إيزيس ذلك حتى ارتاعت وفزعت أشد الفزع . وقد تصدع من الفجيعة قلبها ، ولكنها مع ذلك لم تيأس ، وإنما انطلقت وهي تذرف الدموع تطوف بكل بقاع الوادي باحثة عن أشلاء زوجها ، تساعدها في ذلك أختها نفتيس وهي زوجة ست . حتى إذا جمعت الأشلاء كلها راحت تتلو عليها بعض الأدعية والابتهالات ، وتحاول أن تضم هذه الأشلاء — بمعاونة « تحوت » إله الحكمة وأنوبيس إله التحنيط — فلم تلبث أن دبت فيها الحياة من جديد ، وقام أوزوريس من الموت . إلا أنه رفض أن يعود إلى حكم هذا العالم ، وفضل أن ينطلق إلى السماء ، حيث اختارته الآلهة — في اعتقاد المصريين القدماء — ليرأس المحكمة التي تحاسب الأموات عن أعمالهم في الدنيا ، فتحكم للأبرار بالنعيم وللأشرار بالجحيم . . وكان لأوزوريس من

زوجته إيزيس إبن اسمه حوريس ، فما بلغ مرحلة الشباب واشتد ساعده ، حتى قام لينتقم لأبيه من « ست » ، ومازال ينازله ويقاتله حتى انتصر عليه واسترد منه عرش أبيه . بيد أن النزاع لم يلبث أن تجدد بين « حوريس » و « ست » على العرش فتشاحنا ورفعا أمرهما إلى محكمة السماء التى كان يرأسها رع . وكان حوريس يعتز فى دعواه بوضوح حقه وعدالة قضيته . بينما كان « ست » لا يعتز إلا بقوته وسطوته . وقد كانت الأحكام الأولية فى هذه القضية فى مصلحة « ست » . ولكن الأدلة لم تلبث أن توافرت ضده وتضافرت عليه ، فلم تجد المحكمة بداً من إصدار حكمها لصالح الحق ، وحكمت بالعرش لوارثه الشرعى وهو حوريس ، فاسترد بذلك تاج أبيه أوزوريس .

وكان المصريون يقومون فى كل عام بتمثيل أطوار حياة أوزوريس وموته وقيامته فى احتفال دينى عظيم . وكانوا يعتقدون أن مقبرة أوزوريس موجودة فى أبيدوس المعروفة اليوم بالعرابة المدفونة بالبلينا ، فكان فريضة على كل منهم أن يحج إليها مرة على الأقل فى حياته ، وكان مما يعتبرونه شرفاً وسعادة عظمى أن يبنوا قبورهم بالقرب من قبره ، أو يقيموا على الأقل شواهد فى ذلك المكان ينقشون عليها أسماءهم . وكذلك حرص المصريون على تحنيط جثث موتاهم فى صورة جثة أوزوريس ، وقد وضع يديه على صدره ممسكاً بإحداهما عصى الراعى ، وبالأخرى السوط الملكى . كما حرصوا على أن تجرى على جثثهم عند الدفن ذات الطقوس التى أجريت على جثة أوزوريس ، حتى يعودوا كما عاد إلى الحياة ، ويتمتعوا مثله بالنعيم الأبدى .

وكان أوزوريس هو المثل الأعلى لدى المصريين لرب الأسرة الفاضلة المناضلة : فهو الأب المحبوب من أخته نفتيس ، ومن زوجته إيزيس ومن ابنه حوريس . وكان تعاونهم جميعاً وتبادلهم الحب والحماية والرعاية مثالا تحتذيه العائلات المصرية على طول التاريخ القديم فى مصر ، بل وفى بلاد كثيرة غير مصر .

كما ألهمت هذه القصة المصريين جميعاً بأن الحق مهما لاقى من جحود وإنكار لايلبث أن ينتصر فى النهاية كما انتصر « حوريس » ، وأن كل من يحسن فى دنياه



« مومياء الملك توت عنخ آمون وهو محنط فى هيئة أوزوريس »

ويلاقى المتاعب ويتحمل الآلام كما فعل « أوزوريس » يعود إلى الحياة مرة أخرى ويتمتع فى السماء بالسعادة والسلام .

البحث الثانى

عقيدة الخلود

كان المصريون منذ أقدم العصور يعتقدون أن الحياة الدنيا ليست إلا إقامة مؤقتة ، يتبعها الخلود فى الحياة الآخرة . فكانوا يعتبرون الموت عائقاً فى سبيل الحياة وليس نهاية لها . ومن ثم لم يكونوا ينظرون إليه بخوف أو رهبة ، لأنهم كانوا يقولون عن موتاهم « إنهم لا يتركون هذه الدنيا أمواتاً بل أحياء ». وكانوا يسمون قبورهم « المساكن الأبدية » . وقد كتب أحد قدماء المصريين يقول « كأنني — والموت ماثل اليوم أمامى — رجل اشتاق إلى رؤية بيته بعد أن غاب عنه سنوات عديدة فى الأسر ، كأنني إنسان يعود إلى وطنه من ميدان القتال » ثم يقول « إن من مات سيصير فى الدار الآخرة إلهاً حياً يدين الخطاة والمذنبين » .

وقد جمع المصريون كل العقائد الخاصة بالحياة بعد الموت من أول عصور تاريخهم ودونوها فى مجموعات أقدمها وأهمها «متون الأهرام»، و« كتاب الموتى».

وكان اعتقادهم بالخلود يقوم على أساس اعتقادهم أن الإنسان ليس جسماً مادياً فحسب ، وإنما يتكون فضلا عن جسمه المنظور من كائنات نورانية غير منظورة ، أهمها « الكا » وهى قرين للإنسان يولد معه ، ويرافقه طول حياته ، ثم يحرسه بعد مماته ، و « البا » ، أى الروح ، وهى تلازم جسم الإنسان فى الحياة

الدنيا ، ثم تفارقه عند الموت وتصعد إلى السماء . ولكنها لاتلبث فى يوم معين أن تعود إلى الجسم وتندمج فيه ويستمتعان معاً بالحياة الأبدية الخالدة . وكانوا يعتقدون أن بقاء « الكا » بعد الموت يتوقف على بقاء الجسم سليماً ، وأنه هو الواسطة بين الجسم والروح .

وقد أدى اعتقاد المصريين باستمرار الحياة بعد الموت ، وضرورة بقاء الجسم كى يحل فيه القرين ، إلى حرصهم على تحنيط أجساد موتاهم وحفظها فى قبور منيعة متينة البنيان ، وممارستهم طقوساً معينة فى دفنها ، وتوفيرهم للميت كل احتياجاته كما لو كان حياً :

وقد كان المصريون أول من ابتدع فن التحنيط ، وقد دل توصلهم بواسطته إلى حفظ الجسم سليماً لايتطرق إليه الفساد أو الفناء عدة آلاف من السنين ، على مدى التقدم الذى أحرزوه فى علوم الطب والتشريح والكيمياء فى ذلك العصر السحيق ، حتى ليعتبر سر التحنيط الذى توصلوا إليه من أروع الأسرار العلمية فى كل العصور .

وكانوا لكى يكفلوا سلامة الجسم بعد تحنيطه يحرصون على دفنه فى قبور محصنة بعيدة عن عبث العابثين ، وجافة بعيدة عن الرطوبة التى تحلل الأجسام . وهذا هو السر فى تشييد تلك الأهرامات العظيمة التى طاولت بضخامتها الجبال ، وقاومت عاديات الزمن ، والتى بناها ملوك مصر الأوائل كى تكون مقراً لأجسامهم بعد الموت ، وكى يطمئنوا بواسطتها إلى استمرار الوجود ، ويضمنوا لأنفسهم الخلود .

وكانوا يحملون الجثة إلى القبر فى تابوت من الخشب ويسيرون بها فى احتفال عظيم . وكان الكهنة أثناء سير الجنازة يحرقون البخور وهم يرتلون التراتيل الدينية طالبين الرحمة للمتوفى . وكان يسبق النعش طائفة من الشباب يرتدون ملابس خاصة ، ويرددون مرثيات حزينة ، وهم يؤدون بعض الإيماءات التعبيرية ،

وتحيط به نادبتان تمثل إحداهما إيزيس زوجة أوزوريس ، وتمثل الأخرى أخته نفتيس . ويتبعه أقارب المتوفى وأصدقاؤه . حتى إذا بلغوا القبر دفنوا الجثة فى هيئة خاصة ذات دلالة لديهم . إذ كانوا يجعلونها فى صورة القرفصاء ، ويداها موضوعتان على الصدر فى شكل الابتهال . ورأسها ناحية الشمال . ووجهها متجه إلى المشرق . وكانوا يقيمون عند القبر احتفالات جنائزية ، يذبحون أثناءها ثوراً بمثابة الكفارة ، أو ذبيحة النعش .

وإذ كانوا يعتقدون أن حياة الإنسان تستمر حتى فى قبره بواسطة القرين — أو « الكا » — كانوا يضعون معه فى القبر كل ما كان يستعمله أو يحتاج اليه قبل موته من أطعمة وأشربة وملابس وأدوات وأسلحة . كما كانوا يضعون معه تماثيل تشبهه تمام الشبه ، وينقشون اسمه وألقابه ووظائفه على حوائط قبره ، حتى إذا عادت الروح إلى الجسم فى اليوم المحدد لذلك سهل عليها الاهتداء اليه .

وكانوا يعتقدون أن الإنسان يؤدى بعد موته حساباً عن أعماله فى الحياة الدنيا أمام محكمة مكونة من اثنين وأربعين قاضياً برئاسة أوزوريس . ويتحتم على المتوفى أن ينفى نفياً قاطعاً أمام كل من هؤلاء القضاة أنه ارتكب أى إثم . فإذا ثبت للمحكمة أنه من البررة الأطهار ، قضت له بالنعيم الأبدى فى « جنة السلام » ، وإذا ثبت أنه من الأثمة الأشرار ، حكمت عليه بالهلاك ، وألقت به فى هاوية الجحيم. ومع أن المصريين كانوا يثقون فى عدالة هذا الحساب ، إلا أنهم كانوا يتوقون مع ذلك إلى توخى جانب الرحمة فى الحكم ، فكانوا لا يفتأون يتلون الصلوات والابتهالات على جثث موتاهم ، ويدونونها على توابيتهم ، أو على جدران مقابرهم ، أو فى لفائف من البردى يدفنونها معهم ، عساها أن تشفع لهم أمام محكمة أوزوريس ، فتغفر لهم بعض ذنوبهم ، وتخفف إذا أمكن من عذابهم.

البحث الثالث

المعابد

كان المصريون منذ أقدم العصور يحرصون على أداء فروض العبادة لله ، ويخصصون فى كل بيت من بيوتهم مقصورة يتعبدون فيها له ، ويقدمون قرابينهم إليه . كما كانوا يقيمون فى كل حى من أحيائهم معبداً صغيراً يسمونه « بيت الله » .

وكان المعبد فى العصور السابقة على التاريخ عبارة عن ردهة مستطيلة ، يقوم على بابها عمودان ، ويحيط بالبقعة المقدسة منها سياج ، فلا يدخلها إلا المسموح لهم بذلك . وقد أخذت عمارة المعابد تتدرج فى الرقى بعد ذلك من عصر إلى عصر .

ويعتبر معبد أبى الهول أقدم المعابد التى عرفناها حتى اليوم ، وهو بناء ضخم يمتاز بالروعة والرهبة . كما أن من أعظم المعابد التى بقيت لنا من عهد الدولة القديمة ، معبد بناه الملك « نوسررع » أحد ملوك الأسرة الخامسة ، وقد أقيم فوق ربوة عالية على بعد عشرة أميال جنوبى أهرام الجيزة ، وينتهى الطريق الصاعد إليه ببوابة هائلة تؤدى إلى بهو شاسع ، تتوسطه مسلة شاهقة على قاعدة من الجرانيت الأحمر ، ويقوم فى مواجهة البهو مذبح عظيم مشيد من كتل ضخمة من المرمر .

وكان لبناء المعابد على العموم نظام مقرر لا يكاد يتغير : فكان يؤدى إلى المعبد فى العادة طريق مرصوف ، تنتصب على جانبيه تماثيل أبى الهول أو غيره من الرموز المقدسة ، وتقوم عند مدخله بوابة عظيمة مشيدة من الحجر ومزدانة بطنف يتوسطه رسم الشمس ذات الأجنحة ، وتؤدى هذه البوابة إلى مساحة واسعة مكشوفة ، يحيط بها عدد كبير من الأعمدة ويتوسطها المذبح . ويرتفع فى مواجهتها بناء يضم بهواً صغيراً له سقف قائم على أعمدة ، يتلوه بهو آخر ذو ثلاثة صحون متوازية ، يزيد ارتفاع أوسطها عن الصحنين الجانبيين ، ثم يتلو ذلك قدس الأقداس ، وكان يعتبر أطهر مكان فى المعبد ، ولا يباح الدخول إليه إلا لطائفة معينة من الكهنة .

وكانت تحيط بالسياج الخارجى للمعبد فى العادة مساكن كهنته ، ومخازن الغلال وحظائر الذبائح المخصصة له . فكان كل معبد وما يحيط به من المبانى المختلفة بمثابة مدينة صغيرة .

ولم يفتأ بناء المعابد يتطور مع الزمن ويزداد ضخامة وفخامة ولاسيما فى عصر الامبراطورية . ولعل أبرز وأبرع مثلين لذلك هما معبد الأقصر ومعبد الكرنك ، اللذين يعتبران من أبدع وأروع دور العبادة فى كل عصور التاريخ .

وكانت جدران المعابد من الداخل تغطى بالنقوش والرسوم والصور التى تمثل الاحتفالات الدينية التى تقام داخلها . أما من الخارج فكانت تغطى بما يحكى مفاخر الفراعنة وما حققوه من خير للرعية أو نصر على الأعداء .

وكان لكل معبد من المعابد ثروة عظيمة من الأوانى المقدسة المصنوعة من الذهب أو الفضة ، والمرصعة بالجواهر والأحجار الكريمة ، كالكؤوس والأباريق والمباخر والأوعية المخصصة لحفظ أسفار الصلوات والطقوس والأوعية .

وقد درج الفراعنة على تقديم الهدايا العظيمة للمعابد ، ولا سيما بعد عودتهم ظافرين من ميادين القتال . وكانوا يخصصون لها رواتب سنوية ضخمة من كل محصولات البلاد ، ويهبونها مساحات شاسعة من الأرض لتكون وقفا عليها . وذلك فضلا عما كان يقدمه أفراد الشعب جميعاً من العطايا والقرابين . ومن ثم أصبح للمعابد شأن عظيم وثروات طائلة ، وأصبح كهنتها لذلك من أكبر الطوائف قدرا وأعظمها نفوذاً فى البلاد .

البحث الرابع

الكهنة

ولم تكن خدمة المعابد فى العصور الأولى وقفا على طائفة خاصة، وإنما كانت حقاً عاماً لكل أفراد الشعب . فكان كل فرد يؤدى للمعبد مافى قدرته من خدمات، ولكل فرد — ولا سيما علية القوم — فضلا عن وظيفته الدنيوية وظيفة أخرى دينية ، يؤديها فى المعبد بيد أنه مع مرور الزمن لم تفتأ أن ظهرت طائفة اقتصر عملها على خدمة المعبد ورعاية شئونه ، وكانت تلك هى طائفة الكهنة .

وكان عدد الكهنة الرسميين حتى أواخر عصر الدولة الوسطى قليلا بالنسبة للعدد الكبير من أفراد الشعب الذين كانوا يقومون بالخدمة الدينية إلى جانب أعمالهم الدنيوية الأخرى . ولذلك كانوا يلقبون بالكهنة الوقتيين . بيد أنهم كانت تضمهم فى كل معبد جماعة منتظمة دائمة تنتسب إلى ذلك المعبد ، وتقوم بخدمته بالتناوب . حتى إذا بدأ عهد الدولة الحديثة إزداد عدد الكهنة الرسميين زيادة عظيمة ، واقتصرت الخدمة الدينية عليهم .

وكان الكهنة ينتظمون فى درجات تصاعدية تبدأ بطائفة صغار الكهنة ، وتنتهى عند القمة بالكاهن الأعظم . وكان للكاهن الأعظم فى مصر مكانة رفيعة ونفوذ خطير ، وكان يتمتع بأكبر سلطة دينية فى البلاد ، ويخضع له رجال الدين، وتقع تحت هيمنته كل المعابد وما يتعلق بها من ممتلكات وثروات . بل كان يعتبر

ممثلا لفرعون فى كل الشئون الدينية . وكان هو الموكل فى غياب فرعون برئاسة الاحتفالات الإلهية وإقامة الشعائر الدينية فى أيام الأعياد والمواكب العظيمة . كما كانت له سلطات إدارية ظلت تزداد وتتسع دائرتها مع الزمن حتى أمكن للكاهن الأعظم فى وقت من الأوقات أن يجلس على عرش البلاد .

وكان فرعون هو الذى يقوم — نيابة عن الله — بتنصيب الكاهن الأعظم. وكان ذلك يتم فى احتفال كبير . ولم يكن من المحتم اختيار الكاهن الأعظم من بين كبار الكهنة ، بل لم يكن من الضرورى اختياره من رجال الدين على الإطلاق، فكان يمكن أن ينتخب فرعون لهذا المنصب الرفيع أحد كبار الموظفين من رجال البلاط ، أو حتى من قواد الجيش .

وكان الذى يلى الكاهن الأعظم فى المكانة هو « الكاهن الثانى » ، وكان يعاون الكاهن الأعظم فى كل أعماله ، وينوب عنه فى كثير من اختصاصاته . ويليه « الكاهن الثالث » ثم « الكاهن الرابع » ، ثم الكهنة العاديون، وهم الذين يؤدون الطقوس الدينية ؛ ثم يلى هؤلاء فريق آخر من صغار الكهنة ، وينقسمون إلى عدة طوائف تؤدى كل طائفة منها وظيفة دينية معينة . فكان منهم « الكهنة المطهرون » لخدمة قدس الأقداس ، و « الكهنة المرتلون » لترديد التراتيل والترنم بالأناشيد الخاصة بالعبادة ، و « الكهنة العاملون » وهم المكلفون بصيانة المعبد وحراسته وحفظ النظام فيه وغير ذلك من الأعمال .

وكان للمعبد كاهنات من النساء كذلك . وكانت منهن فرقتان متميزتان : إحداهما فرقة وصيفات المعبود ، والأخرى فرقة الموسيقيات والمنشدات . وكن جميعاً من بنات أكرم العائلات فى البلاد . وكما كان الملك يعتبر الرئيس الأعلى للكهنة،كانت الملكة تعتبر الرئيسة العليا للكاهنات .

وكان زى الكهنة فى أول الأمر لا يختلف كثيراً عن زى سائر الناس . حتى

إذا أخذ عددهم يزداد وشأنهم يعلو فى عصر الدولة الوسطى ، شرعوا يوجهون عنايتهم إلى ارتداء ملابس تميزهم عن غيرهم ، وتدل على أنهم طبقة أرفع وأسمى من سواها من طبقات الشعب . وكانوا يحرصون كل الحرص على نظافة ملابسهم وأبدانهم حتى يطمئنوا إلى طهارتهم واستحقاقهم أن يخدموا « بيت الله » .

وكانت الطقوس التى يؤديها الكهنة فى المعبد تتطلب منهم اتباع نظام موضوع ومراسيم ثابتة ينبغى عليهم إلتزمها بكل دقة وصرامة . وكان لكل مناسبة دينية صلاة خاصة يجب على كل كاهن أن يحفظها عن طهر قلب ، وأن يؤدى الأفعال التى تصاحب كل عبارة من عباراتها . ومثال ذلك أنه حين يدخل بهو الأعمدة فى المعبد يبتهل إلى الله قائلا « ها أنذا أتيت إليك أيها الواحد العظيم وقد طهرت نفسى من كل دنس » . ثم يتقدم والمبخرة فى يده نحو قدس الأقداس ، حتى إذا بلغ الباب فض ختمه قائلا « إننى أفض الختم ليفتح هذا الباب ، وقد ألقيت خلفى بكل ما أحمل من شرور » ، ثم يشد المزلاج ويفتح الباب ويسجد أمام المحراب وهو يردد مع كل عمل يقوم به صلاة خاصة . ويستمر هكذا فى أداء الطقوس بترتيب موضوع ، حتى إذا أتمها جميعاً خرج وأغلق الباب ووضع الختم عليه مرة أخرى . وكانت كل حركة يؤديها الكاهن فى هذه الأثناء ترمز إلى طور من أطوار حياة أوزوريس وموته وقيامته منتصراً على إله الشر ، ثم صعوده إلى السماء .

البحث الخامس

الأعياد الدينية

وكانت للمصريين منذ عصورهم الأولى أعياد دينية متعددة . ومن أقدم الأعياد التى كانوا يحتفلون بها عيد الإله « مين » . كما كان من أشهر أعيادهم فى كل عصور التاريخ القديم عيد أوزوريس ، وكان يقام كل سنة فى العرابة المدفونة ، حيث يسير موكب عظيم من معبده بالمدينة إلى مقره الأزلى فى الصحراء ، وهناك يقوم الكهنة ومعهم الشعب كله بتمثيل حياة أوزوريس وآلامه وموته ثم قيامته . وكان أداء هذه التمثيلية يستغرق عدة ايام . وكانت لهذا العيد الشعبى مكانة عظيمة فى نفوس المصريين .

ومن الأعياد الشعبية التى بلغتنا أنباؤها كذلك عيد المعبودة « باستت » إلهة بوبسطة . وقد روى هيرودوت أن المحتفلين بذلك العيد كانوا يتقاطرون على المدينة من أقاصى البلاد فى زوارقهم ، وبعد أن يقدموا للمعبودة قرابينهم وهداياهم يقضون أياماً عديدة بين مظاهر البهجة والفرح . كما روى بعض قدماء المؤرخين أن عدد الذين جاءوا للاحتفال بهذا العيد بلغ فى إحدى المرات سبعمائة ألف .

وكذلك بلغتنا أنباء عيد عظيم كان يقام كل عام فى مدينة الأقصر ، ويحتفل به الشعب احتفالا منقطع النظير . وكانوا يعتقدون أن فى ذلك العيد ينتقل الإله « آمون » من معبد الكرنك لزيارة الإلهة « مون » فى معبد الأقصر . وكان

فرعون يخرج فى هـذه المناسبة على رأس موكب عظيم من الكرنك ، يتقدمه ضاربو الطبول ، وتتبعه أربع زوارق محمولة على أكتاف عدد من الكهنة المطهرين ، حتى إذا بلغ الموكب ضفاف النيل حملته سفن كبيرة وسارت وسط النهر فى منظر خلاب ، تتقدمها سفينة آمون وقد تألقت تحت أشعة الشمس بألوانها البراقة وجدرانها المرصعة بالذهب والأحجـار الكريمة . ويستمر الاحتفال بذلك العيد فى الأقصر عشرة أيام ، يعود بعدها الموكب الإلهى إلى معبد الكرنك .

ولم تكن هذه الزيارة التى يقوم بها الإله آمون كل عام للإلهة « موت » فريدة فى بابها . إذ كانت تحدث مثل هذه الزيارات فى أعياد كثيرة بين المعبودات ولاسيما التى تشترك منها فى « ثالوث إلهى » . ومن ذلك زيارة الإله «وبوات» فى أسيوط لجاره الإله « أنوبيس » ، وزيارة « بتاح » لإبنته « نيت نهت » بالقرب من منف ، وزيارة « حاتحور » إلهـة دندرة لزوجها « حور » فى معبد إدفو .

وكان الكهنة فى هذه الأعياد يرددون الترانيم والأناشيد الدينية . كما كانت الأمة كلها تقضى أثناءها أياما مليئة بأسباب المسرة والمرح .

البحث السادس

أثر العقائد المصرية في الأمم الأخرى

كان للعقائد المصرية القديمة أثر ملموس فى عقائد الأمم الأخرى . وقد تخطت الديانة المصرية حدود مصر منذ أن فتح المصريون السودان وتوغلوا فى آسيا حتى شواطىء الفرات ، فحملوا عقائدهم معهم وبنوا معابدهم فى تلك البلاد . وعلى الرغم من أن المصريين لم يقسروا الشعوب التى قهروها على نبذ ديانتها الأصلية واعتناق ديانتهم ، فإن هذه الشعوب مع ذلك قد تأثرت إلى درجة كبيرة بالعقائد المصرية .

وقد كان سكان النوبة أكثر الأمم إعجاباً بمدنية مصر وديانتها ، فما لبثوا أن تمصروا وأحلوا الآلهة المصرية محل آلهتهم القومية ، وأصبحوا أكثر من المصريين أنفسهم استمساكا بمبادىء دينهم الجديد ، وحرصاً على تعاليمه وطقوسه .

كما كان للعقائد المصرية أثر كبير فى سوريا ، حيث وجدت ترحيبا عظيما فى كثير من مدنها ، وقد عبد سكان تلك المدن بعض الآلهة المصرية إلى جانب آلهتهم الأصلية التى كان منها « بعل » و « عشتاروت » .

أما فلسطين فلا شك أن أبناءها من العبرانيين قد تأثروا إلى أبعد الحدود بالعقائد المصرية بعد أن أقام آباؤهم بمصر زمنا طويلا ، ومما يدل على ذلك أن

كتابهم المقدس — وهو التوراة — يتضمن معلومات دقيقة عن الحياة فى مصر القديمة ، كما أشار إلى كثير من العادات والتقاليد التى ورثها العبرانيون عن المصريين . وليس أبلغ فى الدلالة على قوة الصلة التى تربط العبرانيين بمصر أن نبيهم موسى نفسه قد ولد بمصر ويحمل اسما مصريا . فإن المقطع الأول منه وهو « موس » معناه باللغة المصرية القديمة « إبن » وقد ورد كثيراً فى أسماء المصريين فى عهد الدولة الحديثة مقرونا باسم أحد الآلهة ، مثل « آمون موس » أى ابن آمون ، و « تحوت موس » أى ابن تحوت . ولا شك أن العبرانيين الذين كانوا يقيمون بمصر ولا سيما فى العصر اليونانى ، قد تأثروا كثيراً فى عقائدهم وطقوسهم بالعقائد والطقوس المصرية فى ذلك الحين .

وقد دخلت الديانة المصرية إلى اليونان فى القرن الثالث قبل الميلاد ، حيث راجت عبادة سيرابيس وأنوبيس ، كما تعلق اليونانيون بحب أوزوريس وإيزيس وحوريس .

ولم تلبث الآلهة المصرية أن وجدت طريقها كذلك إلى الدولة الرومانية . فتعلق بها الرومانيون وعبدوها فى الخفاء ، على الرغم من السلطات الحاكمة التى كانت تحرم اعتناق أى ديانة أجنبية . بيد أن قياصرة الرومان لم يلبثوا أن أباحوا عبادة الآلهة المصرية ، وقد بدأ ذلك فى عهد الامبراطور كارا كلا ، الذى قام بنفسه ببناء معبد فخم لسيرابيس ، ومن ذلك الحين بدأت آلهة المصريين تلعب دوراً هاما فى حياة الرومان .

الفصل الخامس

الحياة الثقافية

لئن كانت المعابد ومقابر الملوك التي بقيت لنا من آثار قدماء المصريين قد دلتنا بما نقش على جدرانها الحجرية من رسوم وكتابات على كثير من عقائد المصريين وأخبار ملوكهم ، فإنها لم تكشف لنا إلا عن القليل من مظاهر حضارتهم الأخرى ولا سيما حياتهم الثقافية . لأن مابقى لنا من آثارهم الأدبية والعلمية لايعدو بعض برديات أنقذتها المصادفة المحضة من الفناء والإندثار ، كما فنى واندثر الجانب الأكبر من تراثهم العظيم. بيد أن مابقى لنا من شذرات قليلة وإشارات عابرة وعبارات متناثرة يدلنا على أن المصريين القدماء قد بلغوا شأوا عظيما فى كل نواحى الثقافه والفكر ، وأنهم أسبق الشعوب جميعاً فى هذا المضمار .

وقد كان ينبغى للمصريين قبل أن يصلوا إلى أى عنصر من عناصر الثقافة أو أى مظهر من مظاهر الحضارة على العموم ، أن يصلوا إلى الوسيلة التى يتمكنون بها من تدوين أفكارهم وتداولها فيما بينهم . وكان هذا ما حققه المصريون بالفعل منذ أكثر من ستة آلاف عام ، إذ توصلوا إلى ابتداع الحروف الهجائية واستخدامها فى الكتابة ، فكان هذا أول الطريق إلى كل ما حققه البشر بعد ذلك من مدنية فى مصر وفى العالم كله .

وكان ينبغى للمصريين بعد أن اهتدوا إلى هذا السر العجيب الذى فتح لهم أبواب الرفعة والرقى على مصراعيها أن يعملوا على تلقينه لأبنائهم ، ومن ثم ظهرت الحاجة إلى التعليم ، كما ظهرت الحاجة إلى المعلم ، وكان هذا هو السبيل إلى نشوء المدرسة ، التى أصبحت مهداً للمعرفة وداراً للثقافة ومناراً للعقل فى كل العصور .

وقد توصل المصريون بفضل اكتشاف الكتابة وانتشار التعليم إلى أروع الآثار الأدبية وأبدع الأفكار الفلسفية التى كان لها فى بناء الحضارة المصرية أكبر الأثر ، وكان لها فى تثقيف العالم شأن أى شأن .

لذلك نتكلم فيما يلى عن الكتابة ، ثم عن التعليم ، ثم عن الآداب ، فى ثلاثة أبحاث متوالية .

البحث الأول

الكتابة

إكتشف المصريون الكتابة قبل غيرهم من الأمم بنحو ألفين وخمسمائة سنة. وقد بدأت الكتابة المصرية منذ بداية التاريخ المصرى ، بل أن التاريخ المصرى لم يبدأ إلا بها .

وكانت الكتابة فى أول الأمر عبارة عن صور للأشياء ينقشها المصريون ليذكروا بها كلا من هذه الأشياء على حدة . ثم توصلوا عن طريق الصور المتتابعة إلى تسجيل فكرة كاملة يريدون التعبير عنها . ثم تمكنوا بتطوير تلك الصور من تدوين بعض الكلمات والمقاطع . وما فتئوا ينتقلون فى هذه المجالات من مرحلة إلى مرحلة ، حتى وصلوا أخيراً إلى العناصر الأولى للكتابة وهى الحروف الأبجدية ، وكان عددها أربعة وعشرين حرفا . ولم تلبث هذه الحروف أن انتقلت إلى شرق آسيا فأخذت عنها الحروف الفينيقية ، ثم انتهت بعد ذلك إلى أوروبا ، فكانت هى الأصل الذى أخذت عنه الحروف اليونانية ، ثم الحروف الرومانية ، التى عرفت بالحروف اللاتينية ، واستخدمتها أكثر شعوب الغرب ، وما زالت تحتفظ بها إلى اليوم .

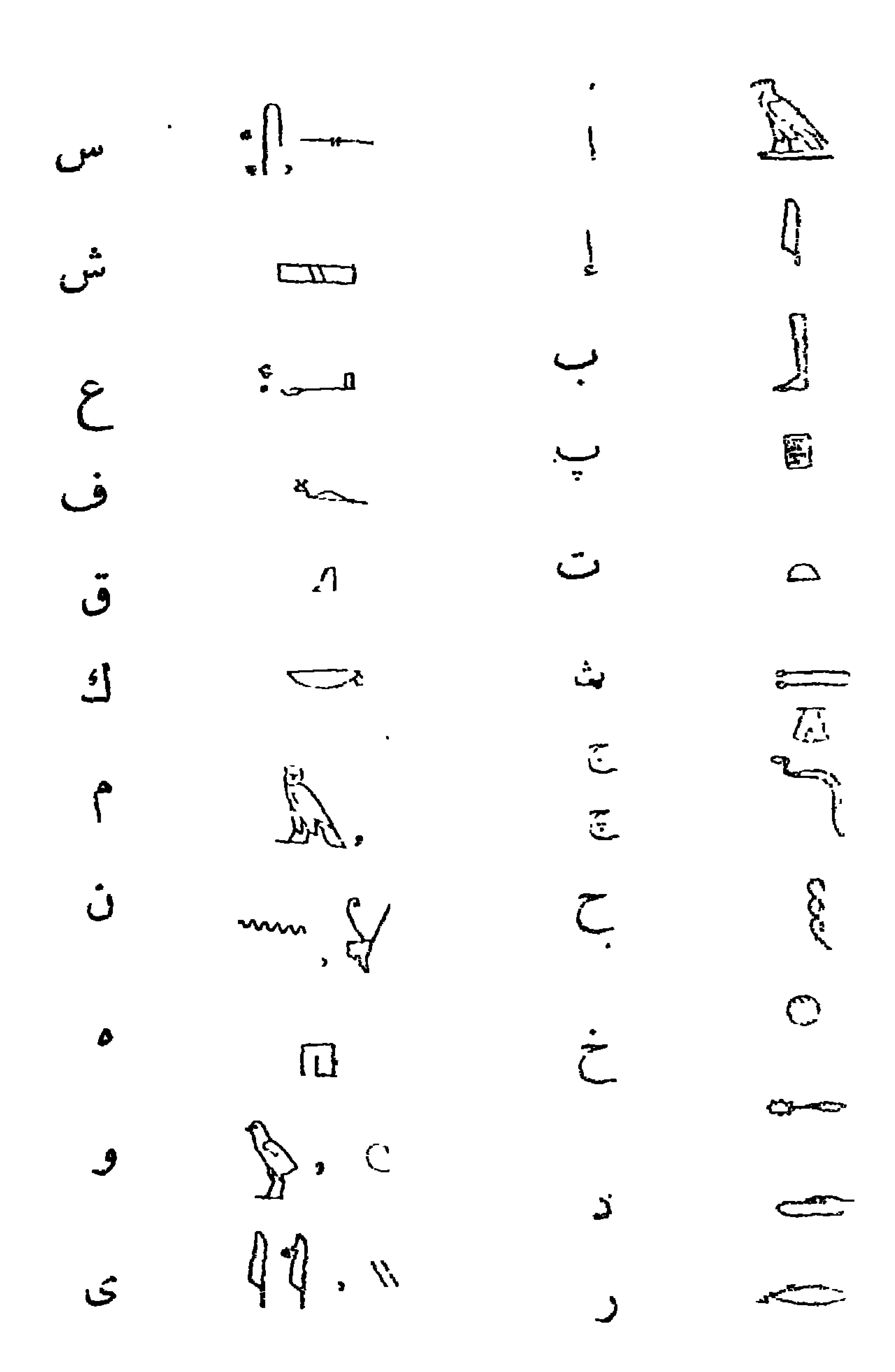
وقد تم اكتشاف المصريين للكتابة قبل توحيد البلاد على يد الملك مينا بنحو ألف سنة . وقد وصلت إلينا من عصر ذلك الملك مجموعة كاملة من الأدوات الكتابية ، التى كان الموظفون يستخدمونها فى إعداد السجلات الملكية.

كما وصلت إلينا أسماء مكتوبة لملوك حكموا قبل مينا، وصور ورسوم سابقة على عهده تمثل بعض الحروف الأبجدية .

وكانت الكتابة المصرية فى صورتها الأولى هى المسماة بالكتابة الهيروغليفية ، أى « الإشارات المقدسة » ، نظراً لأنها كانت تستعمل فى تدوين الطقوس الدينية وتزيين جدران المعابد . ولذلك حافظ الكهنة عليها واحتفظوا بها واعتبروا أنفسهم « العارفين لها الأمناء عليها » ، بيد أنها لصعوبتها كانت عسيرة على عامة الناس ومتعذرة فى التعامل اليومى ، فلم تلبث أن تطورت إلى صورة أسهل وأبسط ، وهى التى عرفت بالهيراطيقية ، ثم تطورت بعد ذلك إلى صورة أكثر سهولة وبساطة وهى التى عرفت بالديموطيقية . ومن ثم أصبحت الكتابة أمراً ميسوراً لدى المصريين جميعاً ، وأصبحوا يتقنونها ويلقنونها لأبنائهم جيلا بعد جيل . ويكفى أن نشاهد الآثار المكتوبة لقدماء المصريين كى ندرك المدى الذى وصلت إليه الكتابة لديهم من دقة وتناسق وجمال .

ومما ساعد على انتشار الكتابة المصرية وتيسير الإلمام بها واستخدامها ، أن المصريين لم يفعلوا كما فعل البابليون ، إذ كانوا يصبون كتابتهم فى قوالب من الطين ، مما جعلها عقيمة عسيرة التدوين . وإنما ابتدعوا المداد الأسود الثابت اللون ، يغمسون فيه أقلاماً من القصب يبرونها ويدببون أطرافها وفق رغبتهم ، ثم يكتبون بها على صحائف من الورق الناعم الجميل الذى صنعوه من لب سيقان البردى ، فتهيأ لهم بذلك من أدوات الكتابة مالم يتهيأ لغيرهم من الشعوب . وقد تمكنوا من ضم صحائف من البردى يصل طولها إلى بضع عشرات من الأمتار ، مما أتاح لهم وسيلة لتدوين الوثائق وتداول الأفكار تضاهى ما نعرفه اليوم من دفاتر ومجلدات وكتب .

وقد ظلت الكتابة المصرية القديمة محتفظة بمكانتها وأهميتها نحو أربعة آلاف



« الحروف الأبجدية باللغة الهيروغليفية »
« وما يقابلها فى النطق من حروف اللغة العربية »

عام . حتى سيطرت الدولة اليونانية على مصر فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد فطغت اللغة اليونانية عليها. ولم يلبث المصريون تحت ضغط الفاتحين أن اضطروا إلى استخدام اللغة اليونانية فى معاملاتهم وكتاباتهم ، ومن ثم بدأ استخدام اللغة المصرية القديمة يقل بالتدريج ، حتى لجأ بعض المصريين إلى كتابتها بحروف يونانية ، بعد إضافة سبعة حروف ديموطيقية لم يكن لها نظير فى الأبجدية اليونانية ، فكانت هذه هى اللغة القبطية ، التى هى فى الواقع استمرار للغة المصرية القديمة ، والتى استخدمها المصريون فى العصر المسيحى، وأصبحوا يتخاطبون بها ويكتبون بها خطاباتهم ويؤدون بها صلواتهم ، وظلوا متمسكين بها حتى أواخر القرن التاسع عشر ، ومازالت هى لغة الكنيسة القبطية إلى اليوم.
أما الكتابات الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية فقد اختفت نهائيا فى أواخر القرن الرابع الميلادى باختفاء الديانات المصرية القديمة ، وظلت بعد ذلك نحو ألف واربعمائة سنة فى حكم الطلاسم والأسرار ، حتى توصل العالم الفرنسى شامبليون فى عام ١٨٢٢ — بعد محاولات طويلة شاقة — إلى إماطة اللثام عنها وحل رموزها ، فوضع بذلك يده على المفتاح الذى أدى إلى الكشف عن تاريخ المصريين ورفع الستار عن حضارتهم الخالدة .

البحث الثانى

التعليم

وقد حرص المصريون على إتقان الكتابة والقراءة ، ومن ثم حرصوا على تلقى العلم والاستزادة منه إلى أقصى الحدود ، إذ كانوا يعتبرون ذلك أكرم سبيل إلى شرف السمعة وعزة المنصب . وقد كانوا يعتبرون للكتابة مقاماً قدسيا ، إذ كانوا يعتقدون أن الذى هداهم إلى ابتداعها هو « تحوت » إله الحكمة . كما كانوا يعتقدون أن رب الآخرة أوزوريس يغضب إذا وفد عليه جاهل . ولذلك اهتم حتى ملوكهم بأن يعرف الناس عنهم أنهم متعلمون ، وأنهم يجيدون الكتابة والقراءة . وقد ظهر رمسيس الثانى فى بعض صوره حاملا لوحة الكتابة بمحبرتها وأقلامها . وكان حكماؤهم يبشرون بأن « الكتابة أعز من ميراث فى أرض مصر ومن ضريح فى دار البقاء » ، وأنها « أمتع من قصر مشيد ، وأنفع من تذكار فى ساحة المعبد » . وكانوا يسمون المدارس « دور الحياة » لأنهم كانوا يعتبرون التعليم سبيلا إلى الحياة الكريمة فى الدنيا والآخرة . وكان بعض المصريين ينقطعون للعلم فلا يتزوجون ولا ينجبون ، بل يجعلون العلم غايتهم فى الحياة .

وكان المصريون يبادرون بإرسال أبنائهم إلى المدارس منذ نعومة أظفارهم . وكان التعليم يبدأ عادة بدراسة أولية يتلقاها الطفل على يدى معلم خاص ، أو فى مدرسة مستقلة أو ملحقة بأحد المعابد ، حيث كان المعلمون من الكهنة . وكانت الدراسة فى هذه المرحلة تستغرق أربع سنوات يتلقى الطفل خلالها مبادىء القراءة

والكتابة والحساب وبعض المعلومات العامة والمختارات الأدبية والدينية والأناشيد .

ثم يلحق الطفل بعد ذلك بالمرحلة التالية من التعليم فيما يسمى بمدارس الكتاب ، أو فى المدارس الحكومية : وكانت مدارس الكتاب لا توجد عادة إلا فى المدن الكبرى ، ويتلقى فيها التلميذ قواعد اللغة ، والآداب القديمة ، والرياضيات كالحساب والجبر والهندسة ، والعلوم الاجتماعية كالتاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية ، والمبادىء الدينية ، والألعاب الرياضية ، والرسم والموسيقى . أما المدارس الحكومية فكان يلتحق بها التلاميذ الذين أتموا من دراستهم الابتدائية ، وكانوا يتلقون فيها تدريبا عمليا على الأعمال الحكومية المتعلقة بشئون التقاضى أو اقتضاء الضرائب أو زراعة الأراضى أو بناء المنشآت العامة أو أعمال الإحصاء والتسجيل أو غير ذلك من الاختصاصات والمسئوليات ، وكان المعلمون فى هذه المدارس نخبة من الموظفين الأكفاء فى كل فرع من فروع الأعمال الحكومية .

وكان ثمة مرحلة تالية للمرحلة السابقة ، يلتحق بها الراغبون فى مزيد من الثقافة . وهى عبارة عن معاهد عليا ملحقة بالمعابد ، كانوا يسمونها « دور الحياة » . وكان طلبتها يتعمقون فى دراسة الدين والقانون والأدب والفلك والتنجيم والطب والنحت والتصوير والعمارة والرياضيات . فكانت بمثابة الجامعات فى العصر الحديث ، وكان يتخرج منها أرباب المهن الراقية كالكهنة والقضاة والأطباء والمهندسين . وكان أغلب أساتذتها من الكهنة الأفذاذ المتضلعين ، وكانت تلحق بها مكتبات ضخمة تضم كل فروع العلم والحكمة . ومن ثم كانت « دور الحياة » مراكز ثقافية اجتذبت إليها أنظار العالم كله ، وكان فلاسفة الأمم الأخرى ولا سيما اليونان فى أزهى عصورهم يفاخرون بأنهم تلقوا العلم فى مصر .

المبحث الثالث

الآداب

كانت الفكرة السائدة أن أقدم أدب في العالم هو الأدب اليوناني ، وأنه الأصل الذي أخذت عنه أمم العالم بعد ذلك آدابها . بيد أن الباحثين لم يلبثوا أن تبينوا أن الأدب المصري أقدم كثيرا من الأدب اليوناني ، وأنه المنبع الذي استقى منه ذلك الأدب روائعه .

وذلك أن التراث المصري لا يقتصر على النصوص الدينية أو الحقائق التاريخية والاجتماعية والعلمية ، وإنما يتعدى ذلك إلى مؤلفات تمتاز بقيمتها الأدبية المجردة ، مما يدل على أن قدماء المصريين كانوا يعرفون الأدب ويؤلفون فيه ، ويتذوقون الجيد منه ، في وقت كان فيه اليونان وغيرهم من الأمم القديمة لا يزالون في حالة البدائية الأولى .

ولا شك أن المصريين كانوا أول شعب يتمتع بالروح الأدبية الخالصة المجردة عن أي غرض آخر غير تحقيق القيمة الفنية الكامنة في جمال الأسلوب والمعنى . إذ وضع المصريون المؤلفات الأدبية البحتة منذ أربعة آلاف عام ، فكانوا بذلك هم السابقون في هذا المضمار ، لأن أقدم الآداب القديمة وهو الأدب العبري لم يظهر إلا بعد ذلك باثني عشر قرنا ، ثم جاء بعده الأدب اليوناني .

وقد بقي لنا من الأدب المصري آثار قليلة ، ولكنها تدلنا على أنه كان

أدباً راسخ القدم ، وفير الينابيع ، خصب الخيـال ، كما كان أدباً متنوع الأساليب والأغراض ، فلم يقتصر على تناول ناحية دون أخرى ، بل تناول كل النواحى الهامة شأنه فى ذلك شأن الأدب فى كل أمة ناضجة . ومن ثم أصبح يعكس لنـا صورة حية نابضة من حياة أجدادنا الأقدمين : ففضلا عن آلاف الكتابات التى تركوها لنا على جدران المعابد وعلى اللوحات والتماثيل والبردیات والأدوات المختلفة ، والتى تتناول كثيراً من المعتقدات الدينيـة والطقوس اللاهوتية وأخبار الملوك وانتصاراتهم الحربية وغير ذلك من الشئون السيـاسية والإدارية والاجتماعية ، نجد مجموعة من النصوص الأدبية الخالصة التى تتمثل على الخصوص فى الأساطير ، والقصص ، والأناشيد ، والأغانى ، والحكم والنصائح والتنبؤات . ونورد فيما يلى عن كل قسم من هذه الأقسام كلمة موجزة:

« ا » الأساطير

حفظت لنا الأيام قليلا من الأساطير التى كانت سائدة لدى قدماء المصريين، ومن ذلك ما تضمنته نصوص الأهرام ، وما بها من إشارات إلى حوادث الماضى البعيد ، وماكان يدور بين الآلهة فى الأزمنة السحيقة . ويمكننا أن نتبين فى بعض هذه الأساطير نواة التمثيليات التى نعرفها اليوم باسم الدراما ، أو المأساة والملهاة ، وقد ظهرت فى عالم الوجود قبل هذا النوع من التمثيليات اليونانية بنحو ثلاثة آلاف عام . ومن تلك الأساطير :

١ — اسطورة رع وبتاح :

ويرجع تأليفها إلى عصر الملك مينا ، ويظهر فيها إله الشمس رع متخذا صفة القاضى ليحكم فى شئون البشر على مقتضى شريعة عادلة تفصل بين الحق والباطل وبين الخير والشر ، وبين البار والاثيم ، فيقضى لذاك بالحياة ولهذا بالموت . كما يظهر فيها الإله بتاح متخذاً صفة الخالق الأعظم الذى صور العالم بفكره ،

ثم أوجده بإرادته ، والذى يقول لكل شيء كن فيكون ، فهو موجد كل شيء وهو موجود فى كل شيء .

٢ — اسطورة نجاة البشر :

ويبدو « رع » فى هذه الأسطورة باعتباره الخالق لنفسه ولسائر الكائنات، وإذ يرى أن البشر قد عصوه وخالفوا وصاياه وتخلوا عن عبادته وأوغلوا فى ارتكاب الآثام والشرور ، غضب عليهم وأصدر أمره إلى الإلهة « حاتحور » بالبطش بهم وإبادتهم ، فامتثلت لأمره وراحت تحصد البشر حصداً . ولكنه لم يلبث أن أخذته الشفقة والرحمة بالبشر ، فعمل على خلاصهم ونجاتهم من الموت الذى سبق أن حكم به عليهم .

٣ — اسطورة ايزيس :

ويبدو فيها كيف أمكن للإلهة إيزيس — التى كانت تشتهر بالحكمة — أن تستمد من الإله الأعظم «رع» قوة خارقة للطبيعة استطاعت بها أن تأتى بالآيات والمعجزات . وكان مما ذكره « رع » عن نفسه فى هذه الأسطورة قوله « إننى أنا الذى رفع السماء وبسط الأرض وأرسى الجبال وأنشأ ماعليها . . أنا الذى خلق الآلهة والناس . . أنا الذى فتح عينيه فكان النور وأغمضها فكان الظلام . أنا منشىء الأيام ومبدع الساعات ، ومطلق مجارى المياه وواهب حرارة الحياه » .

٤ — اسطورة اوزوريس :

وقد سبق لنا أن أشرنا إلى هذه الأسطورة وذكرنا بعض تفاصيلها فى الكلام عن العقائد الدينية لدى قدماء المصريين . وقد عرفنا منها كيف كان أوزوريس إلهاً وملكاً محبوباً من شعبه فحقد عليه أخوه ست وقتله واحتل عرشه ، وكيف حزنت عليه زوجته إيزيس وعملت بمساعدة الإلهين تحوت وأنوبيس على إعادته

إلى الحياة ، ولكنه رفض البقاء فى الدنيا وصعد إلى السماء ، وكيف قام إبنه حوريس بعد ذلك لينتقم من قاتل أبيه فحاربه وانتصر عليه واسترد منه العرش الذى هو من حقه . كما عرفنا أن هذه الأسطورة كانت من أحب الموضوعات إلى قلوب المصريين لما تنطوى عليه من مبادىء كريمة ومثل عليا ، ومن ثم لعبت دوراً كبيراً فى الحياة المصرية فى كل العصور . وكان المصريون يقومون بتمثيل حوادثها كل عام فى عيد أوزوريس . ويقول الباحثون فى تاريخ المسرح أن هذه الأسطورة التى كان المصريون يمثلونها هى أقدم ما عرفه البشر من تمثيليات .

«ب» القصص

ظهر أدب القصة فى مصر منذ أقدم العصور . ومهما بلغت بابل فى هـــذا المضمار ، فإن الذى لا شك فيه أن الأسبقية كانت لمصر فى ابتداع الأقصوصة ، وصياغتها صياغة فنية ممتعة ، وتحليلها تحليلا نفسياً بديعاً ، مما كان له أبلغ الأثر فى استكمال القصة كل عناصرها بعد ذلك فى الأدب اليونانى ، ثم فى الآداب الحديثة .

وترجع أغلب القصص التى وصلت إلينا إلى الفترة التالية للثورة الاجتماعية التى اندلع لهيبها فى أواخر عصر الدولة القديمة ، فأصاب البلاد من جرائها كثير من النوائب والمحن التى لم تلبث أن صهرت نفوس المصريين وأرهفت أحاسيسهم وأشعلت عواطفهم ، مما كان له أبلغ الأثر فى ازدهار الأدب وارتقاء معانيه وارتفاع أساليبه ، ومن ثم تنوعت موضوعات القصص وازدادت خصوبتها واتسعت فيها آفاق الخيال . وقد بقى لنا من ذلك العصر عدد من القصص ، هى أروع ما كتبه المصريون فى هذا الباب من أبواب الأدب . وقد استمر شغف المصريين بالقصة ، وابتداعهم لها طوال عصر الدولة الوسطى ، ثم خلال عصر الدولة الحديثة وما تلاه من عصور . ونورد فيما يلى لمحات من بعض هذه القصص وهى :

١ — قصة سنوحى :

وكانت من أحب القصص إلى قدماء المصريين ولا سيما فى عصر الدولتين الوسطى والحديثة . وكان المعلمون يملونها على تلاميذهم باعتبارها نموذجا فى البلاغة . وقد أجمع علماء الدراسات المصرية القديمة على أن هذه القصة هى أبدع ماوصل إلينا من القصص المصرية ، وأروعها أسلوبا وموضوعا ، وأنها تتفوق على ماعداها بمتانة تركيبها ورصانة فكرتها وما اجتمع لها من العناصر اللازمة للقصة الناجحة حتى ليذهب رديارد كبلنج إلى اعتبارها جديرة بأن توضع بين روائع الآداب العالمية . ولاشك أن سنوحى كان شخصية حقيقية، وقد عاش فى أيام الملكين أمنمحت الأول وسنوسرت الأول ، أى فيما بين عامى ١٩٩١ و١٩٣٤ قبل الميلاد . وكانت مغامراته موضع إعجاب معاصريه وسائر المصريين ممن جاءوا بعده . وتتلخص القصة فى أن سنوحى كان صديقا لسنوسرت ورفيقا له ومن أحب أصفيائه إليه حين كان هذا وليا للعهد ، وكان يرافقه ذات مرة وهو يتولى قيادة حملة فى ليبيا ، فلم تلبث الأخبار أن وردت بموت أبيه الملك أمنمحت الأول ، فعاد مسرعا إلى مصر . إلا أن أحد إخوته كان فى الحملة معه ، وكان يتطلع إلى عرش أبيه فأسرع ليصل قبل سنوسرت . وقد سمع سنوحى فى الطريق بهذه المؤامرة فخاف من عاقبتها وهرب من مصر عن طريق صحراء سينا متجها نحو الشمال حتى بلغ سواحل الشام . وهناك عرفه أحد ملوك تلك البلاد وأغراه بالبقاء معه ، ورفع من قدره ، وجعله حاكما لقسم كبير من مملكته ، كما أعطاه كبرى بناته لتكون زوجة له . ومن ثم استقر به المقام فى تلك البلاد ، وقضى هناك سنوات طويلة من عمره ، واتسع نطاق أسرته ، وأصبح كل واحد من أبنائه زعيما فى قومه . بيد أن سنوحى وقد تقدمت به السن لم يلبث أن استشعر الحنين إلى وطنه ، وتمنى أن يعود إليه ، فأرسل إلى سنوسرت — وكان قد أصبح ملك البلاد — يستعطفه ويستأذنه فى العودة إلى

مصر . فبعث إليه سنوسرت رسالة يرحب فيها بعودته ، كما بعث إليه كثيرا من الهدايا . ففرح سنوحى فرحاً عظيما ، وترك ثروته لأبنائه ، وعاد إلى مصر . وقد أرسل إليه سنوسرت وفدا محملا بالهدايا يستقبله وهو لا يزال فى الطريق ، حتى إذا وصل استقبله فى مقره ، وأمر بتعيينه كبيرا لأمنائه ، وأغدق عليه من إنعاماته الشيء الكثير . وقد امتلأت القصة فى تفصيلاتها بكثير من المغامرات الشيقة ، والعبارات الرشيقة ، كما زخرت بفيض من المشاعر النبيلة والعواطف السامية ، مما جعلها قطعة من الأدب الراقى والفن الرفيع .

٢ — قصة البحار الغريق :

وهى قصة أخرى من قصص المغامرة ، يرجع تأليفها إلى عصر الدولة الوسطى الذى أغرم فيه الناس بهذا النوع من القصص . وهى تصف رحلات ملاح مصرى نزل فى البحر الأحمر قاصدا إلى مناجم سينا على ظهر سفينة طولها ستون مترا وعرضها عشرون مترا وبها مائة وعشرون بحارا . ولم تلبث هذه السفينة أن تعرضت فى عرض البحر لعاصفة عنيفة دهمتها وحطمتها وأغرقت بحارتها جميعا ما عدا ذلك الملاح الذى تعلق بقطعة من حطامها ، ثم ألقى به الموج فوق جزيرة نائية ، قضى ثلاثة أيام على شاطئها فاقد الوعى عاجزا عن الحركة ، ثم لم يلبث أن أفاق على صوت كالرعد ارتجفت له الأرض وتقصفت الأشجار وفزعت الطيور هاربة من أوكارها ، فغطى وجهه وهو يرتعد من الخوف ، حتى إذا رفع بعد برهة عينيه رأى ثعبانا ضخما يبلغ طوله ثلاثين ذراعا ، وقد اكتسى جسمه بالذهب وازدان حاجباه باللازورد ، أقبل عليه وخاطبه كما يفعل البشر طالبا إليه أن ينبئه باسمه وبالبلاد التى جاء منها ، وبالظروف التى ألقت به فوق شاطىء الجزيرة ، فقص الملاح عليه قصته ، وعندئذ هدأ الثعبان من روعه وطمأنه وتنبأ له بأن سفينة أخرى ستأتى من مصر بعد أربعة أشهر

وتعيده إلى بلاده . وفى هذه الأثناء دعاه وأكرم وفادته وأغدق عليه كثيرا من خيرات الجزيرة التى كان هو حاكمها وحاميها ، حتى إذا جاءت السفينة كما سبق له أن تنبأ ودعه وداع الصديق الحميم وأرسل معه كثيرا من الهدايا إلى أهله وذويه . فما أن عاد البحار إلى مصر حتى التمس مقابلة الملك وقص عليه تفاصيل مغامرته ، فأعجب الملك به وأثنى عليه وعينه ضمن حاشيته . ويميل أكثر الباحثين فى تاريخ آداب الأمم إلى اعتبار هذه القصة هى الأصل والمصدر لكثير من قصص المغامرات فى الأدب العالمى ، كقصة يوليس فى الأوديسة ، وقصة السندباد التى اكتسبت شهرة عظيمة لدى كل الشعوب .

٦ — قصة الفلاح الفصيح :

وقد كانت كتابتها بعد الثورة الاجتماعية التى اجتاحت مصر فى أواخر عصر الدولة القديمة ، وكان من نتائجها تغيير كثير من الأوضاع الاجتماعية والإعلاء من قيمة الفرد والدعوة إلى محو الظلم والقضاء على الظالمين ، والتبشير بأن كل إنسان مهما ارتفع قدره سيلاقى حسابا عسيرا عما جنته يداه ، وأن الحاكم ليس إلا راعيا مسئولا عن رعيته ، وإذا أهمل فى مسئوليته كان جزاؤه عند الله قاسياً رهيباً . وقد وقعت حوادث هذه القصة فى عصر الملك « نبكاورع » أحد ملوك أهناسيا فى عصر الدولة القديمة . وتتلخص فى أن فلاحاً يسمى « خوان أنوب » كان يقيم فى « وادى الملح » ، وهو المعروف اليوم بوادى النطرون ، وكان يجمع محصوله فى كل عام ، ويرحل إلى المدن الواقعة على ضفاف النيل ، حيث يبيعه ويحصل فى مقابله على قوت أولاده . وقد عزم ذات مرة على القيام بهذه الرحلة ، فأعدت له زوجته ما يكفيه من زاد الطريق ، وبعد أن حشد على ظهور الحمير كل محصول حقله ، ساقها أمامه متجهاً نحو مدينة أهناسيا ، التى كانت عاصمة مصر فى ذلك الحين . حتى إذا وصل إلى منطقة يقال لها « برفافى » ، وجد هناك رجلا واقفاً

على حافة النهر يسمى « تحوت نخت » ، وهو من أتباع « رنزى إبن مرو » الذى كان فى ذلك الوقت رئيس حجاب الملك ، ومن أكبر الموظفين المقربين إليه . وقد طمع « تحوت نخت » فى سلب شىء مما كان مع الفلاح ، فلجأ إلى الحيلة ، وأمر خادمه بأن يأتى إليه بملاءة من القماش ، وفرشها فوق الطريق بحيث صارت إحدى حافتيها تتدلى فى الماء من ناحية ، والأخرى تمتد الى الشعير المزروع فى الناحية المقابلة . فلما أراد الفلاح أن يمر ، اعترض « تحوت نخت » طريقه ، وحذره من أن يسير فوق الملاءة . وعندئذ احتج الفلاح ورفض الإذعان ، فانهال عليه ضربا بالعصا واستولى على حميره بكل ماتحمل . وقد ظل الفلاح عشرة أيام يتوسل إليه ويستعطفه ، ولكن دون جدوى . فلما يئس يمم شطر أهناسيا ليشكوه الى رئيسه « رنزى إبن مرو » . وقد لاحظ « رنزى » وهو يستمع إليه أنه يعرض شكواه ببلاغة عظيمة وفصاحة نادرة ، فقص على الملك قصته ، ومن ثم طلب الملك إليه ألا ينصفه حتى يسهب فى شكواه ، وأن يسجل كل ما يقول . كما أمره بأن يرتب له ولأولاده فى هذه الأثناء كفايتهم من الطعام ، دون أن يعلم أنه هو الذى فعل ذلك . وعلى مقتضى هذه الخطة المرسومة أخذ الفلاح فعلا يتردد على رنزى يوما بعد يوم ، وإذ رأى أن شكايته الأولى لم تؤد الى نتيجة أتبعها بثانية وثالثة وهكذا حتى بلغ ما قدمه تسع شكايات ، وفى كل واحدة منها يلح فى المطالبة بحقه ويتفنن فى تصوير بشاعة الظلم وعاقبة الظالمين ، وتذكير المشكو إليه بمسئوليته عما حدث وتحذيره من غضب الله عليه إذ يناصر المعتدى ويغمض عينيه عن جريمته . فلما عرض « رنزى » أقواله على الملك بعد ذلك أعجب بها إعجاباً شديداً ، وأمر بإنصاف الفلاح ، فأعاد إليه كل ما سبق اغتصابه منه ، بل أعطاه كل ما يمتلك « تحوت نخت » تعويضا له عما أصابه .

وكان مما قاله الفلاح فى شكاياته : « ياسيدى . دافع عن الفقير واحذر من قرب الآخرة . حاكم السارق ، ووقع العقاب على من يستحق العقاب ، فليس

ثمة ماهو أثمن من العدل . وإلا فهل يميل الميزان ؟ . . لا تقابل الخير بالشر . لا تغتصب ، بل اعمل ضد المغتصب ، لأنك إذا سترت وجهك عن الشر فمن الذى يكبح إذن جماح الشر ؟ . . كن صبورا حتى يمكنك أن تصل الى العدل ، ولا تكن قاسياً فترتد قسوتك إليك . وإياك أن تحرم رجلا رقيق الحال ، من القليل الذى يملكه ، لأن هذا القليل هو بمثابة روحه ، فإذا اغتصبته فأنت إنما تغتصب الروح منه وتقتله . . ولقد يئست من أن تستمع الى شكواى وتستجيب لى وتأخذ بتلابيب اللص . فانظر ماذا فعلت ؟ لقد وضعت فيك ثقتى ولكنك وقفت فى صف سارقى ، فأصبحت أنت نفسك سارقاً . . ياسيدى ، إن المحاكمة الحقة هى التى تدحض الباطل وتعلو بالصدق،وتشجع الحسنة وتمنع السيئة ، كأنها صفو السماء يشتت شمل العاصفة ، أو جدول الماء يطفىء غلة الظامىء . . وإن الظلم ليبخس من قدر العدالة ، وأما الحكم بالقسطاس فيعلى من شأنها . وإذا انتهك الحاكم حرمة القانون ، فإلى من يلجأ الرجل الفقير ؟ . . فبربك أقم العدل لرب العدل ، لأن العدل باق الى الأبد ، وذكر صانعه لن يزول من الأرض. أما الظالم ، وأماجامع ثروته بالغش، فلن يكون له وارث على الأرض ولن تصل سفينته الى بر الامان . . إننى أشكو اليك ، فإن لم تستمع لى فشكواى إلى الله » .

وتعتبر هذه القصة من أبلغ وأروع آثار الادب المصرى القديم ، وقد لاقت إقبالا عظيما فى عصر الدولة الوسطى ، وكانت بمثابة نموذج يحتذى فى عهد الدولة الحديثة . وهى جديرة من حيث بلاغتها وقوة صياغتها وماتفيض به من صور العواطف الإنسانية والمثل العليا أن توضع جنبا إلى جنب مع أروع القصص العالمية . ومما هو جدير بالملاحظة أنها تضمنت لأول مرة فى تاريخ الأدب كله تشبيه العدالة بالميزان .

٤ – قصة الملك خوفو والسحرة :

وهى تصور لنا ما كان منتشراً بين الناس فى عصر الدولة الوسطى من أقاصيص نسبوها إلى القدماء ليضعوا عليها هالة من التشويق والتعظيم . وتشتمل على مجموعة من الحوادث الخيالية والأعمال الخارقة للطبيعة . ومؤاداها أن أبناء الملك خوفو بانى الهرم الأكبر ، أرادوا تسلية أبيهم فى ساعة من ساعات ضيقه وكمده، فراحوا يقصون عليه واحداً بعد الآخر قصصاً عجيبة من أعمال السحرة ومايمكنهم أن يأتوا به من معجزات ، وأن يتنبأوا به من خبايا الغيب ، وأخبار المستقبل . وهكذا نجحوا بقصصهم الشائقة فى التسرية عن أبيهم والقضاء على ما كان يلم به من عناء وضجر .

٥ — قصة « ونامون » :

وهى تتضمن وصف رحلة قام بها « ونأمون » أحد كهنة معبد « آمون » فى طيبة - إلى لبنان ، ليستحضر من هناك خشب الأرز اللازم لبناء سفينة مقدسة . وقد بدأ رحلته فى عام ١٠٩٥ قبل الميلاد ، وصادف خلالها كثيراً من المصاعب والمشقات ، وتعرض مراراً للسرقة والأسر ، ولكنه عاد فى النهاية سالماً إلى مصر . ويتضح من خلال قصته كثير من الحقائق عن الدولة المصرية وماتعرضت له من متاعب فى آسيا فى ذلك الحين.

٦ — قصة الاستيلاء على مدينة يافا :

وهى من القصص الشعبية التى تناقلتها الأجيال وظهرت فكرتها فى آداب كثير من الأمم . وتتلخص فى أن « تحوتى » قائد جيوش الملك تحوتمس الثالث، من ملوك الأسرة الثانية عشرة، كان يحاصر بجيوشه مدينة يافا ، وإذ عجز عن قهرها والاستيلاء عليها بالقوة لجأ إلى الحيلة ، فأوهم أميرها بأنه يريد الصلح معه ، واستدرجه بهذه الوسيلة إلى معسكره وقبض عليه ، ثم أمر بإحضار عدد

من الغرارات ، ووضع داخلها مائتين من أشجع جنوده ومعهم أسلحتهم ، وكلف خمسمائة جندى بحمل الغرارات ، ثم أخبر سائق عربة الأمير بأن سيده يأمره بأن يذهب إلى المدينة ويبلغ سيدته أن القائد « تحوتى » قد استسلم ، ، وأن هذه الغرارات هى الجزية التى قدمها ، فرضخ السائق للأمر وتقدم على رأس الجنود المصريين، حتى دخل بهم المدينة ، فلما أصبح الجنود داخل أسوارها ، أخرجوا زملاءهم من الغرارات وهجموا على المدينة واستولوا عليها . ومن ثم بعث القائد إلى الملك تحوتمس رسولا يبشره بالنبأ السعيد .

هذا ملخص بعض القصص التى بقيت لنا من أجدادنا الأقدمين . وهناك قصص أخرى لم يتسع المجال هنا لذكرها بالتفصيل ، ومنها قصة الإلهة والراعى ، وقصة الأخوين ، وقصة الأمير المسحور ، وقصة عشتاروت ، وغيرها . وما من شك فى أن القارىء لهذه القصص يلمح فيها جذور أدب عريق عميق ، كما يلمح فيها بذور كثير من الأفكار التى ظلت متداولة لدى مختلف الشعوب حتى اليوم .

« جـ » الأناشيد

عرف المصريون الشعر الغنائى منذ قديم الزمان . وكانت أغانيهم تنقسم إلى أغان دينية ، وأغان دنيوية . وقد وصل إلينا من النوع الأول — وهو المعروف بالأناشيد — قدر عظيم ، ولا سيما فى متون الأهرام وكتاب الموتى ، وكان المصريون وعلى رأسهم الكهنة يترنمون بهذا النوع من الأغانى أو الأناشيد فى محافل الآلهة ومجالس الدين والوعظ ، وعند تقديم القرابين ، فيضفى على هذه المجتمعات سحراً روحياً يسمو بالنفس إلى أنبل الغايات . وكانت الأناشيد الدينية فى صياغتها أبياتاً من الشعر الموزون المنسق الكلمات والمعانى . ومن أشهر هذه الأناشيد :

١ — نشيد اوزوريس :

وهو من أقدم الأناشيد الدينية ، وقد جاء به « الحمد لك يا أوزوريس ، يا إله الأبدية ورب الأرباب ، يا صاحب الأسماء المتعددة والعرش الأزلى ، يا من يرفع بنو البشر إليه القرابين ويقبلون الأرض بين يديه . الموجود الخالد ، صاحب العرش الأبدى . الواحد ، القوى ، الرحوم ، الذى تمجده السماء والأرض » .

٢ — نشيد آمون :

وحين كان آمون هو إله الامبراطورية المصرية فى أوج مجدها ، كثرت الأناشيد التى يرتلها الكهنة له . وهذه مقتطفات من أحد هذه الأناشيد ، ويسمونه نشيد آمون الأكبر : « الحمد لك يا آمون رع ، الموجود فى كل مكان ، الكائن فى كل شىء ، الوحيد فى طبيعته ، إله الآلهة ورب الأرباب ، ورئيس رؤساء الأرض . مبدع كل الكائنات ورافع السموات وباسط الأرض . رب الأزلية وبارىء الأبدية . باعث النور . الذى بكلمته خلق الإنسان وأوجد الحياه . إله الرأفة والرحمة ، الذى يستجيب لتضرعات المتضايقين ، ويقتص للمظلوم من الظالم . رب العظمة . صاحب الجلالة . الذى تبتهج الآلهة بجماله وتتهلل قلوبهم حين يشاهدون طلعته . أيها الملك ، إله الآلهة وسيد بنى الإنسان . الواحد الأحد الذى لا شريك له . خالق كل الأشياء . والساكن فى كل الكائنات . المجد لك لأنك خلقتنا . المجد لك لأنك صنعت الوجود وأبدعت كل الموجودات . نفرح بك ، ونقدم لك الحمد لأنك وهبتنا الحياة . ونبتهل إليك لأنك إله القوة . رب المقدرة . صاحب الأمر . الواحد الأحد . المنقطع النظير » .

وقد جاء فى نشيد آخر لآمون : « إسمك سام وعظيم ومرهوب . وسلطانك

ذو وطأة على الأرض . يارب الأرباب الذى برأ نفسه بنفسه ، وليس شىء فى الوجود إلا بإرادته . أنت وحدك يقظان ، وكل الخلائق تنام وعيناك ساهرتان . أنت الطبيب الذى يشفى كل داء ، وأنت المنجى من المهالك والحافظ من ضربات القدر . الذى يستمع إلى دعاء المكروب ، ويأتى فى طرفة عين إلى من يناديه . ملجأ المتعبين ، ومنقذ المعذبين ، وعضد من يثق فيه ، وذراع من يتكل عليه . أنت الذى أوجدت نفسك فى البداية حين كان العدم ، وقد ظهرت أول كل شىء على وجه المياه ، وقد أضاءت صورتك منذ أول لحظة ، فبهر بهاؤها كل كائن ، ونطق من فرط الدهشة صائحا وسط السكون . أنت بهجة الكون ، وقلوب الناس تحيا حين يرون طلعتك . أنت الواحد ، القوى ، الخفى ، المقدس . أنت الواحد الأحد . أنت آمون ورع وبتاح ، لأن الثلاثة هم واحد » .

وفضلا عن أناشيد آمون العديدة التى وصلت إلينا ، وردت فى الآثار المختلفه صلوات قصيرة موجهة من بعض الأفراد إلى آمون ، ومنها :

— « أيها الإله الجبار الأبدى ، الذى يقضى بين الناس . يا ناصر العدل وقاهر الظلم ، أنصرنى وانتقم لى ممن ظلمنى . أيها الواحد القدير الذى يحيا الناس ويموتون بإشارة منه ، أمدد يدك وساعدنى » .

— « أيها الواحد الأحد الذى لا شريك ولا قرين له ، حامى البشر ، ومجيب دعاء المكروبين ، أغفر لى ذنوبى الكثيرة ، فإننى رجل جاهل وضعيف » .

— « إننى أحبك ، وأثق فى قدرتك ورحمتك يا آمون ، خلصنى ممن فى فمه غش ، لأنك يارب الأرباب تكره البهتان وتعيش على الصدق . لذلك لا أستسلم للهم الذى يملأ قلبى ، لأن ما تقضى به هو الذى سيكون » .

— « يا آمون استمع إلى رجل فقير يقف وحده فى المحكمة وخصمه غنى. وقد ظلمته المحكمة ، لأن الكاتب أخذ الذهب والفضة ، والحاجب أخذ الملابس الثمينة . ولكنك يا آمون تنصر الفقير على الغنى . أنا لا أتخذ لى عظيما أو قوياً يحمينى ، لأن ربى هو حامينى . وهو وحده العظيم والقوى ، وهو أنت يا آمون ، يارب الأرباب » .

— « يا آمون يا ملبى نداء الضعيف ، وإذا لجأ بائس إليك فى ساعة الضيق أسرعت إليه وأنقذته . ومع أن العبد مستعد لارتكاب المعصية ، فان الرب متهيىء على الدوام لأن يكون رحيما وغفوراً ، لأن غضبه ينتهى فى لحظة . فاستمع يا آمون لدعائى واشف لى ابنى ونجه . إنك أنت الشافى والمنجى يا رب » .

٣ — نشيد اتون :

أعلن الملك إخناتون أنه لا يوجد إلا إله واحد لا إله غيره هو « آتون » ، ورمز له بقرص الشمس ، وحرم عبادة آمون وكل الآلهة الأخرى ، ومحا أسماءها فى كل المعابد ، جاعلا الإله الأوحد للامبراطورية كلها هو « آتون » . وقد كانت هذه العقيدة التى اعتنقها إخناتون أول عقيدة تنطوى على التوحيد بالمعنى الواضح الصريح فى تاريخ العالم . وكان إخناتون ينظم الأناشيد للإله الواحد « آتون » ، ولا يفتأ يترنم بها فى كل ساعة من ساعات النهار مع زوجته الملكة « نفرتيتى » . وقد جاء فى بعض عباراتها : « يا آتون الحى . أنت الموجود منذ الأزل . ورغم أنك قائم بين البشر ، فان خطواتك خفية عنهم . أنت جميل وعظيم ومتلألىء . وحينما تغيب فى أفق السماء الغربى تظلم الأرض وكأنها قد حل بها الموت ، ويخرج الأسد من عرينه ، وتدب الزواحف لتلدغ . ثم حين يتألق بهاؤك فى المشرق تضىء الأرض ، ويستيقظ الناس ، ويرفعون

أكفهم متعبدين لطلعتك ، ثم يخرجون لأعمالهم . والسفن تقلع ، والسمك يسبح فى النهر . وما أكثر أعمالك الخافية على الناس ، أيها الإله الأوحد ، لا شريك لك . وقد خلقت الأرض حسب رغبتك . أنت تودع الطفل فى بطن



« الملكة نفرتيتى »

أمه ، وترعاه قبل أن يولد . وتمنح النفس للفرخ فى البيضة ، وتقدر له موعداً ليخرج منها ، فيخرج فى موعده الذى قدرته له ، ثم يمشى فى التو على قدميه . وحين كنت وحيداً ولا شىء غيرك خلقت الناس وكل ما على الأرض . أنت سيد الجميع ، وأنت رب كل قطر . ما أكرم مقاصدك يارب الأبدية .

إن العالم يعيش بصنيع يديك ، والناس يحيون بواسطتك ، وأعينهم لا ترى إلا جمالك . أيها الإله الذى خلق نفسه بنفسه . إن حبك عظيم . وأنت الأب والأم لكل خليقتك ».

ويكشف لنا هذا النشيد عن شعور إخناتون العميق بوجود الله ووحدانيته وأزليته وقوته ورحمته وحنانه الأبوى نحو البشر .

٤ — نشيد النيل :

كان المصريون ينظرون إلى النيل نظرة تقدير وتقديس ، بل كانوا يضعونه فى مرتبة الإله لأنه منحهم الحياة . ومن ثم كانوا ينظمون الأناشيد فى مدحه وتمجيده ، ويتغنون بها فى كل المناسبات ، ولا سيما أثناء الاحتفال بفيضانه . فكان مما يقولونه فى تلك الأناشيد : « الحمد لك يا نيل . أيها النابع من الأرض البعيدة ، والقادم إلى مصر لترويها . أيها المخلوق من رع لتبعث الحياة فى الصحراء . يامن إذا تباطأ هلك ملايين الناس ، وإذا قسا تصبح البلاد كلها فى فزع . أنت يامن تأتى معك بالقوت وتغدق كل شىء طيب ، وتملأ المخازن بالغلال ، ويبتهج بك كل قلب . أنت تفيض فتسقى الحقول ، وتمد الناس بالقوة . أنت النور الذى يأتى من الظلام . ولك يعزف الناس على القيثار ، ويغنون مصفقين بأيديهم . ويفرح الشباب بمقدمك . وعند فيضانك يقدمون لك القرابين ، ويذبحون لك الماشية ، ويحتفلون بك احتفالا عظيما » .

« د » الأغانى

وكانت لدى المصريين أشعار غنائية أخرى غير دينية ، ولا سيما فى مدح الملوك . وهى تفيض بأجمل المعانى وأنبل المشاعر . كما كانت لديهم الأغانى

العاطفية ، والأغانى التى يترنمون بها فى الحفلات والولائم،والأغانى التى يرددونها أثناء أداء الأعمال المضنية .

ومن أهم قصائد مدح الملوك التى وصلت إلينا ، القصيدة التى قيلت فى مدح تحوتمس الثالث ، وهى منقوشة على لوح من الجرانيت فى معبد الكرنك .

وكذلك وصلت إلينا عدة أغان عاطفية ، وهى تفيض رقة وعذوبة وعفة وحنانا ، وتشبه فى لغتها شبهاً كبيراً لغة نشيد الانشاد ، ومن عباراتها : « إذا لم يكن أخى بجوارى أكون كمن طواه القبر . . ألست أنت قوتى وحياتى ؟ . . إن أخى يضعنى على رأس العذارى ، ولا يجعل قلبى يتوجع أبداً . ها أنذا أتطلع إلى الباب وأنظر ، وعيناى ترقبان الطريق وأذناى تتسمعان . ها هو ذا أخى مقبل نحوى . وها أنذا أسرع إليه . إننى أقدم الشكر لحاتحور ، لأننى شكوت إليها فسمعت شكايتى ووهبتنى من اختاره قلبى . فيا لفرحى . ويا لفخارى » .

« هـ » الحكم والنصائح والتأملات

تدل البحوث التى قام بها علماء الآثار فى تاريخ أدب العالم القديم على أن مصر كان لها قصب السبق فى الإنتاج الأدبى فى باب الحكم والنصائح والتأملات . فإن بابل وأشور لم تتركا شيئاً يستحق الذكر فى هذا المضمار . وقد بقيت لنا ثروة عظيمة من الحكم والنصائح والتأملات لدى قدماء المصريين . وهى تمتاز بقدر عظيم من جمال اللفظ وسمو المعنى ، وتصور لنا أبدع التصوير ما كان يتخذه المصريون من المبادىء الخلقية ، وما كانوا يتطلعون إليه من المثل العليا فى عصورهم المختلفة . كما تصور لنا إذا تتبعناها بالتدريج الزمنى تطور تلك المبادىء والمثل على مدى العصور . وقد كان هذا النوع من الأدب أحب أنواعه لدى قدماء المصريين . وكانوا يلقنونه لأبنائهم ويتناقلونه من جيل إلى جيل . وأهم الآثار التى وصلت

إلينا فى هذا المجال عشر وثائق ، نشير إلى كل منها فيما يلى :

١ — تعاليم « بتاح حوتب » :

كان « بتاح حوتب » وزيرا للملك « زدكا رع أسيسى » من ملوك الأسرة الخامسة ، فى عصر الدولة القديمة ، وله قبر معروف فى سقارة . وقد وجه « بتاح حوتب » مجموعة من التعاليم إلى ابنه ، ينصحه فيها ويهذبه ويهديه . فكانت هذه المجموعة مناراً يستضاء به فى معايير الأخلاق وأساليب التعبير والتحرير فى كل عصور مصر الفرعونية . وقد سبق لنا أن اقتبسنا بعض أقواله فى بحوثنا السالفة . وهذه طائفة أخرى من نصائحه يقول فيها لابنه : « لا يداخلك الغرور إذا أصبت بعض العلم ، وإنما استشر غيرك دائماً ، لأن العلم لاحدود له . وإذا أصبحت عظيما بعد أن كنت صغير القدر ، أو صرت غنياً بعد أن كنت تعانى من الفقر ، فلا تنس ما كانت عليه حالك فى الماضى ، ولا تفاخر بثروتك التى منحك الله إياها ، فإنك لست أفضل من أقرانك الذين خانهم الحظ فظلوا بائسين . وحافظ على مودة أصدقائك ، فإنك لا تعلم ما يأتيك به الغد . ولا تشته مال قريبك ، فإن الشهوة هوة سحيقة فى أعماقها الهلاك . وإذا أردت أن تقى نفسك من كل سوء ، فاحذر الطمع ، لأنه مرض عضال لا دواء له ، وهو يحيل الصديق الوفىّ إلى عدوّ ، والخادم الأمين إلى خائن ، ويفرّق بين الأب وابنه ، والأخ وأخيه ، والزوجة وزوجها . وما أطول حياة الإنسان وما أسعده إذا كان متحلياً بفضيلة القناعة ، لأنها كنز لا يفنى . أما الجشع فنهايته الفاقة والموت . وإذا كنت ممن يقصدهم الناس ليقدموا شكواهم ، فكن حليما واسع الصدر حين تستمع إليهم ولا تعاملهم إلا بالحسنى حتى يفرغوا من الإفضاء بما فى أنفسهم ، لأن الشاكى يجد راحة فى الإفضاء بشكواه أكثر من الراحة التى يجدها حين يتحقق مطلبه ، ولأن رفقك بالناس عند إصغائك لشكواهم يخفف كروبهم ويملأ بالفرح

قلوبهم . وكن صادقاً مع الناس ، فإن الصدق جميل وقيمته خالدة ، وقد تذهب المصائب فجأة بالثروة ، ولكن الصدق لايذهب وإنما يمكث فى الأرض . فتمسك بأهداب الصدق ولا تتعداه ولو غضب من جرائه الناس . والزم الصمت فإنه أجمل من الرياحين . فإذا تكلمت فكن ثابت الجنان ، ولا تنطق إلا بالقول المفيد وبالرأى السديد . وكن راجح العقل ، فإن سعادة الإنسان فى رجحان عقله . واحترم رئيسك فى العمل ولا تحاول نبش ماضيه حين كان مغموراً ، لأن النجاح لا يأتى من تلقاء نفسه ، وإنما الذى يمنحه هو الله » .

٢ — نصائح الملك خيتى :

وهى مجموعة من التعاليم كتبها الملك خيتى ينصح بها ابنه « مريكارع » الذى تولى العرش بعده ، وكان ذلك فى العصر الأهناسى ، الذى أعقب فترة الاضطرابات التى سادت أواخر عهد الدولة القديمة . ولذلك فإنها تحمل روح ذلك العصر . وعلى الرغم من أنها نصائح سياسية ، فإن أسلوبها الأدبى لا يقل جمالا وجودةً عن أى أثر من الآثار الأدبية الأخرى . وقد جاء بها : « هدّىء من روع الباكى ، ولا تظلم الأرملة ، ولا تحرم إنسانا من ثروة أبيه ، ولا تطرد عاملا من عمله ، لأن الله عليم بالرجل الظالم ، وهو يجازى ظلمه بالموت . ولا تقتل فإن قتل النفس لا يفيد شيئاً ، وإنما عاقب بالضرب والحبس ، فإن ذلك يقيك من الجور ويقيم دعائم البلاد . إلا من خانك واتضحت لك نواياه ، فإن الله لا يحب الخيانة وهو يعلم خافية الصدور . ولا تميز بين الغنى والفقير ، بل حاسب كل إنسان حسب عمله . ولا تكن فظاً فإن الحلم طبيعة الكرماء . وليكن أساس عملك محبة الناس . واعلم أن فضيلة الرجل المستقيم أحب عند الله من كل قرابين الرجل الظالم . والأحمق هو الذى لا يكترث لآخرته . أما الذى يبلغ الآخرة دون أن يرتكب خطيئة أو يدخل فى زمرة الآثمين ، فإنه يحيا هناك حياة البررة والأرباب الخالدين » .

٣ – نصائح الى « كاجمنى » :

وهى مجموعة أخرى من التعاليم وضعها أحد الحكماء بعنوان « نصائح إلى كاجمنى » . وقد كتبها أثناء حكم الأسرة الثانية عشرة فى عصر الدولة الوسطى، ولكنه نسبها إلى عصر الدولة القديمة، وربط بينها وبين اسم الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة، الذى حظى بشهرة عظيمة فى عهد الأسرة الثانية عشرة واعتبره الناس يومئذ إلهاً وعبدوه ونسبوا إلى أيامه كثيراً من قصصهم . ومما جاء فى هذه التعاليم : « كن متواضعاً صادقاً فى قولك لأن المتواضع ينجح ، والصادق فى قوله يمدح ، أما من يحيد عن سواء السبيل فجزاؤه الموت . وترفع عن الصغائر وكن قنوعا . وإذا جلست إلى المائدة مع آخرين فلا تقبل على الطعام فى نهم ولو كان شهياً ، لأن من العار أن يكون الإنسان شرهاً ، فإن قدحا من الماء يروى الغلة ، والقليل يغنى عن الكثير . وكن حريصاً حذراً مع كل الناس حتى مع نفسك ، لأن الإنسان لا يدرى ما تخبئه له الأقدار » .

٤ – نصائح « داؤوف » :

وهى بعض تعاليم يرجع تاريخها إلى أوائل عصر الدولة الوسطى ، وكانت من أحب القطع الأدبية إلى قلوب المعلمين ولا سيما خلال عصر الدولة الحديثة، فكانوا يملونها على تلاميذهم ليتمرنوا على الكتابة . وقد وضعها رجل يسمى « داؤوف بن خيتى » ، ينصح بها ابنه المسمى « بيبى » حين اعتزم إرساله إلى العاصمة ليتلقى العلم هناك ، ويحضه على الاجتهاد ليصير كاتبا . لأن مهنة الكاتب فى نظره هى أكرم المهن جميعاً ، وهو لذلك يعدد متاعب أصحاب المهن الأخرى ويعلى من شأن الكاتب وحده .

٥ ـ نصائح الملك امنمحعت الاول :

كان أمنمحعت الأول هو مؤسس الأسرة الثانية عشرة أول أسرات الدولة الوسطى . وكان من أعظم الملوك الذين جلسوا على عرش مصر . ومع ذلك فإن بعض رجاله الذين كانوا موضع ثقته وأقرب الناس إليه تآمروا على قتله ، حتى إذا فشلت مؤامرتهم ونجا من الموت الذى دبروه له أشرك معه فى الحكم ابنه « سنوسرت » ، وزوده بجملة نصائح تشف عما خالج نفسه من ألم ومرارة وما تسلط عليه من ريبة وتشاؤم على أثر التجربة القاسية التى مرت به . فكان من نصائحه له : « لا تملأ قلبك بأخ ، ولا تثق فى صديق ، ولا تتخذ لك ندماء ولا أصفياء ، فليس وراء ذلك من خير . وحتى حين تنام ، إجعل من نفسك حارساً على نفسك ، لأنه لا طمأنينة ولا وفاء فى الدنيا ، وليس من يخلص لك فى يوم الأسى ، فإن الذى أكل خبزى هو الذى دبر موتى ، والذى مددت له يدى ، هو الذى مد يده ليقتلنى » .

٦ ـ نصائح انى :

وهى مجموعة من التعاليم كتبها الحكيم « آنى » إلى ابنه « خنس حوتب » ، وكان ذلك فى عصر الدولة الحديثة ، بعد أن فقدت مصر ما كان لها من القوة والسلطان فى عصر الامبراطورية ، وطغت على المصريين فلسفة الإذعان لحكم القضاء والقدر ، والإيمان بأن حياة الإنسان مرهونة بمشيئة الله . ويبدو ذلك واضحا فى تعاليم « آنى » . كما يبدو فيها الكثير مما كان سائدا فى ذلك العصر من تقاليد المجتمع وآداب السلوك والمثل العليا . وقد سبق لنا أن اقتبسنا بعض هذه التعاليم فى كثير من أبحاثنا السالفة ، ولا سيما حين تكلمنا عن الحياة الاجتماعية لدى قدماء المصريين . ونورد هنا بعضاً آخر منها حيث يقول « كن صامتاً لتكون سعيداً . ولا تفض بما فى قلبك لرجل ، فان كلمة خاطئة تخرج من فيك

إذا أذاعها من سمعها قد يكون فيها هلاكك . ولا تكن ممن يحبون الخوض فى الحديث عن الناس . ولا تقل من الكلام إلا الطيب . وإياك أن تجيب رئيسك وهو غاضب ، إلا بمعسول القول مهما كان قوله مراً . وابذل كل ما فى وسعك لتهدئة ثائرته وتبديد غضبه ، فلا يلبث أن يصفح عنك ويثنى عليك . ولا تجلس إذا كان من هو أكبر منك فى السن واقفاً . ولا تدخل بيتاً دون إذن صاحبه . وامنح المحروم واليائس من خبزك ، لأن النعمة لا تدوم».

٧ ـ نصائح امنؤوبى :

كان أمنؤوبى من كبار الموظفين فى إقليم أبيدوس ، فى الفترة بين القرن العاشر والقرن السابع قبل الميلاد . وقد وجه مجموعة من النصائح إلى ابنه « حور » الذى كان كاهنا فى معبد الإله « مين » . وقد وضع نصائحه فى أسلوب شعرى ممتع ، وقسمها إلى ثلاثين فصلا ، يشتمل كل فصل منها على عدد من الوحدات الشعرية ، وتتكون كل وحدة من أربعة سطور . وهى زاخرة بالحكم والأمثال والتعاليم والمبادىء السامية . وقد جاء بها : « لا تتكلمْ بالكذب مع إنسان ، فان ذلك يمقته الله . ولا ينطق لسانك بما ليس فى قلبك ، تنجح فى طرقك ، لأن الله لا يكره شيئا كما يكره النفاق . وقل الصدق أمام القاضى ، ولا تكذب على الله . ولا تكشف عما فى قلبك لإنسان ، ولا تصاحب إنسانا يكشف عما فى قلبه ، لأن الرجل الذى يحتفظ بمكنون نفسه خير ممن يفشى سره ، ويكشف للناس أمره ، فيكون فى ذلك ضرره . ولا تشتبك فى جدال مع أحمق ، وابتعد عنه إذا أساء إليك ، لأن الله كفيل بمجازاته . أما الرجل الحليم فهو الذى يضع نفسه حيث يحب ، وهو يشبه شجرة باسقة ، ثمرها حلو وظلها ظليل . واحفظ لسانك عن قولة السوء يحبك الناس ، لأنه أفضل للمرء أن يحبه الناس من أن تمتلىء بالثراء مخازنه . كما أن كسرة خبز مع سعادة ، خير من بيت ملآن أطايب مع كدر . والفقر على يد الله خير من الغنى بما يغضبه . والمكيال الواحد الذى يعطيه الله

إياك خير من خمسة آلاف مكيال تكسبها بالظلم والبغى . فلا تجهد نفسك فى طلب المزيد من الثروة ، ما دمت قد حصلت على كفايتك ، لأن الثروة لو أتتك عن طريق الغش لاتمكث معك سواد الليل ، إذ ربما تفغر الأرض فاها وتبتلعها . واطلب إلى الله أن يمنحك السلامة والصحة فحسب ، وهو عندئذ سيمنحك جميع ما تحتاج إليه طول حياتك ، فيطمئن قلبك . ولا ترقد بالليل متخوفا مما يجىء به الغد ، لأن الغد فى يد الله ، فاترك أمرك إليه وهو يدبر كل شىء . وإذا كان عقل الإنسان بمثابة دفة السفينة ، فإن إله الكون كله هو ربانها . وأفكار الناس شىء ، وأفعال الله شىء آخر . ولا تطل التفكير فى أعدائك ، لأنك فى الحق لا تعرف تدابير الله ، ولا يمكنك أن تدرك ماسيحدث فى الغد . فتوكل على الله ، وهو ينصرك . وإن جاع مبغضك فلا تعامله كما سبق له أن عاملك ، بل مد يدك إليه وارفعه وأسلمه إلى ذراعى الله وأطعمه من خبزك حتى يشبع . واحذر أن تحرم رجلا فقيراً مما يملك ، أو تتجبر على رجل مهيض الجناح . ولا تظلم أحداً ، لأن الله يكره الظالم . ولا تسخر من أعمى ولا تهزأ بأعرج ، لأن الله هو الذى برأ الإنسان وهو يبنى ويهدم كل يوم . ولا تسب رجلا كبير السن ، ودعه يسبك وأنت ساكت ويضربك وأنت ساكن . لأنك إذا فعلت ذلك سيلقاك فى اليوم التالى بوجه باسم ويسترضيك ويكرمك . ولا تكن سريع الغضب ، ولا تصاحب سريع الغضب . ولا تكن رسول سوء ولا تصاحب رسول سوء . واحفظ لسانك عن الزلل فى مجاوبة رئيسك ، واحذر أن تسىء اليه ، لأن الإنسان يبنى ويهدم بلسانه . ولا تظهر غير ماتبطن ، لأن قشرة الذهب إذا كسوت بها سبيكة من القصدير لتبدو ذهباً خالصاً ، فما أن يطلع الفجر حتى ينكشف أمرها . وكن بعيد النظر لأن الملاح الذى يرى على البعد لايغرق أبداً قاربه . »

٨ ـ تأملات يائس :

كانت مصر فى أواخر عصر الدولة القديمة قد بلغت حداً كبيراً من التدهور

نتيجة لضعف السلطة المركزية وطغيان الحكام الأقطاعيين ، ومن ثم سادت الاضطرابات وانعدم الأمن وعمت البلاد موجة من الذعر والهلع ، وتطلع الناس إلى يد رحيمة تضمد جراحهم وتسكب عليهم فيضاً من الطمأنينة والسلام . وقد لجأ الأدباء إلى القلم يبثونه أشجانهم ، ويعبرون به عما يخالجهم من آلام وآمال . وكان من آثار ذلك مقطوعة أدبية رائعة كتبها أديب بائس تشبه قصته إلى حد كبير قصة أيوب الواردة فى التوراة وإن كانت قد جاءت قبل قصة أيوب بنحو ألف وخمسمائة سنة . وهى تصور ذلك الأديب وقد دهمه المرض وحطمه العوز ، وأحاط به سوء الحظ ، فابتعد عنه حتى إخوته وسرق جيرانه كل مايملك من متاع ، وصدر عليه حكم ظالم عن تهمة شائنة ، فتلطخ اسمه بالعار والهوان ، وهو الجدير على حقيقته بالاحترام والإكرام ، فضاقت به الدنيا ويئس من الحياة وبدأ يفكر فى الانتحار ، بيد أنه وهو يناجى نفسه بذلك أبت عليه نفسه أن يفعل ذلك ، فراح يحاورها كأنه يحاور شخصاً آخر ، وكان مما قاله لها : « ها أنذا وحيد ، فلا أخ ولا صديق ، وقد أصبح الإخوة شراً ، وأصبح الأصدقاء كالأعداء . وقد امتلأ الناس طمعاً وجشعاً ، وبات الرجل يحتال على أخيه ويغتال متاع جاره . وقد مات المهذب ، أما الصفيق الوجه فيسير فى الأرض مرحاً . وما عاد أحد يصنع خيراً ، أو يجزى بالخير من يسديه اليه . وقد اختفى الصديق الذى يمكن للمرء فى ساعة الضيق أن يعتمد عليه . لذلك فإننى مثقل بالشقاء ، لأننى وحيد بغير أصدقاء . وقد أصبح الموت أمام ناظرى بمثابة الشفاء بالنسبة للمريض ، والهواء الطلق بالنسبة لمن قضى سنوات طويلة فى السجن ، وإننى لأشتاق إليه اشتياق الرجل إلى رؤية بيته بعد أن أمضى أعواماً عديدة فى الأسر » .

٩ ـ تأملات «ايبور» :

وهذه قطعة أدبية أخرى كتبها أديب يسمى « إيبور » ، عاش كذلك فى تلك الفترة المظلمة من تاريخ مصر التى أعقبت عصر الدولة القديمة ، وهو يصور فيها

ما آلت إليه البلاد من تعاسة وبؤس ، ويهيب بالملك الجالس على العرش ألا يستمع إلى ملق وخداع الأشرار المحيطين به ، وأن يفعل شيئاً لانتشال البلاد من محنتها . وتعتبر هذه القطعة من أروع الآثار الأدبية لقدماء المصريين ، كما تعتبر من أفضل المصادر التاريخية لدراسة أحوال مصر فى ذلك العصر ، وما أدت إليه من ثورة اجتماعية عنيفة ، إقتلعت جذور الفساد وأنقذت مصائر البلاد . وقد جاء بها : « لقد أصبح الرجل يذبح أخاه من أمه ، وإذا رأى غريباً يذبح أخاه تركه ولاذ بالفرار لينجو بنفسه . وأصبح الرجل ينظر لأبنائه نظره لأعدائه . ومن زرع أصبح محروما مما زرع ، ومن لم يزرع امتلأت مخازنه بما لم يزرع ، لأن هذا أصبح يغتصب أموال ذاك . وإذا مر سائح طلع اللصوص عليه وسلبوه مايحمل ، ثم ضربوه وذبحوه . ومن كان لصا أصبح صاحب ثروة ، أما الشريف فقد نهبه الناهبون فأصبح فقيراً . وأما المتحلى بالفضائل فيسير وهو مطرق الرأس محزون . وقد كفر الرجل الأحمق بوجود الله . وفى الحق لقد مات السرور ، ولم يعد فى الأرض إلا الأنين والعويل ، وأصبح الرجل يقول ليتنى مت ، والطفل يقول ليتنى لم أولد . والنساء صرن عاقرات . وعظماء الناس باتوا فى هموم وأحزان . والجوارى أصبحن يسرن متحليات بالذهب والفضة والياقوت واللازورد ، أما ربات الخدور وسيدات البيوت الرفيعة فيسرن خاليات خاويات البطون حتى من الطعام ، ولا تستر أجسادهن سوى خرق مهلهلة وأسمال بالية . ومن لم يكن يملك جدارا أصبح ينام على فراش وثير ، بينما أصبح الأمراء ينامون فى الطرقات . فما العمل وكل شىء ينحدر إلى الدمار ، وقد أصبح الناس أشبه بقطيع لاراعى له ، وهم يخفون وجوههم بأيديهم فزعاً مما سيأتى به الغد » .

١٠ — تنبؤات نفروهو :

كان الحكيم « نفروهو » يعيش فى عهد الملك « أمنمحعت الأول » فى بداية عصر الدولة الوسطى ، وقد كتب وصفا للحالة المؤلمة التى آلت إليها البلاد فى

نهاية عصر الدولة القديمة . ولكنه نسب ما كتبه إلى عهد الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة ، وجعله فى شكل تنبؤات بما سيحدث فى المستقبل ، على لسان كاهن فى معبد الإله « باست » ، فهو يقول : « ها هوذا الخراب يعم البلاد . فليس من يهتم بها أو يتحدث عنها أو يذرف الدمع السخين عليها . ومياه النيل تنضب ، والخير يختفى ، والناس يقتل بعضهم بعضا ، وينهب بعضهم بعضا ، والآسيويون يغيرون على مصر ، والبلاد تحتضر . . ثم يظهر ملك من الجنوب اسمه « أمينى » يضع فوق رأسه التاج الأبيض والتاج الأحمر ، فيوحد البلاد بتاجه المزدوج ، وينشر السلام فى الأرض ، فيفرح أهل زمانه ، ويحيا ابن الإنسان بذلك إلى الأبد . أما الذين كانوا قد تآمروا على الشر ودبروا الفتنة فتخرس أفواههم خوفا منه . والآسيويون يقعون فريسة سيفه . والليبيون يحترقون بلهيبه ، والعصاة يستسلمون لبطشه . وتعود العدالة إلى هيكلها ، وينتفى الظلم من الأرض . فهنيئاً لمن يكون من نصيبه أن يعيش فى أيام ذلك الملك ، وهنيئاً لمن يتاح له أن يخدمه » . وقد كان اسم الملك المشار إليه فى هذه النبوءات وهو « أمينى » هو الإسم المختصر للملك أمنمحعت الأول الذى كان بالفعل ملكا عظيما ومصلحا قديراً ، أعاد توحيد مصر وتوطيد سلطانها ، وانتشلها من الهوة السحيقة التى سقطت فيها ، عقب انهيار الدولة القديمة .

الفصل السادس

النهضة العلمية

بلغت مصر القديمة شأواً عظيماً فى مختلف العلوم ، ولا سيما الفلك والرياضيات والطب . وليس أدل على مبلغ النهضة العلمية فى مصر ، وما كان للعلماء المصريين فى تلك العصور البعيدة من السمعة الرفيعة والمنزلة العالية بين علماء العالم كله ، من ارتحال الكثيرين من كبار علماء اليونان وفلاسفتهم إلى مصر ، للارتواء من مناهلها العلمية ، ومنهم « هوميروس » و «سولون» و « أفلاطون » و «فاليس» و « بودكس » و « ديموقراط » و « فيثاغورس » و « أرشميدس » وغيرهم من جهابذة المفكرين الذين أسسوا النهضة العلمية فى اليونان ، بل فى العالم كله ، واشتهروا فى التاريخ بنظرياتهم العلمية والفلسفية .

وقد كانت جامعة الإسكندرية أرفع منارة للعلوم والمعارف منذ القرن الثالث قبل الميلاد . وكانت تحوى مكتبة عظيمة ومرصداً ضخما لرصد الأجرام السماوية . وقد تخرج منها أعظم العلماء والفلاسفة فى ذلك العصر .

ونورد فى كل من الأبحاث الثلاثة التالية ، كلمة موجزة عما بلغه المصريون القدماء فى الفلك ،وفى الرياضيات ، وفى الطب .

البحث الأول

الفلك

إهتم المصريون منذ زمن سحيق برصد الأجرام السماوية ودراسة حركاتها . وكانوا يسجلون مشاهداتهم بطريقة منتظمة . وقد بلغوا فى ذلك غاية لم يبلغها أى شعب آخر من معاصريهم .

ولعل أبلغ دليل على تفوقهم فى هذا المضمار ، وعلى أنهم سبقوا كل الشعوب الأخرى فى دراسة حركات الأجرام السماوية دراسة عميقة مؤسسة على أرصاد منتظمة ودقيقة ، وعلى معرفة عميقة بالأصول الرياضية ، أنهم توصلوا إلى وضع أول تقويم عرفه البشر منذ أكثر من ستة آلاف عام . فقد لاحظوا أن فيضان النيل ظاهرة دورية تتكرر بانتظام . كما لاحظوا أن كوكب الشعرى اليمانية يظهر عند الأفق مع شروق الشمس فى ذات الوقت الذى يحدث فيه الفيضان ، فحصروا المدة بين ظهور هذا الكوكب فى ذلك الوقت وظهوره فى المرة التالية ، واعتبروها وحدة أساسية لقياس الزمن ، هى السنة ، وتتكون من ثلاثمائة وخمسة وستين يوما ، ثم قسموا السنة إلى إثنى عشر شهرا يتكون كل منها من ثلاثين يوما . أما الأيام الخمسة الباقية فخصصوها للأعياد ، يلهون فيها ويطربون . وقد انتقل هذا النظام التوقيتى بعد ذلك من مصر إلى العالم كله ، وظل فى جوهره باقيا إلى اليوم . ولا شك أن اكتشاف هذا النظام كان خطوة عظيمة

بالنسبة للإنسان فى كل بقعة وفى كل زمان . وكان بداية الانطلاق بالنسبة للبشر جميعا من ظلام الحياة البدائية ، إلى نور المدنية والحضارة .

وتدل النصوص المنقوشة على جدران أهرامات الأسرتين الخامسة والسادسة على أن هذا التقويم كان متبعا فى عصر هاتين الأسرتين ، أى فى نحو عام ٢٧٨١ قبل الميلاد . ويستنتج العلماء من هذه الحقيقة — بناء على القواعد الفلكية — أن المصريين عرفوا نظام الدورة السنوية فى عام ٤٢٤١ قبل الميلاد على الأقل ، ويحتمل أنهم عرفوا هذا النظام قبل ذلك بأكثر من ألف عام .

وقد أطلق المصريون على الشهور التى ابتكروها أسماء بعض آلهتهم . وكانوا يقيمون الاحتفالات فى كل شهر للمعبود الذى يسمى ذلك الشهر باسمه . وكانت هذه الشهور كما وردت فى تقويمهم هى الآتية : —

١ — توت : وهو مشتق من اسم « تحوت » إله الحكمة ، وكانوا يحتفلون به فى جميع أنحاء القطر لمدة أسبوع ، ولا يزال الأقباط يحتفلون به إلى اليوم ويسمونه « عيد النيروز » .

٢ — بابه : وهو مشتق من اسم « بى نب وات » إلهة الزراعة ، حيث كانت الأرض فى ذلك الشهر تزخر بالمحاصيل الزراعية .

٣ — هاتور : وهو مشتق من اسم « حاتحور » إلهة الجمال ، إذ كانت المزروعات فى ذلك الشهر تزين وجه الأرض وتكسوها بالجمال .

٤ — كيهك : وهو مشتق من اسم « كاهاك » إله الخير ، وكان الخير فى ذلك الشهر يعم الوادى .

٥ — طوبة : وهو مشتق من كلمة « طوبيا » أى الأعلى أو الأسمى ، وهو لقب إله المطر ، لأن هذا الشهر كانت تنزل فيه الأمطار .

٦ — أمشير : ولم يمكننا أن نستدل فى الكتابات القديمة على اسم الإله الذى اشتق منه اسمه .

٧ — برمهات : وهو مشتق من اسم « بامونت » إله الحرارة ، إذ تنضج فيه الزراعة بسبب ارتفاع حرارة الجو .

٨ — برمودة : وهو مشتق من اسم « بارا هاموت » إله الموت والفناء ، لأن فيه تنتهى المزروعات ، وتبدو فيه الأرض مجدبة وكأنها حل بها الموت .

٩ — بشنس : وهو مشتق من اسم « باخنسو » إله الظلام ، لاعتقادهم أنه يساعد على تبديد الظلام ، ولهذا يكون النهار فى ذلك الشهر أطول من الليل .

١٠ — بؤونة: وهو مشتق من اسم « بأونى » إله المعادن ، لأن فيه تنضج المعادن والأحجار ، ولذلك يسميه العامة « بؤونة الحجر » .

١١ — أبيب : وهو مشتق من الكلمة الهيروغليفية « أوبا » أى فرح السماء لأن قدماء المصريين كانوا يفرحون فيه لاعتقادهم أن حوريس إله الشمس انتقم فيه لأبيه أوزوريس إله الخير وإله النيل والخصوبة ، من عدوه ست إله الشر وإله القحط والجفاف .

١٢ — مسرى : وهو مشتق من « ميت رع » أى ابن الشمس .

وأما الخمسة الأيام الباقية من السنة فقد سميت « كوجى أتانوت » أى الشهر الصغير .

ومن أقوى الأدلة على تبحر المصريين القدماء فى العلوم الفلكية ، فضلا عن تبحرهم فى العلوم الرياضية والهندسية ، ما اتبعوه فى بناء الأهرامات من مبادىء

ونظريات : فقد لاحظ الباحثون أن بناة الأهرامات الكبرى قد راعوا أن تكون واقعة على خط عرض ٣٠ درجة شمالا ، وأن تنطبق أضلاع قواعدها على الجهات الرئيسية الاربع ، وأن تنطبق ممراتها المائلة على المستوى الزوالى . كما لاحظ العالم بروكتور أنهم راعوا أن تكون جوانبها الأربعة معرضة لضوء الشمس طوال سبعة أشهر ونصف فى السنة، وهى التى يقع نصفها الأول قبل الانقلاب الصيفى ، ونصفها الثانى بعده . وقد استنتج بعض العلماء الآخرين أن ضوء الشعرى اليمانية كان عمودياً على الوجه الجنوبى للهرم الأكبر فى عام ٣٣٠٠ قبل الميلاد . كما استنتجوا أن الممرات الداخلية بالأهرامات قد روعى فى تصميمها وفى تحديد اتجاهاتها أن تصلح لأن تكون بمثابة مراصد لمراقبة الأجرام السماوية . ولا شك أن تعيين المواقع والاتجاهات بالدقة الواجبة لتحقيق الغرض المقصود منها ليس من الأمور الهينة حتى فى عصرنا الحاضر الذى تقدمت فيه صناعة الآلات الهندسية اللازمة لذلك ، فكم بالأحرى منذ عدة آلاف من السنين . ولئن كان المصريون قد زاولوه حينذاك بكل ذلك الإتقان والحذق فذلك ولا ريب نصر وفخر لهم ولأبنائهم من بعدهم .

ومن الآثار الأخرى لقدماء المصريين التى تدل على اهتمامهم بالأجرام السماوية وعنايتهم بدراستها ، صور البروج النجومية التى زينوا بها سقف معبد دندرة ، والرسوم التى نقشوها على جدرانه لبيان ساعات النهار والليل وأوجه القمر ومسار الشمس بين النجوم . ولعل مما يلفت النظر فى بعض هذه الرسوم أنها تصور كوكب الزهرة يستمد ضوءه من الشمس مما يدلنا على أنهم كانوا يدركون هذه الحقيقة .

وقد أخذ اليونان عن المصريين فى العلوم الفلكية كثيراً من الحقائق والنظريات والاكتشافات . ومنها : نظرية كروية العالم .. وكروية الشمس والقمر والأرض

وسائر الكواكب . والبروج التي تمر بها الشمس أثناء مسارها الظاهرى بين النجوم . ونظرية أن الشمس والقمر والسيارات كلها تتحرك فى اتجاه عكسى للحركة اليومية للأجرام السماوية . وسبب ظاهرتى الكسوف والخسوف والتنبؤ بحدوثهما . ونظرية أن القمر يستمد ضوءه من الشمس . واستعمال جداول خاصة للسيارات . ورصد الشروق والغروب الاحتراقى للنجوم واستخدامها فى تعيين طول السنة النجمية وابتكار السنة المدنية على أساس طول السنة النجمية . وتقدير اليوم ابتداء من منتصف الليل إلى منتصف الليل الذى يليه . وتقسيم النهار إلى اثنتى عشرة ساعة والليل إلى اثنتى عشرة ساعة . وطريقة قياس قطر الأرض . وقد اعتمد علماء اليونان على أرصاد المصريين القدماء فى تحقيق نظرياتهم عن الكون وحركة الأجرام السماوية . وقد أشاد « أفلاطون » بالعلوم الفلكية لدى قدماء المصريين . كما أنشأ « يودكس » مرصداً فى اليونان لدراسة الأجرام السماوية على نمط المراصد المصرية .

وكان لجامعة الإسكندرية شهرة عالمية فى الأبحاث الفلكية منذ إنشائها فى القرن الثالث قبل الميلاد . وكان جميع الفلكيين ذوى الشهرة العالمية فى الخمسة القرون التالية لذلك من تلاميذها . ومنهم « أرستاركوس » و « أريستيلوس » و « تيما خاريس » وكان « أريستاركوس » يعتقد بدوران الأرض ، وهى الحقيقة العلمية التى لم تثبت بالبرهان الصحيح إلا فى القرن السادس عشر بعد الميلاد . وله رسالة فى تقدير بعد الشمس والقمر عن الأرض . أما « أريستيليوس » و « تيما خاريس » فكانا أول من قاس مواقع النجوم . كما قاما بتسجيل أرصاد فلكية هامة استخدمها العلماء المصريون فيما بعد فى تحقيق كثير من الظواهر الفلكية . ومن أعلام جامعة الإسكندرية كذلك « أراتو سوثينوس » ، وإليه يرجع الفضل فى قياس قطر الأرض بطريقة علمية صحيحة . كما أن من علماء هذه الجامعة « سوسيجنوس » الذى ابتكر فكرة السنة الكبيسة لجعل متوسط

طول السنة المدنية مساوياً لطول السنة النجمية التى كان قدماء المصريين قد اتخذوها وحدة أساسية لقياس الزمن .

بيد أن أشهر علماء جامعة الإسكندرية على الإطلاق هو « بطليموس » الذى عاش فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد ، وقد كان أكبر الفضل فى ذيوع صيته إلى كتابه العظيم الذى يسمى « المجسطى » ، والذى ظل دستوراً للعلوم والمعارف طيلة خمسة عشر قرناً . وهو يتألف من ثلاثة عشر جزءاً ، ويتناول بطليموس فيه كثيراً من الأبحاث الفلكية ، ومنها : الحركة اليومية للأجرام السماوية ، والحركة العامة للشمس والقمر والسيارات ، وطول الليل والنهار ، وأوقات شروق وغروب النجوم فى المناطق المختلفة من الأرض . وهو يأتى فيه بالبراهين العلمية الصحيحة على كروية الأرض . ويأخذ بالتقدير الذى استنبطه « بوزيدونس » لمحيط الأرض . ويذكر أن الكون كروى الشكل ، وأنه هائل جدا حتى أن الأرض بالنسبة إليه لا تعدو أن تكون ذرة صغيرة . ويبحث نظرية الشمس ونظرية القمر والشهر القمرى ، وظاهرتى الكسوف والخسوف ، وتعداد النجوم وحركة السيارات . كما يشرح « بطليموس » فى هذا الكتاب الأجهزة الفلكية التى كان يستعملها ولاسيما الأسطرلاب . ولا شك أن هذا الكتاب هو القمة فى العلوم الفلكية على مدى التاريخ القديم . وهو الدليل الساطع أمام العالم على ما بلغه المصريون فى هذا المجال من تقدم ومقدرة .

البحث الثانى

الرياضيات

تفوق المصريون القدماء على غيرهم من الأمم المعاصرة لهم فى الرياضيات . وكما أخذ اليونان عنهم كثيراً من النظريات الفلكية ، أخذوا كذلك عنهم كثيراً من النظريات الرياضية .

وقد مهد للرياضيات المصرية القديمة سبيل التطور اهتداء المصريين منذ أوائل عصورهم التاريخية الى ابتكار الأرقام ، وإلى ابتداع رموز مفردة عبروا بها عن العشرات ومضاعفاتها ، على خلاف ماجرى عليه أغلب أصحاب الحضارات الكبيرة الذين عاصروا قدماء المصريين وأعقبوهم ، إذ كانوا يعبرون حينذاك عن العشرات ومضاعفاتها بكلمات هجائية يتكون كل منها من عدد من الحروف والمقاطع الصوتية . وقد أفضى استخدام المصريين لرموز المجموعة العشرية إلى نتائج على قدر كبير من الأهمية ، ومنها سهولة عمليات الضرب والقسمة بالنسبة للعشرات ومضاعفاتها ، وسهولة كتابة المجاميع العددية الكبيرة فى وحدة متصلة يمكن للعين أن تلم بها فى نظرة واحدة ، وتعويضهم بعض الشىء عن عدم اهتدائهم إلى تصوير الأصفار واستخدامها فى تعبيراتهم المكتوبة .

وثمة عامل آخر كان له فضل كبير فى دفع الرياضيات المصرية نحو التقدم

والتطور . وذلك هو تعدد الضرورات العملية التى ظلت تشغل بال الموظفين المصريين بما نشأ عنها من مشكلات حسابية ومعضلات هندسية ، وهم يقومون بمسح الأراضى وتعيين حدودها ، عند بيعها أو تأجيرها أو تقدير الضرائب عليها ، ولا سيما فى أعقاب الفيضانات الكبيرة التى تؤدى إلى كثير من التغيير فى المساحات الأصلية بالزيادة أو النقصان . كما كانت تقوم هذه المشكلات والمعضلات كثيراً أمام المهندسين المكلفين بتصميم المنشآت الضخمة . وقد ذكر المؤرخ «استرابون» أن المصريين القدماء استنبطوا قواعد الحساب والهندسة لحاجتهم إليها فى شئونهم المدنية والمعمارية .

وقد برع المصريون القدماء فى الحساب، وعرفوا الأعداد الحسابية إلى المليون، وأجادوا عمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة . وقد استنبطوا لإجراء هذه العمليات بالنسبة للكسور المختلفة المقامات طريقة تدل على المهارة والفطنة ، وتوصلوا إلى معرفة المتواليات العددية والهندسية . واستخدموا فى عملياتهم الحسابية وفى حياتهم اليومية وحدات كثيرة للأطوال والمساحات والمكاييل والموازين : فاستخدموا وحدة الذراع للأطوال الصغيرة ، كما استخدموا وحدة قياسية تبلغ مائة ذراع كانوا يسمونها « خت » ، ووحدة طولية للمسافات الكبرى تبلغ نحو الكيلومترين كانوا يسمونها « أترو » ، ووحدة مساحية للأراضى المتسعة كانوا يسمونها « ستات » . واستخدموا وحدة لكيل الغلال كانوا يسمونها «حقات» ، وجعلوا لها مشتقات ومضاعفات تشبه الكيلة الحالية ومشتقاتها ومضاعفاتها. كما استخدموا مكاييل أخرى خاصة بالسوائل . واتخذوا لأوزانهم وحدة بسيطة كانوا يسمونها « دبن » ، وجعلوا لها كذلك مشتقات ومضاعفات ، لتصلح لكل الأوزان .

وقد عرف المصريون الجبر ووضعوا مبادئه الأولى ، واستخدموه فى حل المسائل العويصة والعمليات المعقدة .

كما أنهم ابتدعوا العلوم الهندسية وأتقنوها . ويقول هيرودوت فى ذلك « إننى أعتقد أن الهندسة نشأت فى مصر ثم انتقلت بعد ذلك إلى اليونان » . وقد توصل المصريون إلى كثير من النظريات الهندسية التى بقيت قائمة إلى اليوم . ومن ذلك أنهم اهتدوا إلى استخراج مساحة المثلث بذات الطريقة التى يستخدمها الرياضيون فى العصر الحاضر . كما أنهم اهتدوا إلى استخراج مساحة الدائرة ، واستخراج حجم المكعب ، وكان هذا ابتكاراً مصرياً ، أشاد به الفيلسوف اليونانى أفلاطون ، معترفاً بفضل المصريين بصدده على اليونان . وكان من دلائل تقدم المصريين فى العلوم الهندسية كذلك أنهم توصلوا إلى استخراج حجم الشكل الأسطوانى ، كما توصلوا إلى استخراج حجم الهرم الناقص . وقد ابتدعوا لذلك نظرية تكاد تعتبر صورة أصلية للنظرية الرياضية المأخوذ بها فى هذا الشأن حتى اليوم . وذلك فضلا عن أنهم برعوا فى معالجة مسائل الزوايا والارتفاعات العمودية ، وطبقوا كل ذلك فيما كانوا يزاولونه من قياس المساحات ، وما كانوا ينشئونه من عمائر وبنايات .

وقد تولى تعليم الرياضيات المصرية القديمة المعلمون فى المدارس ، والموظفون فى دواوين الحكومة ، والكهنة فى المعابد . وقد احتفظت لنا البرديات والألواح التعليمية التى بقيت بين الآثار بمسائل وتمارين رياضية كثيرة ، منها مجموعة أولى غلبت عليها الصبغة الحسابية وتناولت وسائل الجمع والطرح والضرب والقسمة للأعداد الصحيحة والكسور . كما تناولت وسائل تحويل المكاييل إلى مشتقاتها ومضاعفاتها ، وعالجت موضوعات التقسيم التناسبى ، ومسائل المعادلات البسيطة. وثمة مجموعة ثانية ظهرت فيها مبادىء الجبر ، وتناولت بعض المعادلات ومسائل التتابع الرياضى . وثمة مجموعة ثالثة تناولت الموضوعات الهندسية وعالجت المساحات والحجوم والارتفاعات والزوايا .

ويكفى الرياضيات المصرية فخرا أنها استطاعت أن تلبى مطالب عصرها كاملة

غير منقوصة ، كما استطاعت أن تحظى بتقدير علماء اليونان وفلاسفتهم ومؤرخيهم الذين لم يترددوا فى الاعتراف بأن الرياضيات المصرية هى الأصل والمصدر لبعض نظرياتهم وقوانينهم . فقد أكدت الروايات اليونانية أن « طاليس » هو الذى نقل أصول الهندسة المصرية إلى اليونان . وأن تلميذه « بيثاجوراس » — بعد أن أخذ عن أستاذه كل ما يعرفه منها — رحل إلى مصر ليتم دراسته الهندسية هناك على يد الأفذاذ من علمائها وكهنتها . كما روى الفيلسوف اليونانى أفلاطون عن أستاذه سقراط أن الإله المصرى « تحوت » هو الذى ابتدع نظريات الحساب والهندسة والفلك . ووصف أفلاطون فى كتابه « القوانين » بعض الأساليب المصرية لتعليم الصغار عمليات الحساب ، قائلا أن المصريين جعلوا تعليم الحساب متعة وتسرية . ثم عاب على المفكرين اليونانيين ترفعهم المفتعل عن الاهتمام بهذا الفرع من العلوم الرياضية ، ذاكرا لهم فضل المصريين عليهم فى معرفة حجوم الأشياء ذات الثلاثة أبعاد ، وتحريرهم لهم من كثير مما كانوا يعيشون فيه من أفكار خاطئة وأوهام .

ولا زالت الدقة البالغة والروعة المنقطعة النظير التى تتصف بها المنشآت الهندسية لقدماء المصريين من أهرامات ومسلات ومعابد ، تدفع بعض الباحثين فى العصر الحديث إلى الاعتقاد بأن ما عرفناه حتى اليوم من الرياضيات المصرية القديمة لا يمثل إلا أقلها ولا يكشف إلا عن أبسطها ، وأن ما أفنته الأجيال أو أخفته الرمال من الأدلة على تفوق مصر فى هذا المضمار لا عدد له ولا حصر .

البحث الثالث

الطب

عرف المصريون الطب منذ عصور قديمة جداً . ومن المحقق أن أول مدارس الطب فى مصر ترجع إلى عهد الأسرة الأولى . وقد كان لبعض هذه المدارس شهرة عظيمة ، ولا سيما مدرسة عين شمس ، ومدرسة منف التى كانت تضم مكتبة طبية ذائعة الصيت . وقد ظل الأطباء يترددون عليها إلى عهد جالينوس فى القرن الثانى بعد الميلاد .

وكان الأطباء يتمتعون بمكانة ممتازة فى المجتمع المصرى ، فكانوا موضع التقدير والاحترام . وقد تجاوزت شهرتهم حدود مصر إلى البلاد المحيطة بها ، فكان يفد إليهم الأمراء من سوريا وغيرها ليتولوا علاج أمراضهم . وكان أشهر الأطباء المصريين هو « أمحوتب » الذى عاش فى عهد الأسرة الثالثة حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد . وقد قال عنه السير وليم أوزلر « إنه أول شخصية طبيب ظهرت فى التاريخ البشرى » . وكان « أمحوتب » هو كبير وزراء الملك زوسر ، وهو الذى قام بتشييد الهرم المدرج فى سقارة ، وقد ظل اسمه يتألق فى كل عصور التاريخ المصرى القديم ، حتى لقد اعتبره المصريون إلهاً فى العصر الفارسى ، وحل محل « نفرتم » فى ثالوث منف الكبير مع الإلهين « بتاح » و « سخمت » . وقال

اليونان أنه هو « أسقلابيوس » إله الطب عندهم ، وإبن أبولو فى أساطيرهم . وقد وردت فى النصوص المصرية أسماء كثير من الأطباء غير « أمحوتب » وقد جمع منها « جونكر » مائة إسم .

ومن أشهر كتب الطب المصرية التى وصلت إلينا كتاب تشتمل عليه بردية « إدوين سميث » ، ويرجع تاريخه إلى عام ١٥٥٠ قبل الميلاد ، وهو خاص بالجراحة ، ويمتاز بالدقة والنظام والتزام التسلسل فى الدراسة والعرض : فهو يبدأ فى كل فصوله ببيان الفحص ، ثم التشخيص ، ثم العلاج . ويقول برستد أن هذا هو أول كتاب فى الجراحة يظهر فى تاريخ العالم .

وثمة كتاب طبى آخر تشتمل عليه بردية « أبرز » ، وهو يعتبر من أهم المراجع الطبية فى معرفة الأمراض الباطنية وعلاجها ، ويرجع تاريخه إلى عام ١٥٥٠ قبل الميلاد . وقد اشتمل ـ فضلا عن الأمراض الباطنية ـ على علاج أمراض العيون وأمراض القلب والشرايين والأمراض الجلدية وغيرها .

وقد أمكن العثور على كتب طبية أخرى من تراث قدماء المصريين ، منها بردية « هوست » ، وتقرب من بردية « أبرز » فى التاريخ والمعنى . وبردية «كاهون» فى أمراض النساء والطب البيطرى ، ويرجع تاريخها إلى عام ١٩٠٠ قبل الميلاد. وبردية برلين وهى تتناول أمراضاً مختلفة وعلاجها ويرجع تاريخها إلى عام ١٣٠٠ قبل الميلاد . وبردية لندن وهى مزيج من الطب والسحر . وبردية كارلزبرج وهى تشتمل على بعض أمراض العيون والولادة .

وقد توصل قدماء المصريين إلى تشخيص كثير من الأمراض ، حتى لقد بلغ مجموع ماوصفوه منها مائتان وخمسون مرضاً . كما برعوا على الخصوص فى الجراحة، ومن المعروف أنهم كانوا يزاولون عملية التربنة فى العصور السابقة على التاريخ . وقد ساعدتهم ممارسة التحنيط على اكتشاف محتويات الجسم ودراسة أعضائه

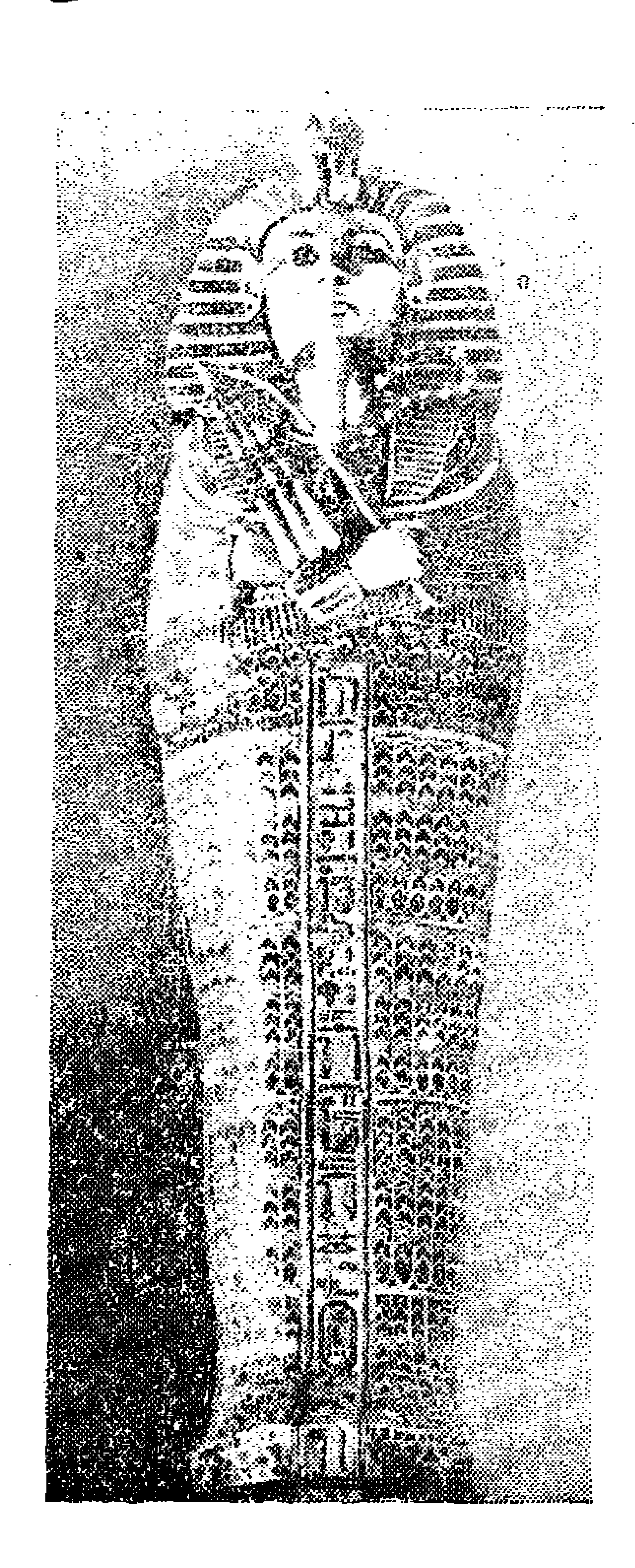
دراسة دقيقة وعميقة ، فتفوقوا فى هذا الميدان على غيرهم من الشعوب التى كانت تحرق الجثث أو تدفنها بغير تحنيط . بيد أنهم عرفوا كثيراً من أسرار الجسم البشرى عن طريق آخر غير التحنيط هو تشريح الحيوانات ، كما يفعل العلماء فى العصر الحديث .

وكانوا يعرفون الشرايين ، ومواقع النبض المختلفة فى الجسم وكيفية جسه وعده ، ويجعلون لذلك اعتبارا كبيرا فى تشخيص المرض . وكانوا يعتمدون فى الكشف على المريض فوق ذلك على الخبرة ودقة الملاحظة . فكانوا يبدأون عادة باستجوابه استجواباً دقيقاً ، ثم فحصه بالعين فحصاً شاملا ، ثم جس نبضه ، وتقدير حرارة جسمه ، وتحليل إفرازاته . كما كانوا يهتمون اهتماما كبيرا بسير المرض وملاحظة أطواره ليصلوا إلى تشخيصه بناء على هذه الاعتبارات كلها ، ووصف العلاج اللازم له .

وقد استعمل المصريون لعلاج الأمراض طرقاً متعددة ، كالجراحة والكى والتدليك والعقاقير ، وقد ذكرت الآثار منها نحو خمسمائة نوع ، ومنها المواد المعدنية كالذهب والفضة والفيروز وصدأ النحاس وأملاح الحديد وسلفات الزئبق والبوتاس والصودا . ومنها المواد النباتية كالخردل والخشخاش والأبسنت والأيسون والنعناع واللوز والفستق والزعفران . ومنها المواد الحيوانية كالعسل واللبن والزبد والكبد ، وغير ذلك .

ويتصل بالطب لدى قدماء المصريين عملية التحنيط ، ولو أنها كانت أقرب لديهم إلى الطقس الدينى منها إلى عمل الطبيب ، إذ كانوا يسمون المكان الذى تجرى فيه « دار الإله الطاهرة » ، وكان إجراؤها يستمر سبعين يوما لا يفتأ الكهنة أثناءها يرددون الصلوات ويشرفون على ما تقتضيه من مراسم وطقوس . بيد أنها من الناحية الطبية كانت عملية دقيقة معقدة ، وتحتاج إلى قدر كبير من المهارة والصبر ، وكانوا

يستخدمون فى ممارستها عددا كبيرا من المواد المعدنية والعضوية والنباتية ، ومن ثم كانت كثيرة التكاليف . ولاشك أن سر التحنيط من أروع الأسرار التى اكتشفها



« مومياء توت عنخ آمون »

قدماء المصريين ، ومن أسطع البراهين على امتيازهم وتفوقهم فى العلوم الطبية على العموم . ويكفيهم شرفاً فى هذا المجال أنهم وضعوا الأسس التى أقام عليها أبقراط ومن تلاه مبادىء الطب الحديث .

الفصل السابع

الفنون

يرجع ميلاد الفنون فى مصر إلى ميلاد المجتمع المصرى منذ بداية عصور التاريخ . وقد استمدت هذه الفنون أصولها الأولى من أزمان بعيدة لا سبيل إلى تحديدها ، وما فتئت تتطور وتزدهر حتى بلغت ذروتها فى العصور الذهبية لمصر القديمة ، حين أبدع المصريون أروع آيات العمارة والنحت والنقش والرسم والموسيقى . وقد سبقوا فى كل ذلك جميع الأمم المعاصرة لهم . وتركوا لنا منه تراثا لازال يبهر أنظار العالم، ولا زلنا نعتبره أكبر مفاخرنا ومصدر تفوقنا ومجدنا .

ونتكلم فى ثلاثة أبحاث متوالية عن بعض الفنون المصرية : فنتكلم عن العمارة ، ثم عن النحت والنقش والرسم ، ثم عن الموسيقى وما يتصل بها من فنون .

البحث الأول

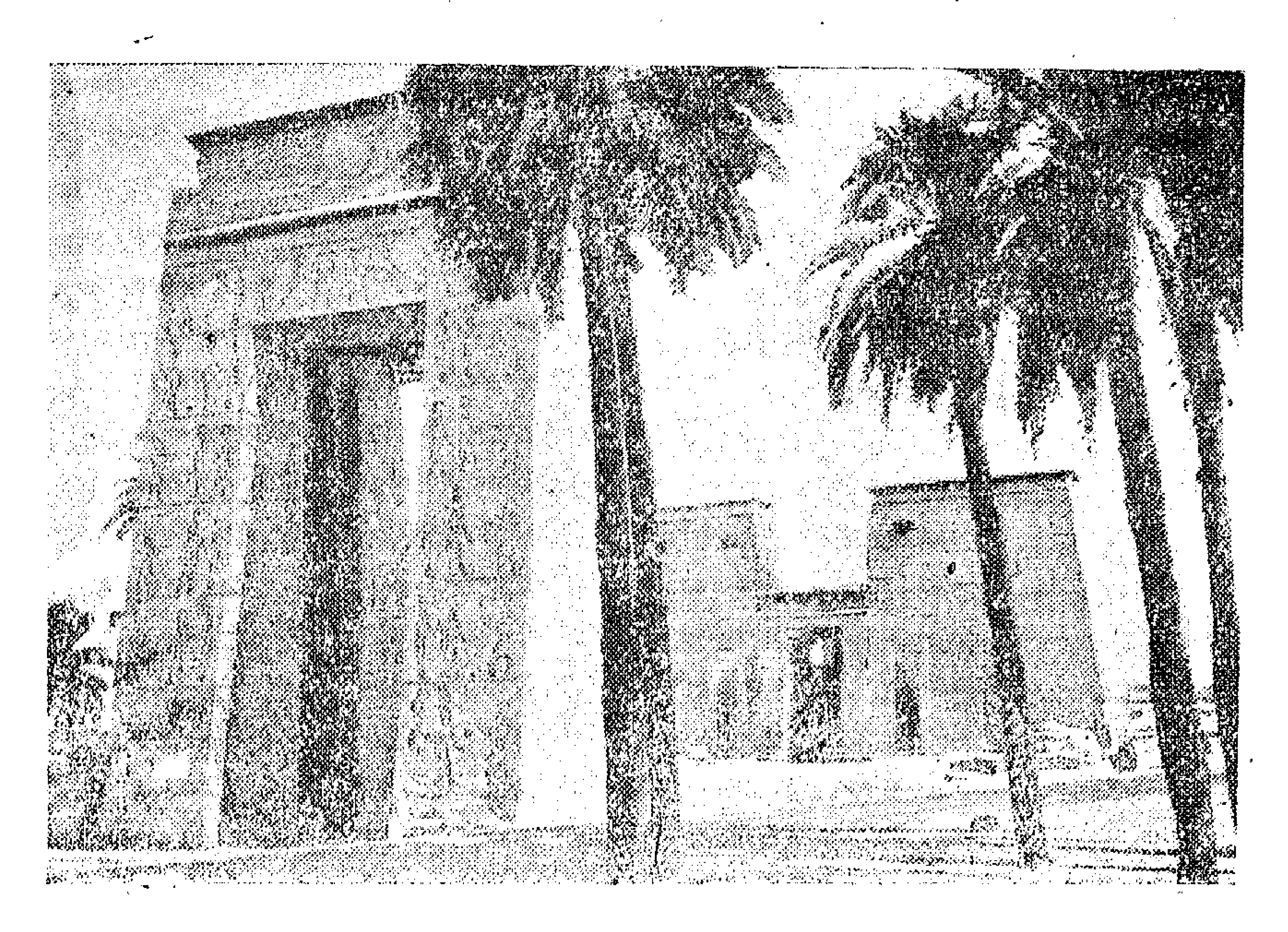
العمارة

نشأت العمارة المصرية فى بداية عهدها متسمة بالبساطة واستهداف الحاجات العملية قبل كل اعتبار . وقد استعانت فى ذلك بما توافر فى بيئتها من المواد والأدوات اللازمة لها . فبدأ المصريون فى فجر تاريخهم يستعينون لبناء بيوتهم بالغاب ونبات البردى وجذوع الأشجار . ثم لم يلبثوا أن استغلوا فى ذلك طمى النيل ، فبلغوا بذلك طوراً هو بداية الطريق إلى ارتقاء العمارة واعتبارها مجالا من مجالات الفنون . ثم اتجهوا فى أوائل عصورهم التاريخية إلى استعمال الاحجار، فاكتملت لهم بذلك العناصر اللازمة لقيام أعظم حضارة معمارية عرفها تاريخ العالم القديم .

وقد تطور المصريون بعمارتهم من طابعها العملى الخالص إلى طابع يكتسى بروح الفن . فما فتئوا يضيفون إلى بناياتهم من الزخارف والزينات ، ويضفون عليها من آيات الروعة والجمال مادفع بها إلى أعلى درجات البراعة الفنية والذوق الرفيع . وما من شك فى أن العالم الحديث مدين فى كثير من فنونه المعمارية للمصريين : فتزيين المبانى بالزهور ولا سيما زهرة اللوتس المصرية والبردى والبشنين وسعف النخيل ، ورسم قرص الشمس ذى الأجنحة على واجهات العمائر،

وإقامة الأعمدة ذات التيجان والمسلات الفارعة الطول ماهى إلا فنون مصرية، إقتبسها الأشوريون والفرس عن مصر ، ثم انتقلت عنهم إلى اليونان والرومان ، ثم إلى كل أنحاء العالم المتمدين .

وقد كان للمعتقدات الدينية لدى قدماء المصريين الأثر الأكبر فى تقدم العمارة لديهم ، وما بلغته من روعة وإبداع . فقد كان الحافز الدينى لديهم هو



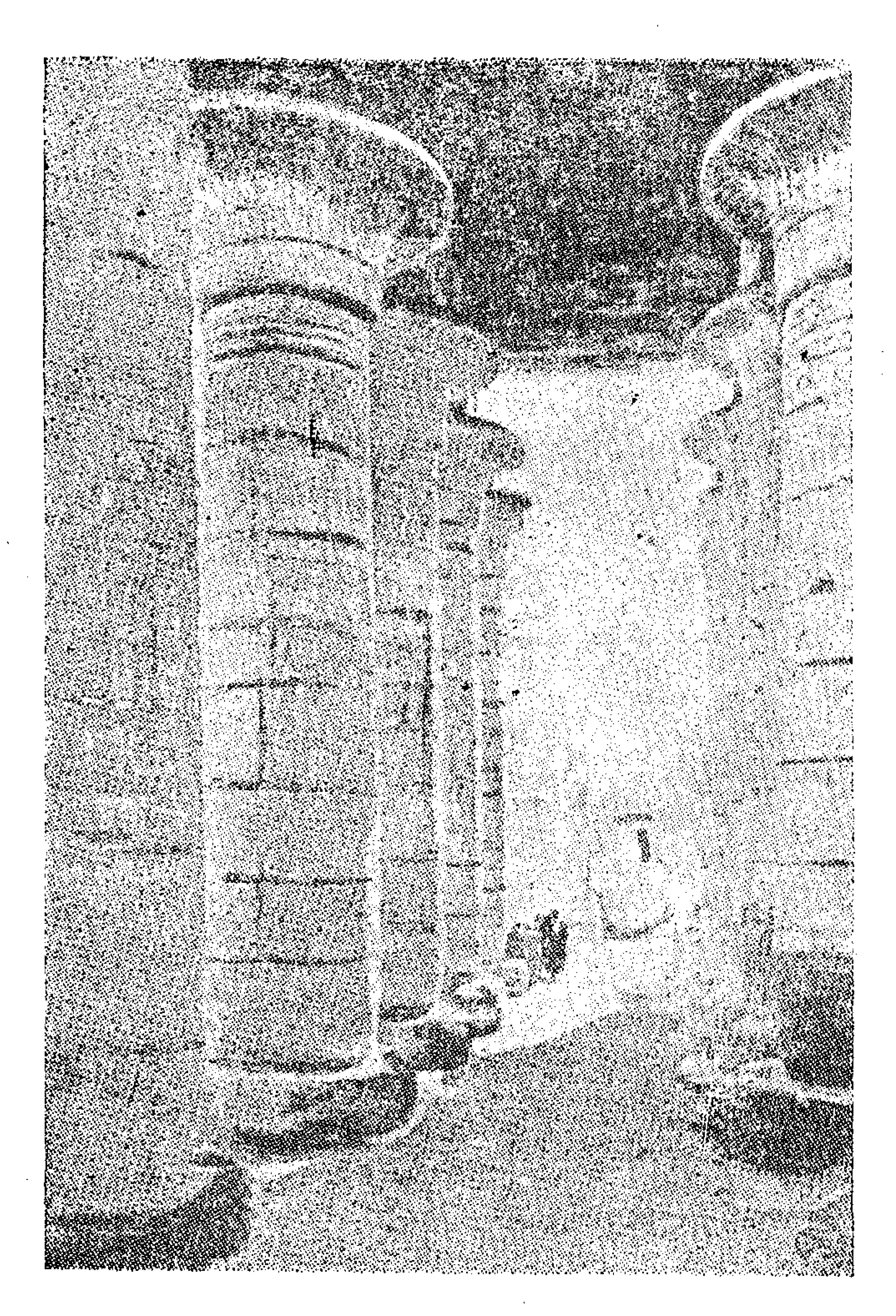
« واجهة معبد الكرنك »

أقوى الحوافز على المثابرة والابتكار . ولذا كان أعظم آثارهم على الإطلاق هو المعابد لأنهم كانوا يؤمنون بالله ، والمقابر لأنهم كانوا يؤمنون بالخلود .

وقد شيد المصريون القدماء نوعين من المعابد ، هما معابد الآلهة ، وتسمى المعابد الكبرى ، والمعابد الجنائزية ، وتسمى المعابد الصغرى .

وكانت معابد الآلهة غاية فى الضخامة والفخامة والروعة ، وآية فى الدقة والرقة والجمال . ومن أشهرها معبد الكرنك ، الذى يعتبر أكبر معبد

على وجه الأرض ، وقد اشترك فى تشييده عدد كبير من الفراعنة ، ويعد بهو الأعمدة الذى أقامه رمسيس الثانى ضمن مبانيه من عجائب العمارة فى كل عصور

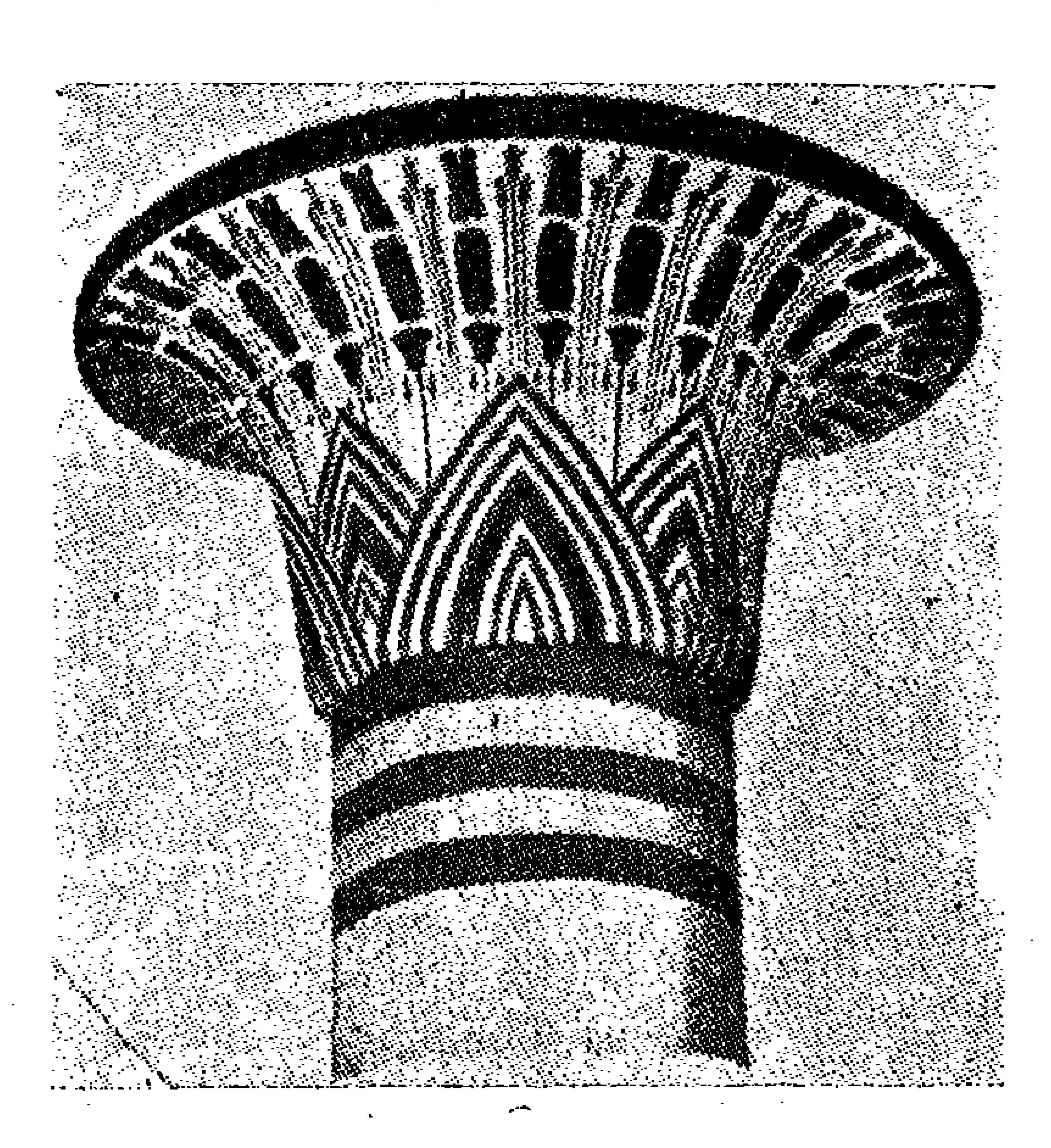


« بهو الأعمدة بمعبد الكرنك »

التاريخ . وقد ارتفع سقفه على عدد عظيم من الأعمدة يبلغ محيط الواحد منها أكثر من عشرة أمتار . كما أن من أشهر معابد الآلهة معبد الأقصر الذى يعتبر كذلك من أجمل آثار الفن المعمارى ، بنقوشه الدقيقة وأعمدته الرشيقة وتصميمه

البديع . وذلك غير عدد لايحصى من معابد الآلهة التى كان قدماء المصريين يقيمونها فى كل بقعة من بقاع واديهم ، وكل قطر من الأقطار التى دانت لهم . وكانت كلها آيات ناطقة ببدائع العمارة وروائع الفن .

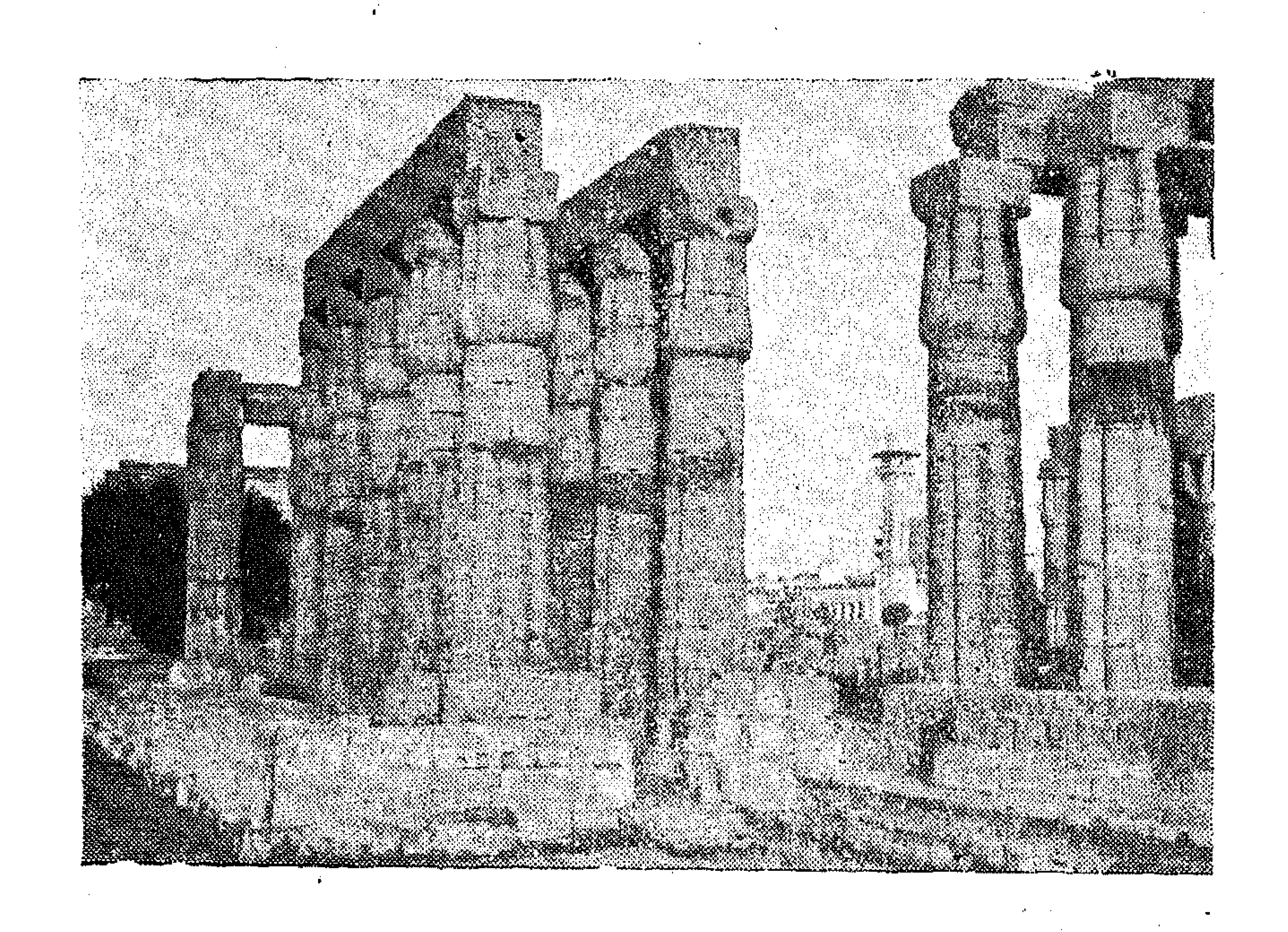
أما المعابد الجنائزية فكان قدماء المصريين يقيمونها لأداء طقوس الجنازة والدفن لفراعنتهم . ومن أقدم هذا النوع من المعابد ماتم بناؤه فى عصر بناء



« زخارف أحد أعمدة الكرنك »

الأهرامات . وقد كان من عادة الفراعنة فى ذلك العصر أن يلحقوا بكل هرم يشيدونه معبدين أحدهما يقيمونه بالقرب من النيل ، ولذا كانوا يسمونه معبد الوادى ، وكانوا يبيحون للشعب زيارته ، والآخر يقيمونه فى الجهة الشرقية من الهرم ، ولذا كانوا يسمونه المعبد الشرقى . وكانوا يخصصونه للكهنة وحدهم . ومن أشهر المعابد الجنائزية معبد الملكة حتشبسوت بالدير البحرى ، وقد أقامته على عدة درجات متفاوتة الإرتفاع ، ويدل تصميمه على براعة فائقة وذوق جميل .

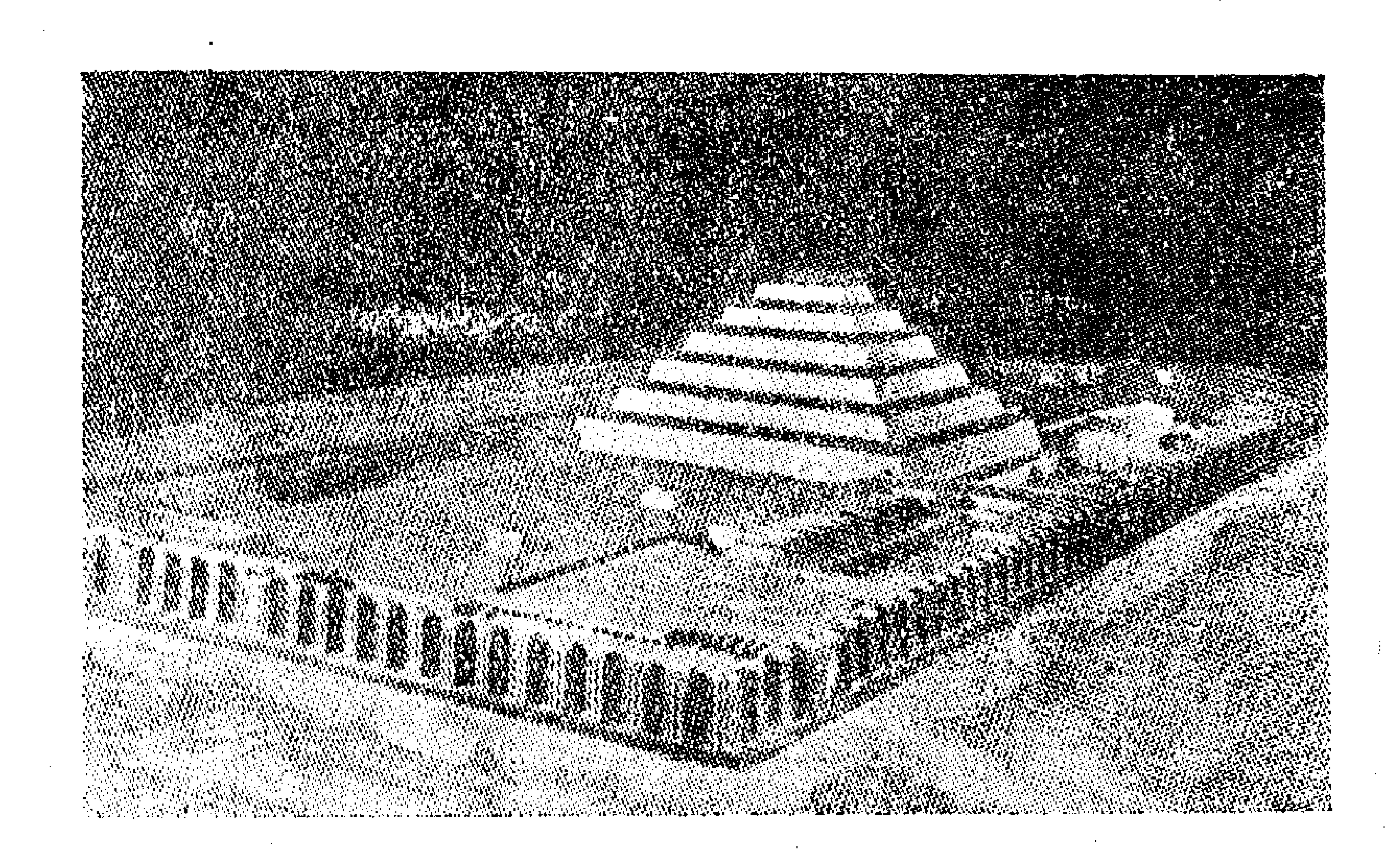
وقد دفعت عقيدة الخلود قدماء المصريين منذ أقدم العصور إلى العناية بدفن موتاهم وبناء المقابر الكفيلة بحفظ أجسادهم وحمايتها من الفناء . وكانت مقابرهم فى بداية الأمر صغيرة الحجم بسيطة التصميم . بيد أنها ما فتئت تتطور بتطور الفكر والفن حتى بلغت ذروة جلالها وجمالها فى بناء الأهرامات التى أقامها الفراعنة لتثوى فيها أجسادهم بعد الموت، وتضمن لهم الخلود . وتعد الأهرامات



« أعمدة معبد الأقصر »

التى تنتشر فى الصحراء الواقعة غرب النيل مابين الجيزة والفيوم أعظم المقابر التى بناها الملوك قاطبة وأروع ماخلفته مصر القديمة من آثار . وقد كان الملك زوسر أول من ابتدع الطراز الهرمى للمقابر ، إذ بنى مقبرته على شكل هرم مدرج فى سقارة يتكون من ست طبقات ، يرتفع بعضها فوق البعض الآخر ، متدرجاً فى الحجم والمساحة من الكبير إلى الصغير . ويبلغ ارتفاع طبقاته جميعاً

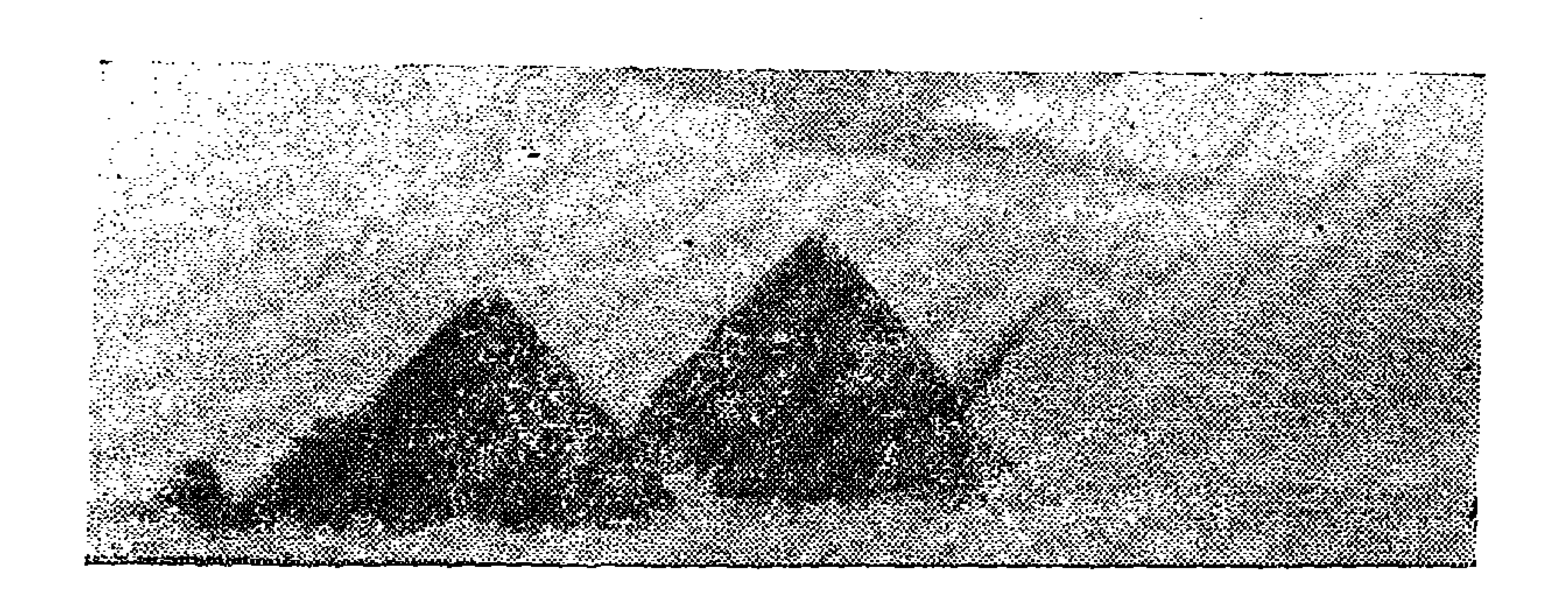
قرابة ستين مترا . ويوجد بداخله عدد كبير من الممرات والحجرات التى اكتست جدرانها بطبقة من القيشانى . ويعد الهرم الأكبر الذى بناه الملك خوفو بالجيزة أروع مثل على قدرة المصريين الفائقة فى ميادين الهندسة والعمارة والإدارة ، وكل ما تطلبه تنفيذ هذا العمل الجبار الذى يشبه المعجزات من علوم وفنون ومواهب ومقدرات . وتبلغ مساحة هذا الهرم عند قاعدته ثلاثة عشر فداناً . وكان ارتفاعه عند بنائه ما يقرب من مائة وخمسين متراً ، وقد استغرق تشييده



« هرم زوسر المدرج بسقارة والمبانى التى كانت ملحقة به »

عشرين عاماً ، واحتاج إلى مائة ألف عامل . وكان عدد الأحجار التى استخدمت فى بنائه مليونين وثلاثمائة ألف حجر ، يزن الواحد منها طنين ونصف طن . وكان سطحه مكسواً بطبقة من الأحجار البيضاء الناعمة الملمس . أما داخله فيزخر بالسراديب الخفية والممرات الضيقة والحجرات المخصصة لدفن الملك والملكة وما يصاحبهما من متاع أو أتباع . وقد بنى الملك خفرع فى الجنوب الغربى من هرم أبيه الملك خوفو هرماً آخر يشبهه وإن كان أقل منه حجماً . ولا يزال الجزء الأعلى من سطحه مكسواً بالحجر الأبيض ، كما لا تزال قاعدته

مكسوة بالجرانيت الأحمر . ثم جاء بعد خفرع إبنه منقرع ، فبنى هرماً ثالثاً بجوار هرمى أبيه وجده ، وهو يشبههما ، ولكنه أصغر منهما . وقد بقيت هذه



« أهرامات الجيزة »

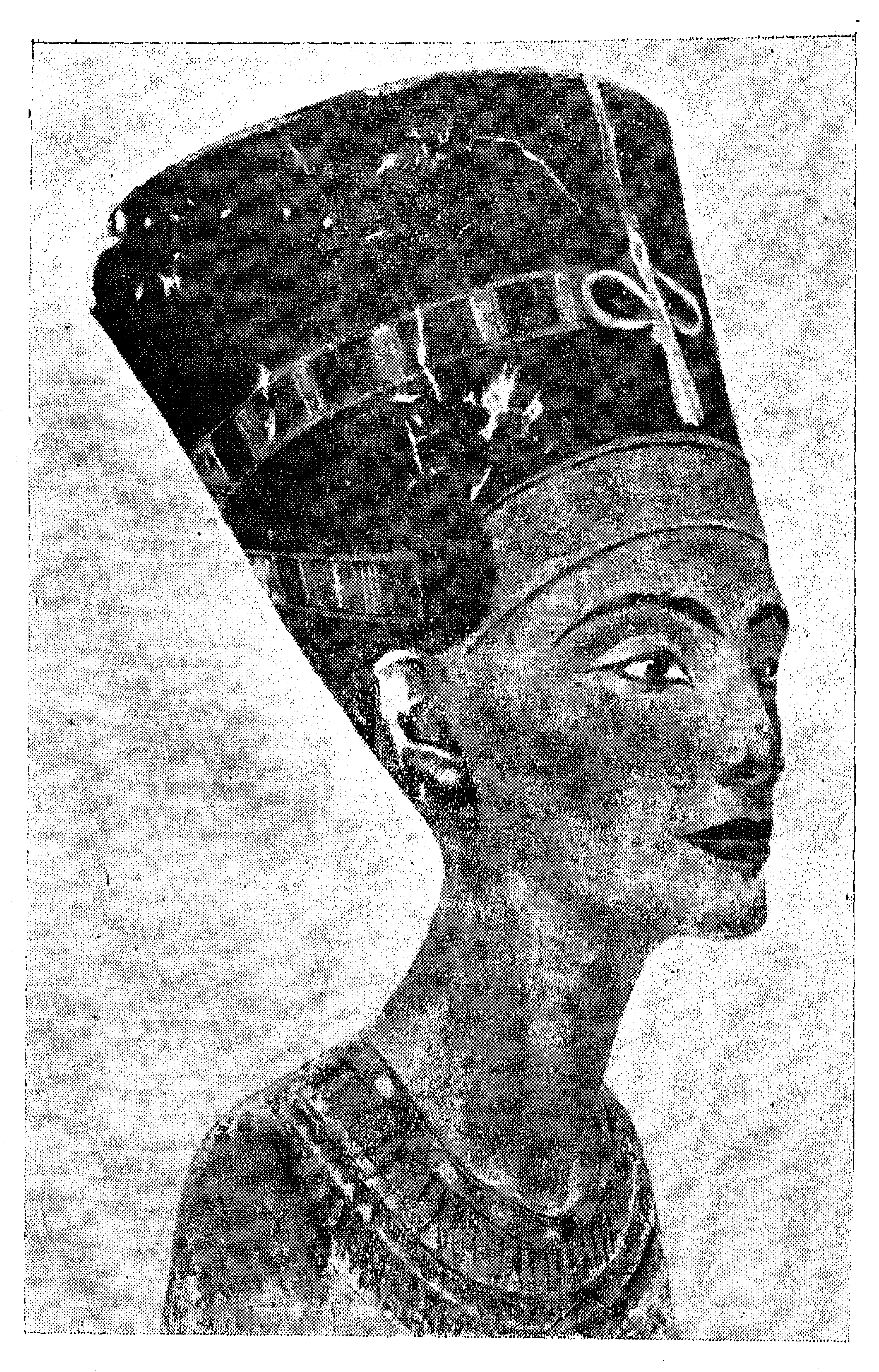
الأهرامات الثلاثة قائمة فى مكانها طوال تاريخ مصر القديمة حتى أصبحت بعد آلاف السنين رمزاً لمصر الحديثة وفخراً لها .

البحث الثانى

النحت والنقش والرسم

عرف المصريون فنون النحت والنقش والرسم قبل بداية العصور التاريخية بأزمان بعيدة . وقد بقيت لنا منذ العهد الذى كان المصريون يعيشون فيه فوق الهضبة قبل نزولهم إلى ضفاف النيل طائفة من الرسوم على صخور التلال وجوانب الوديان ، تمثل بعض الحيوانات الأليفة فى لحظات أمنها أو خوفها ، أو سكونها أو حركتها ، وقد حفرها بعض ذوى المواهب على السطوح الصلبة ، فكانت دليلا رائعاً على ما كانوا يتمتعون به فى تلك العهود السحيقة من دقة الملاحظة وبراعة التعبير وتطويع الخطوط المرنة لتجسيم خصائص الأحياء فى بيئتهم . كما كانت دليلا ساطعاً على بلوغهم مرحلة فى الحضارة ارتفعوا فيها عن مستوى الضرورات المادية إلى المعنويات والأفكار المجردة .

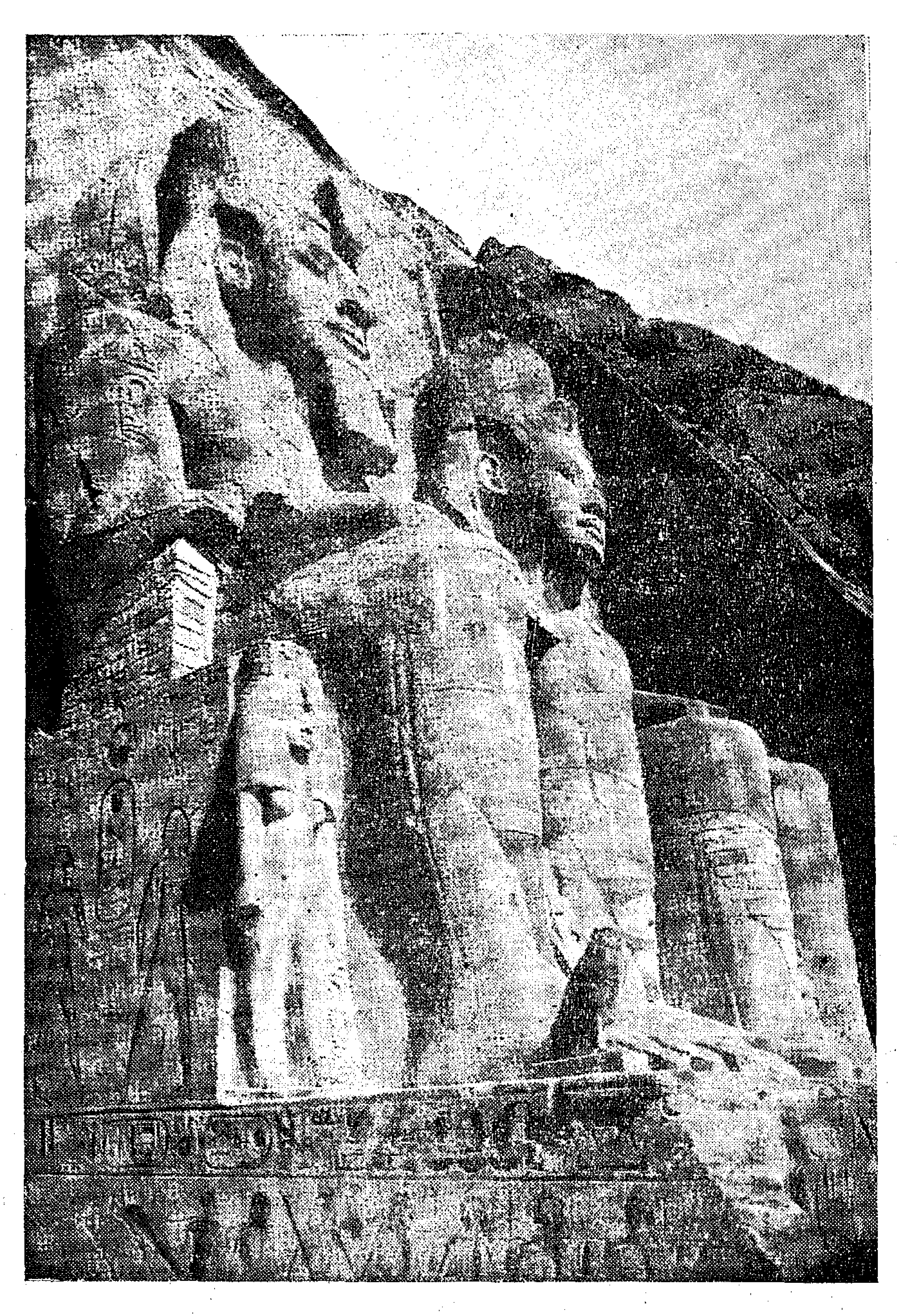
حتى إذا استقر المصريون فى وادى النهر ، قبل فجر التاريخ المصرى بآلاف السنين ، وتوافرت لهم أسباب الأمن والدعة ، وعوامل الراحة والرفاهية ، أخذ الفن يحتل مكاناً مرموقاً فى حياتهم ، فبدأوا يعنون بتصوير بيئتهم الجديدة ويتفننون فى تزيين مقتنياتهم وترويقها ، وقد انبثق ينبوع الإحساس بالجمال فى نفوسهم ، وارتقى الذوق الفنى لديهم بدرجة تدعو إلى الدهشة . فراحوا — قبل الميلاد بخمسة آلاف عام — يزخرفون آنيتهم بخطوط هندسية متناسقة تضفى عليها كثيراً من الرونق والجمال . ثم بدأوا يستخدمون فى زخارفهم أشكال النجوم



« تمثال ملون للملكة نفرتيتى »

وأوراق الشجر وسعف النخيل ، والأسماك والتماسيح وأفراس النهر والغزلان والوعول، والمراكب والقوارب وهى تسرى فى النيل. كما بدأوا يرسمون أفراداً من الناس ولا سيما الراقصين والراقصات ورعاة الأغنام ، فى دقة عجيبة وتنسيق جميل . ثم لم يلبثوا أن استخدموا الرسم كوسيلة لتسجيل أفكارهم وأخبارهم، قبل أن يتوصلوا إلى الكتابة بزمن بعيد . وقد صوروا حروبهم وانتصاراتهم ومواكب صيدهم برموز تدل على ذوق مرهف وخيال خصيب وما أكثر مانجد بين آثار ذلك العهد من تماثيل بديعة مصنوعة من الحجر أو العاج أو المينا أو الأردواز ، ومن رسوم دقيقة منقوشة على الخناجر الصوانية ومقابضها العاجية أوعلى رؤوس الدبابيس ، أو على الآنية الخزفية أو اللوحات الحجرية. فضلا عن آيات براعتهم التى تتجلى فى صياغة الحلى والخواتم والأساور والأمشاط والأقراط المصنوعة من العاج أو العظم أو العقيق أو البللور . وقد بلغ من براعتهم فى هذا المضمار أن أحد فنانيهم نقش مائتين وثمانية عشرة صورة دقيقة لحيوانات مختلفة فى صفوف أفقية على مقبض خنجر لايتعدى عرضه سنتيمترات قليلة . وما فتئت تماثيلهم ونقوشهم ورسومهم تتحور وتتطور مع الزمن حتى إذا بزغ فجر التاريخ المصرى كانت قد بلغت حداً من وضوح الدافع وشمول الموضوع ودقة التفاصيل مايدعو إلى العجب والإعجاب .

ومن ثم حين بدأت العصور التاريخية فى مصر خلال القرن الثانى والثلاثين قبل الميلاد، كان لدى المصريين تراث من الخبرة الفنية والتقدير للفن. وقد تطوروا بذلك التراث تطوراً عظيما ، ودفعوه دفعات سريعة نحو التقدم والارتقاء ، حتى خلعوا عليه الطابع الذى تميز به بين فنون العالم القديم كله . وكانت عقائدهم الدينية — ولا سيما الإيمان بالله وخلود النفس — حافزاً لهم للاهتمام بتشييد المعابد والمقابر وتزيينها بكل روائع الفنون . وقد حرصوا على تزويدها بعدد



« تماثيل رمسيس المنحوتة فى الصخر ، وهى من أضخم التماثيل وأروعها »

عظيم من التماثيل وملأوا جدرانها بالنقوش والرسوم التى تتفق مع عقائدهم ، وأسرفوا فى تجميل ما كانوا يضعونه فيها من الرياش وأدوات الزينة والترف . ومن ثم اتسعت مجالات الابتكار والإبداع أمام الفنانين وأرباب الصناعات الدقيقة . ولم يفتأ يزداد إنتاجهم وتزداد براعتهم فى المجالات المختلفة عصراً بعد عصر .



« تمثال أبى الهول »

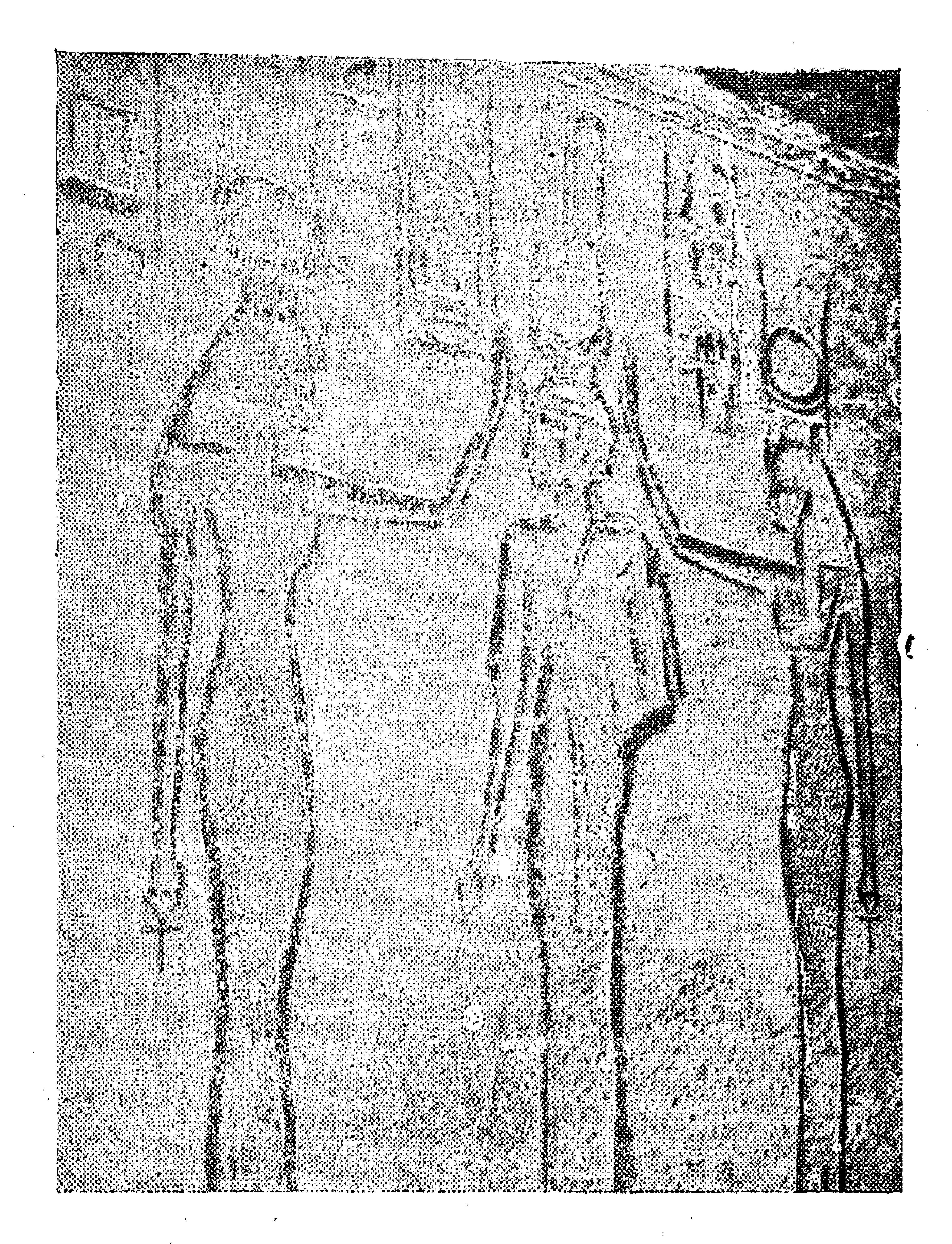
وقد استكمل الفن المصرى القديم أشكاله وموضوعاته منذ القرن السابع والعشرين قبل الميلاد ، واكتسى منذ ذلك الحين بطابع متميز لا تكاد العين تخطئه فى مجال المقارنة بينه وبين أى فن آخر من الفنون القديمة أو الحديثة . وظل بكل آثاره الرائعة بمثابة موسوعة حضارية عظيمة سجلت كل نواحى الحياة لدى قدماء المصريين ، وخلدت كل عقائدهم وتقاليدهم واتجاهات مشاعرهم وطرائق تفكيرهم .

وتعتبر التماثيل التى بقيت لنا من آثار قدماء المصريين أصدق شاهد على ما كانوا يتصفون به من مهارة فنية عظيمة وقدرة فائقة على نحت أشد الصخور صلابة . وقد امتاز عدد كبير من هذه التماثيل بالضخامة البالغة التى تملأ النفس دهشة ورهبة . ومن أروع الأمثلة لذلك تمثال أبى الهول القائم فى الجيزة ، بالقرب من هرم خفرع ، وهو على هيئة أسد رابض ورأسه رأس إنسان ، رمزاً إلى اجتماع القوة والعقل معا ، ويبلغ ارتفاعه واحداً وعشرين متراً وطوله ستة وأربعين متراً ، وهو منحوت فى قطعة واحدة من الحجر ، ويعتبر من أروع الآثار فى كل العصور .

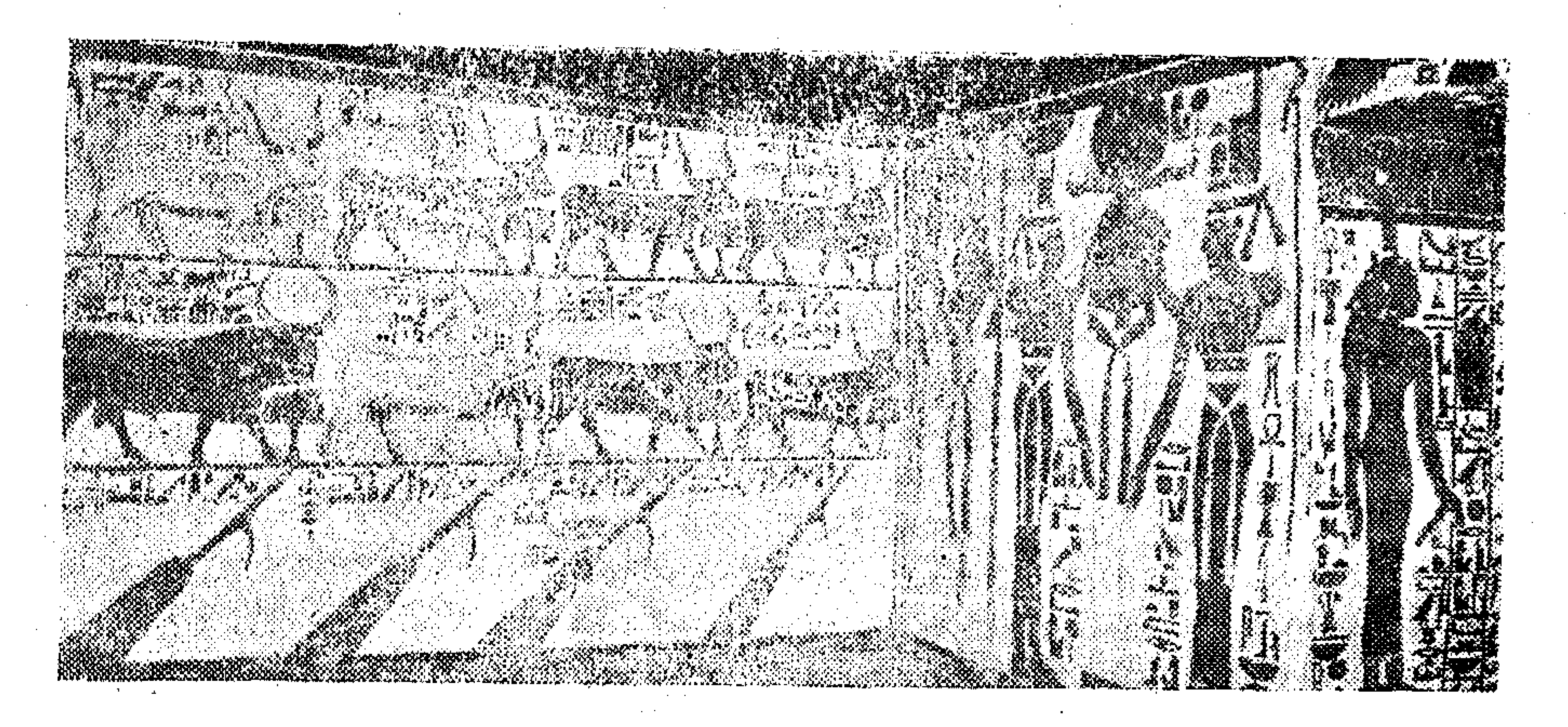
وقد برع المصريون كذلك فى نحت المسلات الشاهقة الارتفاع ، وكانوا يكسون قممها بصفائح من مخلوط الذهب والفضة ، حتى إذا أشرقت الشمس وانعكست أشعتها عليها ، كان لها بريق يخطف الأبصار .

كما برع المصريون فى النقش والرسم : فكانوا يملأون جدران معابدهم بالنقوش البارزة والغائرة ، وكانوا يزينون جدران قصورهم وقبورهم بالصور الملونة وغير الملونة . وقد بلغوا فى كل ذلك حداً من الإتقان والبراعة والروعة ما لا يزال موضعاً لإعجاب العالم كله .

نماذج من فنون النحت والنقش والرسم لدى قدماء المصريين



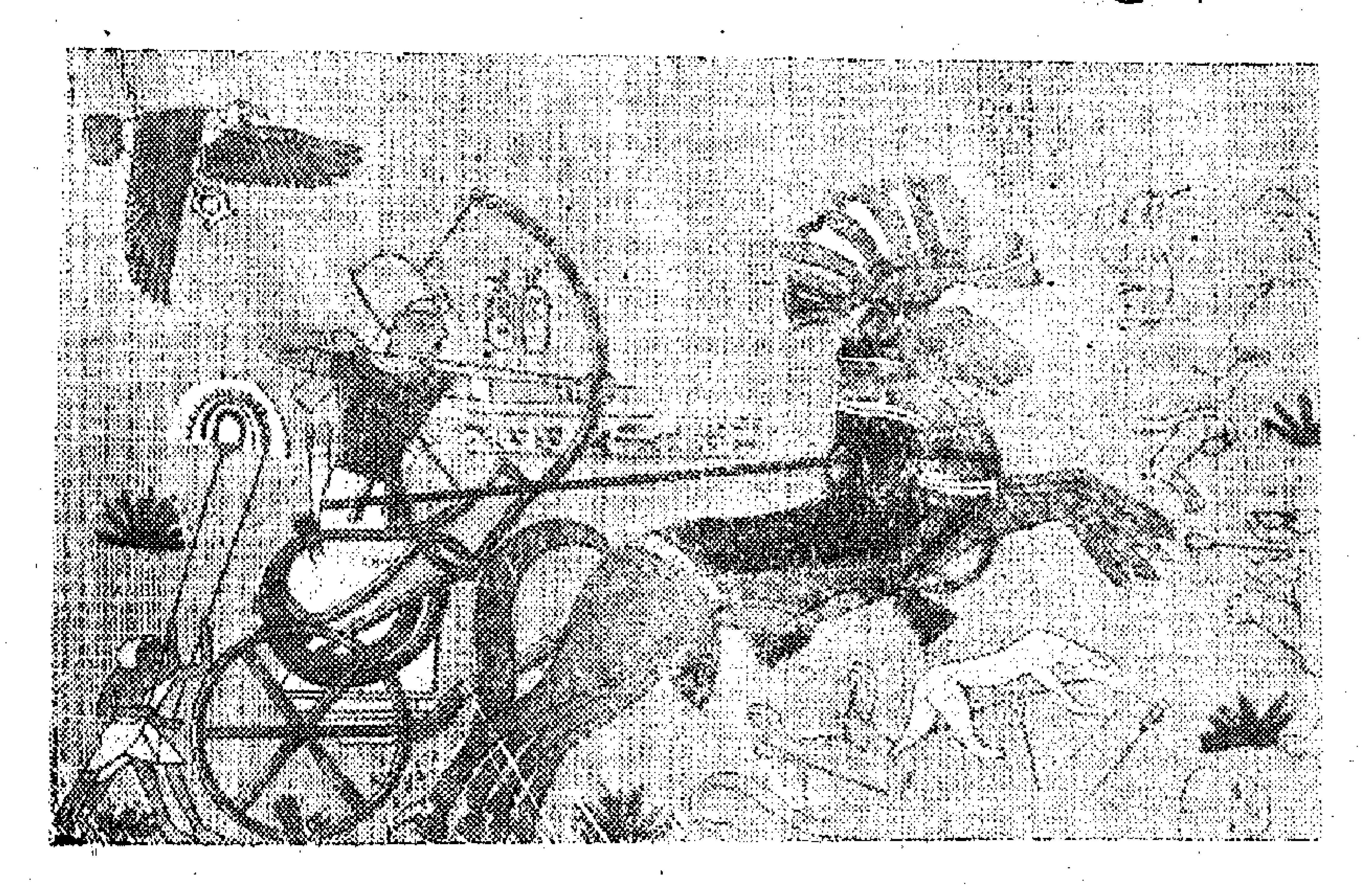
« حفر على جدران معبد أبي سمبل يمثل تتويج الملكة نفرتاري »



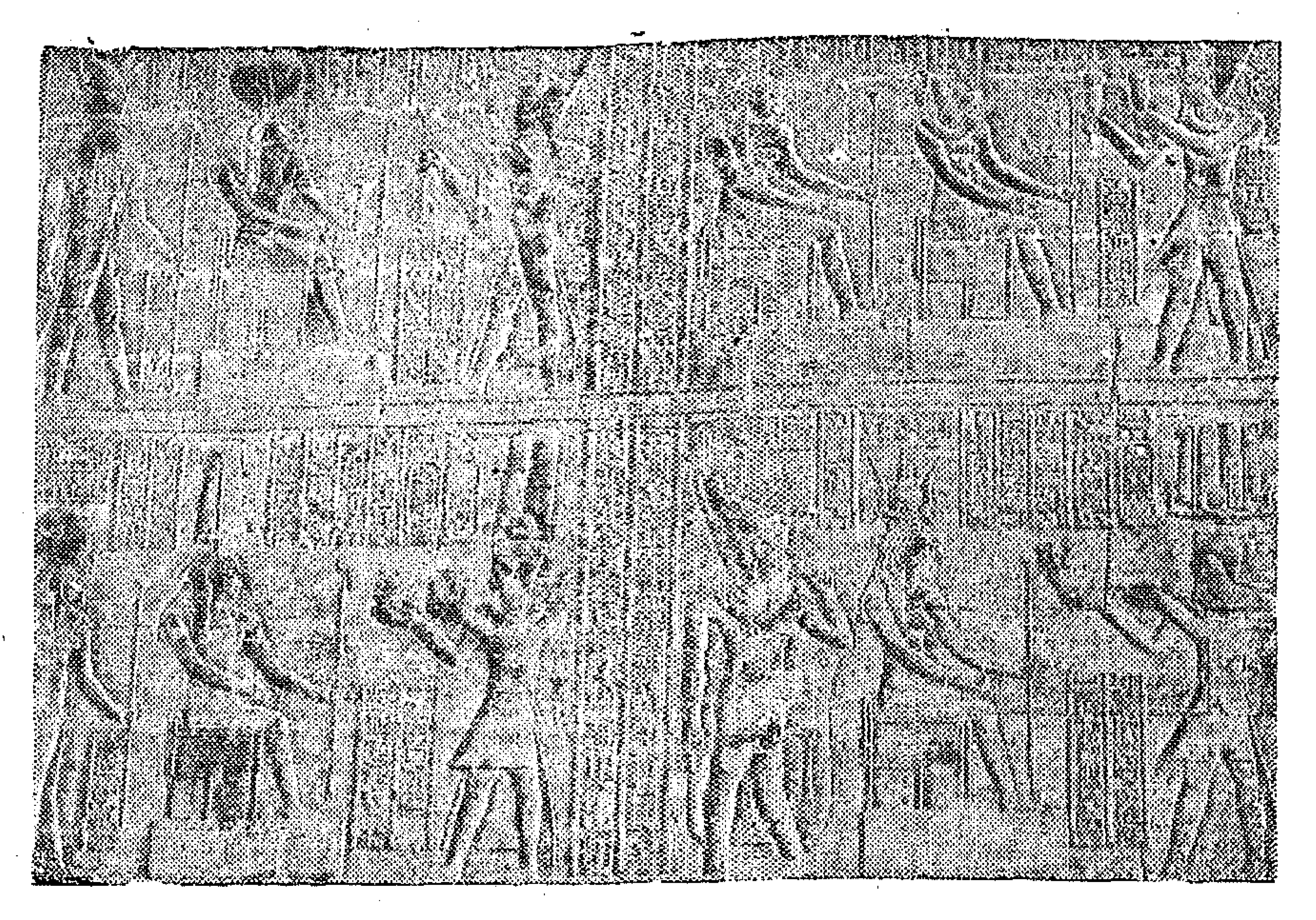
« حفر بارز ملون بمقبرة نفرتاري »



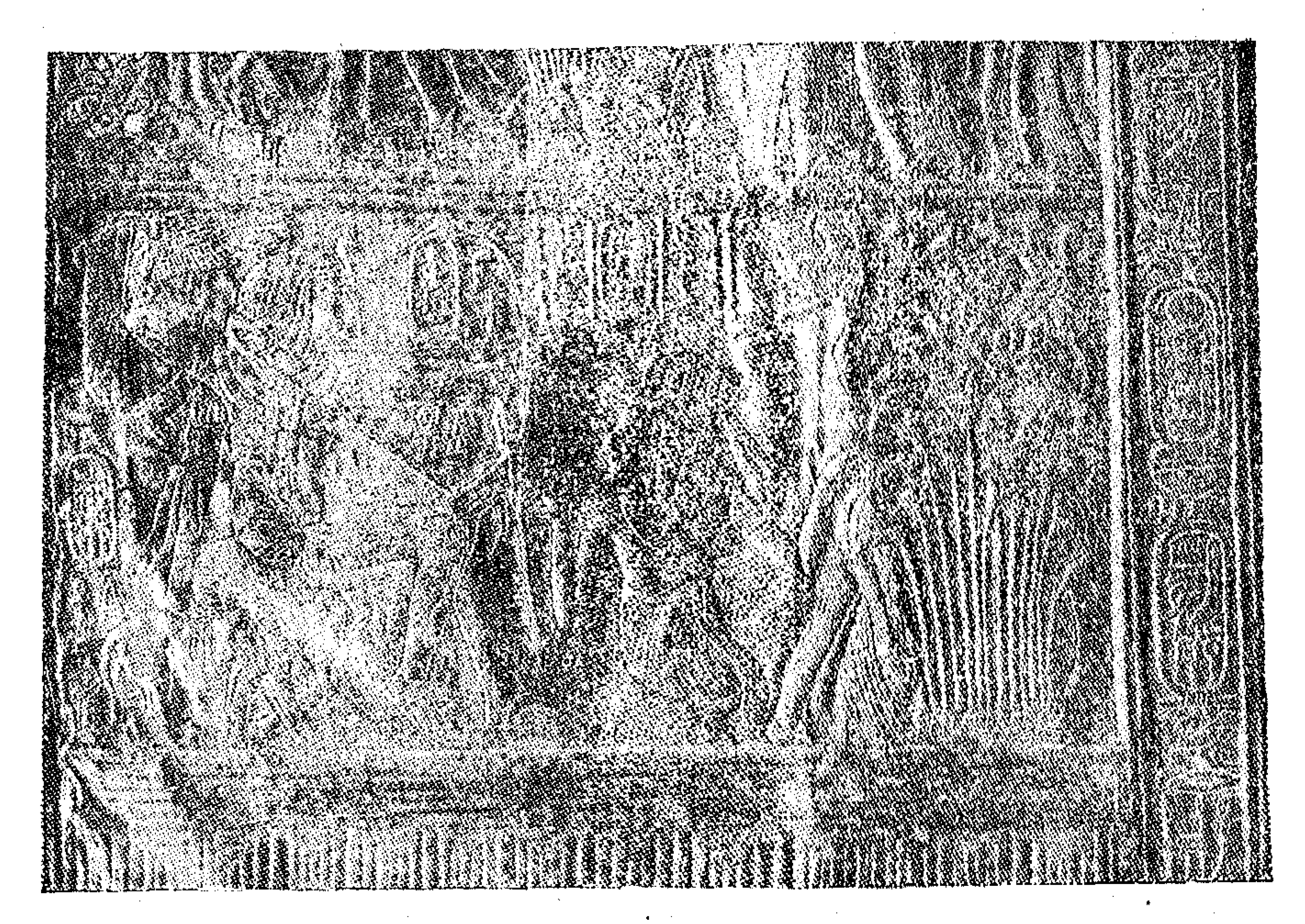
« رسم رائع على ظهر عرش توت عنخ آمون ، يمثل الملك والملكة »



« رسم يمثل رمسيس فى عربته الحربية »



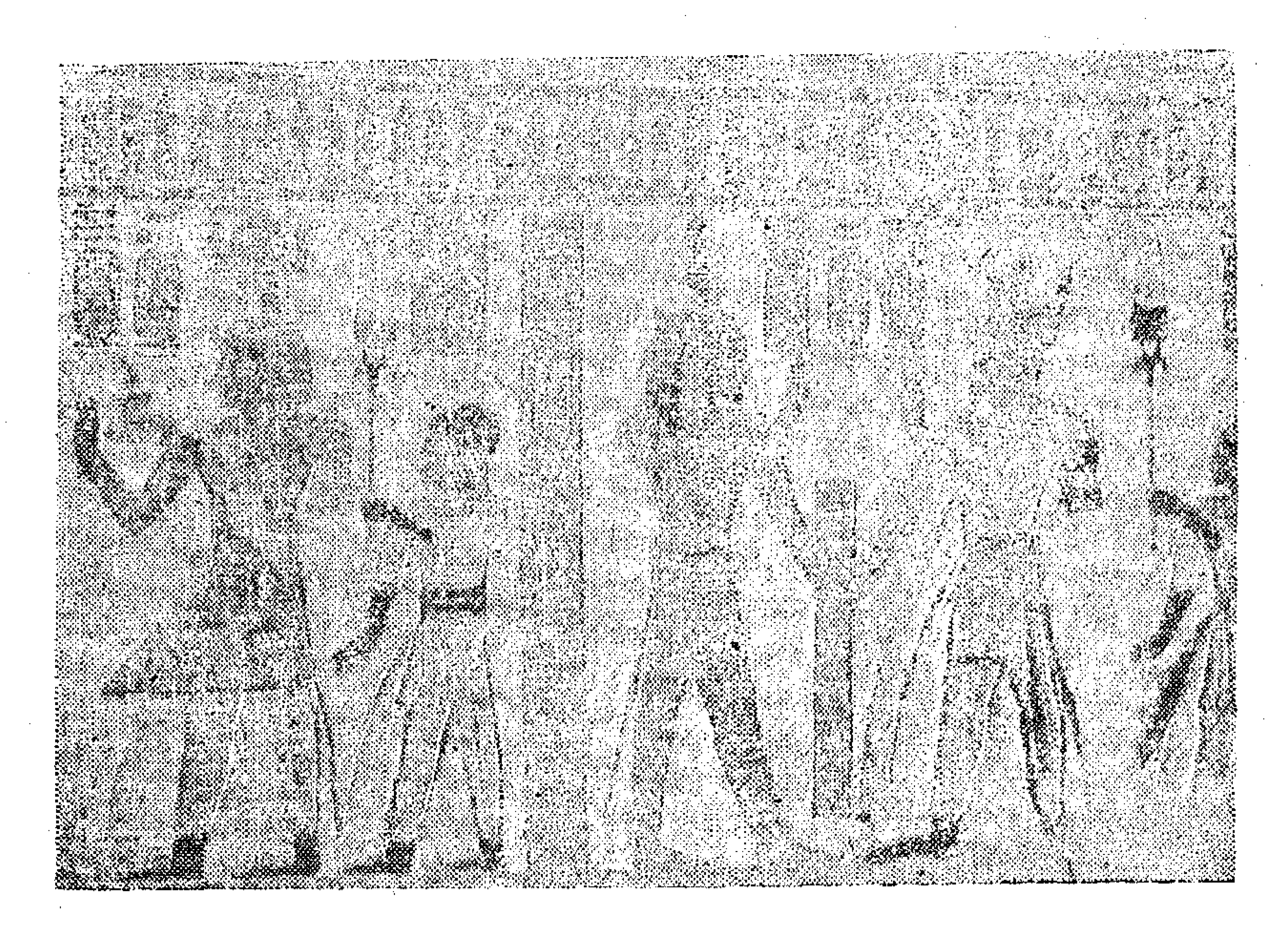
« نقوش بارزة على جدران معبد خنوم بإسنا »



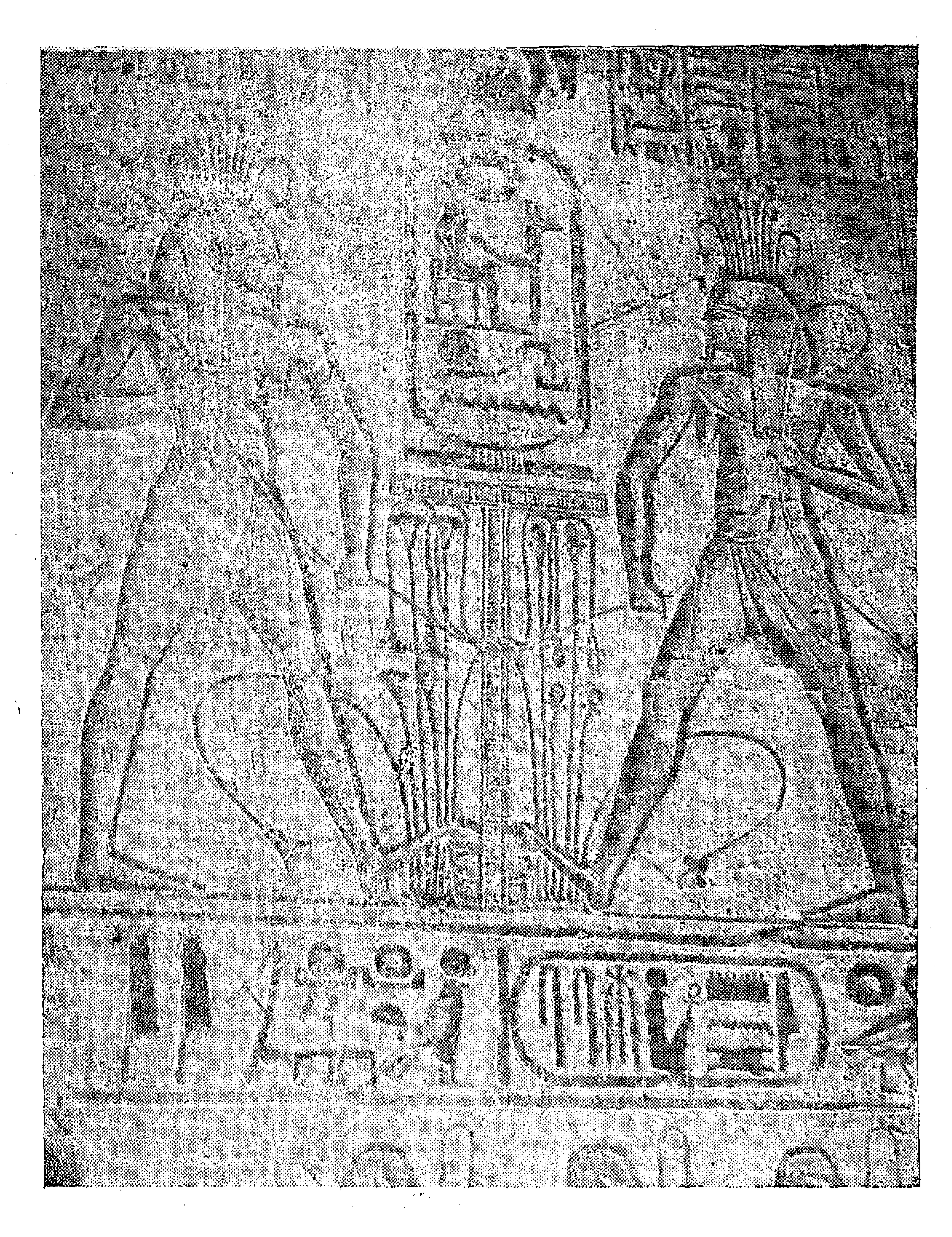
« حفر يمثل الملك جالساً يرمى الوحوش بسهامه والملكة تناوله السهام »



« رسم ملون على جدران مقبرة سيتى الأول »



« حفر بارز بمقبرة آمون بالأقصر »



« حفر على الجدران يمثل توحيد مصر »

« بمعبد أبي سنبل »

البحث الثالث

الموسيقى

كان قدماء المصريين يشغفون بالموسيقى ، ويعرفون من آلاتها أنواعا عديدة ، ويعزفون عليها أبدع الألحان . ولم تكن الموسيقى لديهم نوعا من التسلية أو المتعة فحسب ، وإنما كانت ضرورة من الضرورات فى كل مجالات أنواع حياتهم : فكانت عنصراً لازماً فى معابدهم وطقوس عبادتهم ، وفى أعيادهم ومآتمهم ، وفى أفراحهم وأحزانهم على السواء . كما كان لها أهمية كبرى فى الحروب وميادين القتال ، حيث كانوا ينفخون فى الأبواق أو يقرعون الطبول تنظيما لسير الجنود أو تشجيعاً لهم أو إرهاباً وترويعاً للأعداء .

وكانت الآلات الموسيقية التى يستخدمها قدماء المصريين فى بادىء الأمر مصرية صميمة . بيد أنها بعد أن ازداد اتصال المصريين بالشعوب الآسيوية المجاورة لم تلبث أن تطورت تطوراً عظيما ، كما أضيفت إليها بعض الآلات الأجنبية لم تكن معروفة من قبل فى مصر .

وقد تميزت الموسيقى المصرية بتقدمها ومرونتها وقابليتها للتجدد المستمر على هدى اتصالها بالفنون الموسيقية المختلفة فى الأمم الأخرى . ولكنها ظلت مع

ذلك محتفظة على الدوام بطابعها الخاص وذوقها الرفيع الذى أثار إعجاب الزائرين لمصر من كل عنصر وفى كل عصر .

وقد انتشرت الموسيقى المصرية فى ربوع آسيا . كما أخذ اليونان عنها مبادىء موسيقاهم ، وكان «بيتاجوراس» — وهو أول من وضع أصول النوتة والسلم الموسيقى ـ أحد الذين درسوا الموسيقى فى مصر . كما كان المصريون



« الموسيقى لدى قدماء المصريين »

الذين ينتقلون إلى البلاد الأخرى يعلمون الموسيقى والعزف على الآلات الموسيقية لمختلف الشعوب .

وكانت الموسيقى لدى قدماء المصريين يصحبها فى الغالب الغناء ، يترنمون به فى صلواتهم وابتهالاتهم ، أو يرددونه تعبيراً عن عواطفهم وانفعالاتهم ، أو يستعينون به على احتمال العناء فيما يؤدون من أعمال مختلفة كالحرث والحصاد وعصر النبيذ ورعى الأغنام ، أو يهزجون به فى الأفراح والأعياد ومواكب النصر .

كما كان يصحب الموسيقى نوع من الرقص التعبيرى البديع ، ولا سيما فى
ـابد والجنازات . وكان عبارة عن إيماءات رقيقة منسقة تنطوى على معان عميقة
ـلالات سامية صادقة . فكان بذلك نوعاً من التعبير الرائع والفن الرفيع .
ـن ثم كان يحتل مكانة كبيرة فى حياة المصريين ، وكان يلعب دوراً عظيم
لأهمية فى مجتمعهم ، لأنهم اتخذوه وسيلة لعبادة الخالق والتعبير عن ولائهم
وامتنانهم بما أنعم به عليهم فى هذه الحياة من خيرات .

الفصل الثامن

الحياة الاقتصادية

كانت الحياة الاقتصادية لمصر القديمة عاملا جوهرياً من عوامل نهضتها وحضارتها ، بل من عوامل وجودها وخلودها : فقد رأينا كيف كانت الزراعة هى السبيل الأول والأوحد لميلاد المجتمع المصرى وقيام الدولة المصرية . وسوف نرى فى كل مراحل التاريخ ، كيف كانت الزراعة كذلك هى الدعامة الكبرى لثروة البلاد ، ومن ثم لقوتها وازدهارها ، ولا سيما حين ظهرت الصناعة وانتشرت التجارة فكانتا بمثابة الركيزتين اللتين تدعمان ذلك الصرح الشامخ للحياة الاقتصادية فى مصر . وكان هذا هو الأساس الذى ارتفعت فوقه أركان الامبراطورية المصرية فى ذروة مجدها وعظمتها . كما كان هذا هو الإساس لكل ما بلغته مصر من أسباب المدنية التى بقيت على مر العصور .

لذلك نتكلم فى ثلاثة أبحاث متوالية عن الزراعة ، ثم عن الصناعة ، ثم عن التجارة ، فى مصر القديمة .

البحث الأول

الزراعة

النيل هو مصدر الحياة فى مصر ، وهو أعظم أنهار الدنيا قاطبة ، وأكثرها طولا ، وأغزرها فيضا ، وأوفرها طمياً ، فهو حين يعبر مصر يجعل منها أخصب رقعة فى الأرض ولذا كان طبيعياً أن تقوم الحياة فى مصر منذ نشأتها الأولى على الزراعة وقد عرف المصريون هذه الحقيقة فجعلوا من الزراعة حرفتهم ، واستمدوا منها حياتهم .

وقد عمل المصريون الأوائل فى جد ومثابرة على إعداد الأرض للزراعة ، وتوفير كل الوسائل المستطاعة والظروف الملائمة للانتفاع بها ، والاستمتاع بخيرها. فقاموا بتمهيد التربة وأقاموا الجسور على النهر ، وحفروا القنوات للرى والصرف ، وتضافروا على توزيع المياه فى أوقات الفيضان ، بحيث لا تنقطع فى بقعة فتموت ، ولا ترتفع فى بقعة أخرى فتغرق .

وقد أدرك المصريون بوفرة خبرتهم وكثرة مراقبتهم لكواكب السماء من جهة ، ولفيضان ماء النيل من جهة أخرى ، أن ثمة فترة زمنية لا تفتأ تبدأ وتنتهى فى موعد محدد ثم تتكرر بغير اختلاف ولا انتهاء ، فاكتشفوا بذلك التوقيت السنوى — كما سبق أن رأينا — وجعلوا أول السنة الزمنية بداية لسنتهم

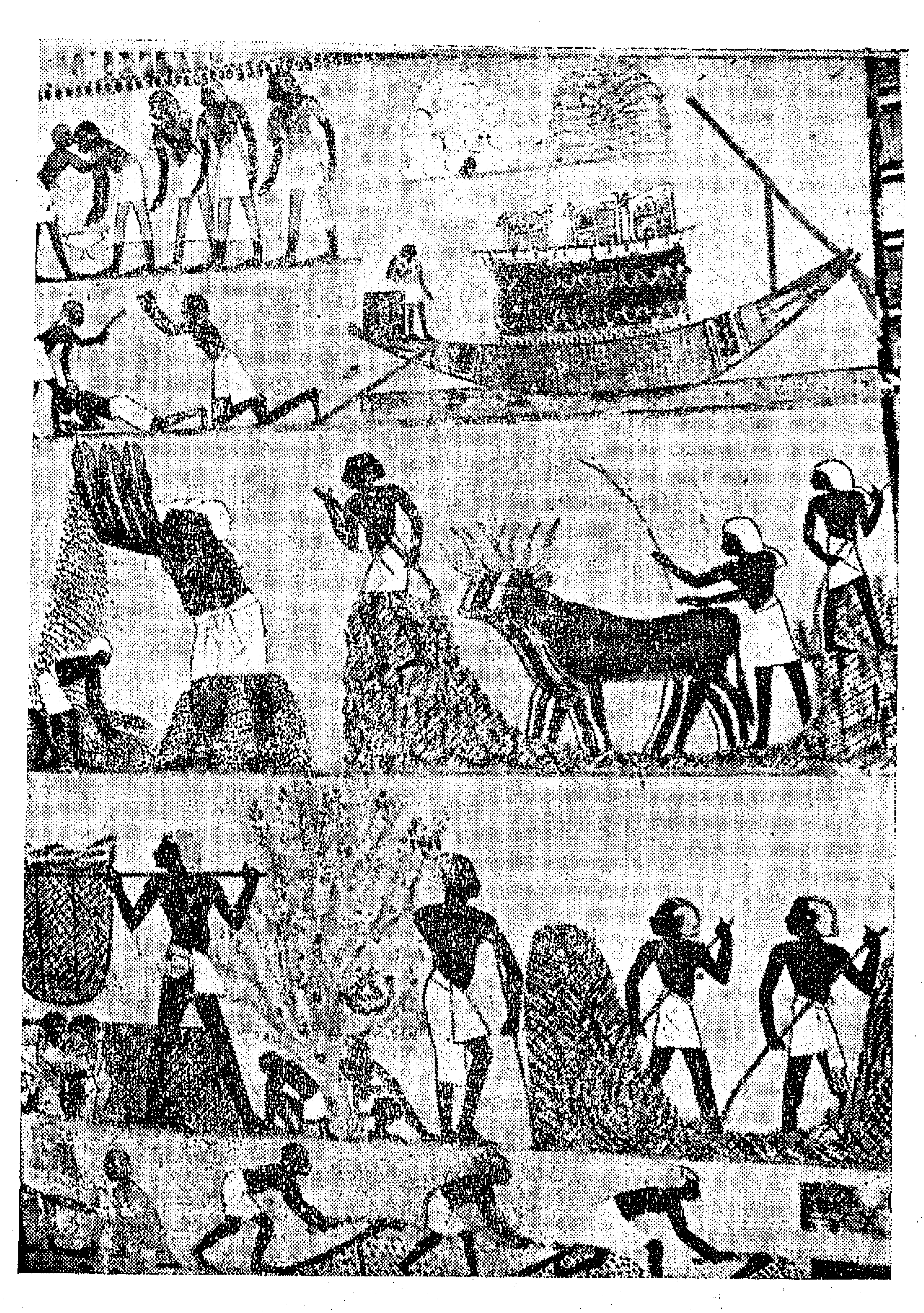
الزراعية ، ثم قسموها إلى ثلاثة فصول متتالية هى فصل الغمر ، ثم فصل البذر ، ثم فصل الحصاد . وقسموا كلا من هذه الفصول إلى أربعة أشهر وقد ظلت هذه السنة الزراعية بفصولها وشهورها هى المعمول بها طوال التاريخ المصرى ، ولازالت إلى عصرنا الحاضر هى المرجع فى الشئون الزراعية لدى المصريين جميعاً ، وهى المعروفة اليوم بالسنة القبطية . فهم لا يفتأون يؤرخون بها مواسم الزراعة ومواسم الفيضان، ويحددون على ضوئها موعد البذر وموعد الرى وموعد الحصاد .

حتى إذا تم توحيد البلاد على يد « مينا » وقيام الدولة المصرية ، كان من أول واجبات الملك العمل على تحسين وسائل الزراعة وزيادة المحصول . وكان هذا الواجب موكولا فى كل مقاطعة من مقاطعات القطر إلى حاكمها . فكان حكام المقاطعات يبذلون كل ما فى استطاعتهم من كفاءة وجهد لتوفير أكبر قدر من نتاج الأرض ، وكانوا يوزعون جانبا من ذلك النتاج على أفراد الشعب حسب استحقاق كل فرد وحاجته ، وما يتبقى بعد ذلك يرسلونه إلى مخازن الدولة فى العاصمة ، بيد أنه حين ضعف سلطان الملك فى أواخر عهد الدولة القديمة ، إنتقلت السلطة بالتدريج إلى أيدى حكام المقاطعات ، وظهر النظام الإقطاعى ، حيث كان كل حاكم يعتبر نفسه حاكماً لمقاطعته ، ويستولى على الجزء الأكبر من محصولها . ومن ثم تضاءلت موارد الملك وضعفت السلطة المركزية ، وساد الظلم والاستبداد فاضمحلت البلاد وساء حال الزراعة والمزارعين وظلت الحال على هذا المنوال قرنين من الزمان ، حتى قامت الدولة الوسطى فعملت على توحيد البلاد مرة أخرى . ولم يلبث الملوك أن استردوا سطوتهم وسلطانهم فعادوا إلى سيرتهم الأولى من العناية بالزراعة ووسائل الرى ، وكان من أكثر الملوك اهتماماً بذلك أمنمحعت الثالث ، وقد أمر بتسجيل ارتفاع النهر عند القلاع التى كان قد أنشأها أبوه سنوسرت الثالث ، كما قام فى هذا السبيل بعمل من أعظم الأعمال الهندسية فى التاريخ المصرى القديم إذ أنشأ سداً

كبيراً لتخزين الفائض من مياه النيل فى منخفض الفيوم ثم تصريفه عند الحاجة لرى مساحة كبيرة فى تلك المنطقة وقت الجفاف تبلغ سبعة وعشرين ألف فدان. وقد استطاع بذلك المشروع أن يجعل إقليم الفيوم الصحراوى من أخصب وأنضر بقاع مصر . بيد أن الدولة الوسطى لم تلبث أن تولاها الضعف ومرت البلاد بمحنة أخرى كالمحنة التى مرت بها فى أعقاب الدولة القديمة ، حتى أمكن بعد فترة من الزمان القضاء على أسباب الاضطراب وقامت الدولة الحديثة فى القرن السادس عشر قبل الميلاد ، فبذلت جهوداً جبارة لتحقيق الإصلاح الزراعى ، وتوسيع رقعة الأرض الصالحة للزراعة ، وتوفير المياه اللازمة لها . ومن ثم ازدادت موارد الدولة زيادة كبرى وأصبحت مصر بفضل ذلك ، وبفضل ارتفاع شأنها واتساع رقعتها ، إمبراطورية عظيمة ، مترامية الأطراف .

وكانت الأرض تظل مغمورة بمياه الفيضان فترة من الزمان ، حتى إذا انحسرت عنها ، بادر الفلاح المصرى إلى تهيئتها للزراعة : فكان يحرثها ، ثم ينثر البذور على سطحها ، ثم يدفنها فى داخلها ، ثم يروح بعد ذلك يتعهد النبات فى أطوار نموه المختلفة ولا يفتأ يعمل فى صبر وأناة على ملاحظته وتنقيته من الشوائب ، حتى يكتمل نموه ، ويبلغ تمام نضجه ، فيحصده ، ثم يكدسه فى الأجران ويدرسه بواسطة أقدام الثيران ، وينقيه بالمذراة ، ثم ينقله آخر الأمر إلى المخازن. فكان الفلاح المصرى فى تلك العصور البعيدة يتبع نفس الخطوات والمراحل التى لا زال فلاحنا يتبعها إلى اليوم ، وكان يستخدم ذات الآلات والأدوات ويقتنى ذات الطيور والحيوانات التى لا زلنا إلى اليوم نراها فى ريف مصر .

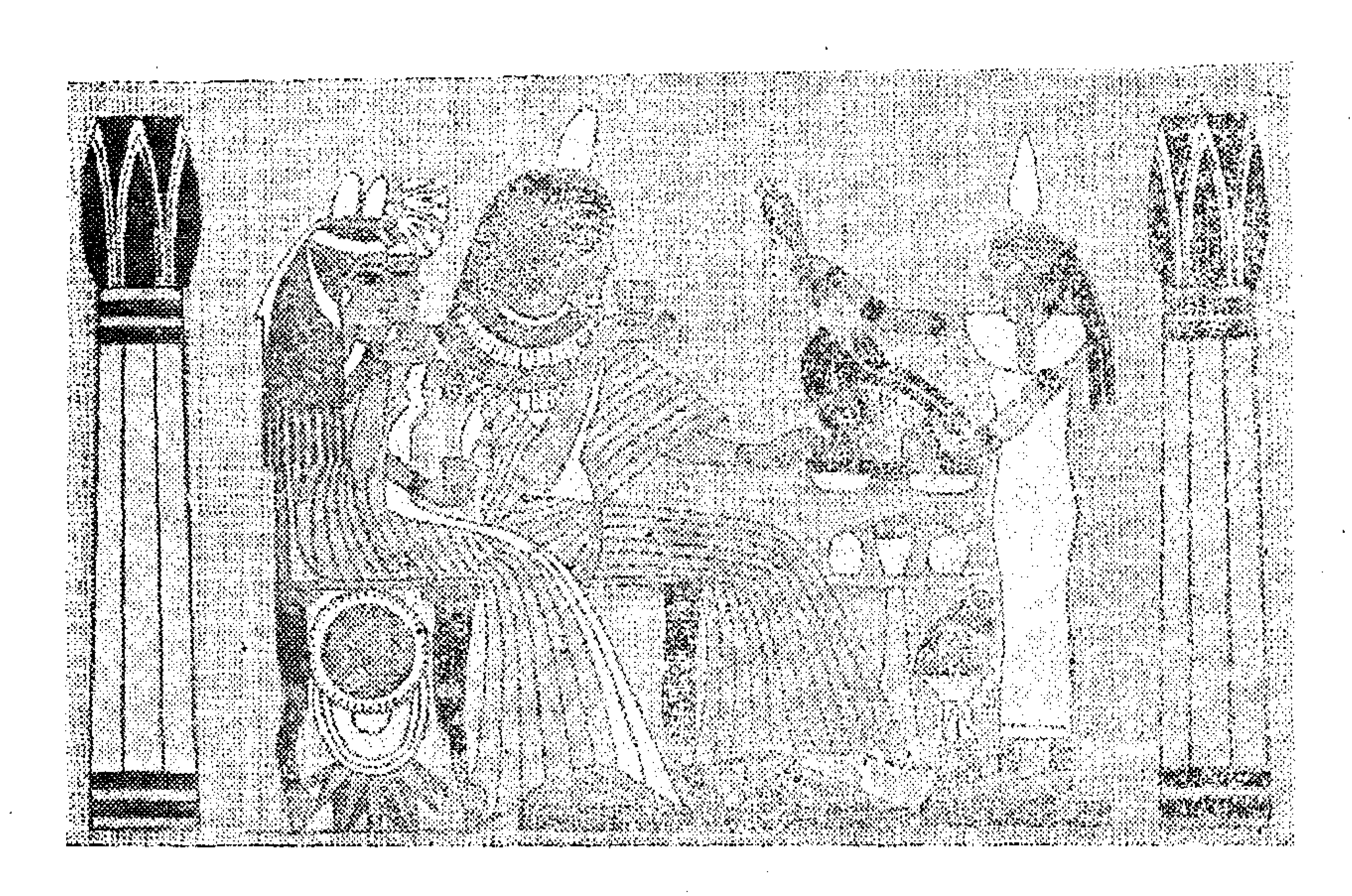
وقد عرف قدماء المصريين أنواعاً من المحاصيل الزراعية لا زلنا نزرعها فى حقولنا ، ومنها الحبوب كالقمح والذره والشعير ، والبقول كالفول والعدس واللوبيا ، والبذور الزيتية كالكتان والزيتون والقرطم . وقد استخدموا الزيت



« نقش ملون على جدار مقبرة مينا بالأقصر »
« يحتوى على مناظر الزراعة »

المستخرج من هذه البذور فى الطعام والتدليك والإضاءة وصناعة الألوان والعطور . كما عرفوا كثيراً من الخضراوات التى لاتزال معروفة فى البيئة المصرية وتدخل بكثرة فى أطعمة المصريين .

وكان قدماء المصريين - ولا سيما السراة منهم - يغرسون الحدائق والبساتين حول بيوتهم ، ويكثرون فيها من الكروم والنخيل وأشجار التين والرمان



« تقديم الفواكه إلى الضيوف »

والنبق وغير ذلك من الفواكه . كما كان الملوك ينشئون الحدائق العامة للنزهة ، ويزينونها بالأشجار والأزهار والرياحين .

وكان لقدماء المصريين أعياد يحتفلون فيها بالمناسبات الزراعية المختلفة : فكانوا يحتفلون بعيد رأس السنة الزراعية ويعتبرونه عيداً قومياً لمصر كلها ، ولا يزال هذا العيد يتمثل حتى اليوم فى الاحتفال المعروف بعيد النيروز . وكانوا يحتفلون فى وقت الانقلاب الشتوى عند بذر البذور بعيد آخر يسمونه عيد المشاعل ، وكانوا يغطسون أثناءه فى ماء النهر ويسهرون طول الليل فى لهو

وسرور. وثمة عيد آخر من الأعياد الزراعية كانوا يحتفلون به فى وقت الانقلاب الربيعى أو بعده بقليل ، وهو الذى لا زلنا نحتفل به ونسميه « شم النسيم » ، وكانوا ينطلقون فيه - كما نفعل اليوم - إلى الحدائق والحقول فرحين يستمتعون بالغناء والموسيقى ، ويتناولون ألواناً معينة من الأطعمة هى التى لا زلنا نتناولها فى هذه المناسبة إلى اليوم . كما كانوا يقيمون لمناسبة جمع المحصول حفلات دينية يقدمون فيها باكورة الحصاد بمثابة قرابين للإله « مين » إله الخصب ، وللإلهة « رننت » إلهة الحصاد ، كما كانوا ينتهزون هذه الفرصة للاحتفال بعيد الإله « أوزوريس » وتمثيل المأساة التى مرت بحياته ، إذ تآمر عليه أخوه « ست » وقتله ، ولكنه بعد أن مات ودفن عاد بمعاونة زوجته إيزيس إلى الحياة مرة أخرى ، كما تدفن البذور فى الأرض ثم تبعث حية وتفيض على الناس بالخير . وقد ظلت بعض القرى فى مصر تحتفظ إلى اليوم بهذه الصورة التى تمثل مأساة أوزوريس ، فثمة رقصة من رقصات القرويين يؤديها فى موسم حصاد القمح رجل وامرأة تصاحبهما فى البداية أصوات موسيقية صاخبة تمثل ما هما فيه من سعادة وهناء ، ثم لا يلبث الرجل أن يسقط فجأة كأنه مات ، فتدور المرأة من حوله باكية مولولة ، ثم تنحنى فوقه مقتربة منه شيئاً فشيئاً حتى تلامسه ، فإذا هو ينتفض واقفاً ، وعندئذ تدوى الموسيقى الصاخبة مرة أخرى معبرة عن الحياة والسرور. ولاشك أن أن هذه الرقصة قد انحدرت عبر القرون حتى استقرت بين فلاحينا ، فهم يمارسونها وإن كانوا لا يعرفون مصدرها أو معناها .

البحث الثانى

الصّناعة

بلغت الصناعة فى مصر القديمة درجة عظيمة من التقدم والازدهار ، ويرجع الفضل فى تعدد الصناعات المصرية إلى وفرة المواد الأولية التى استخرجها المصريون من أرضهم الطيبة . وقد استطاعوا بفطنتهم أن يدركوا خصائص هذه المواد ومميزاتها وفوائدها . كما استطاعوا باجتهادهم ودأبهم على العمل أن يصلوا إلى أفضل الطرق لاستخدام هذه المواد وتطويعها لحاجاتهم ومستلزمات حياتهم، حتى أصبحت منتجاتهم الصناعية أثمن ما يتطلع الناس إلى اقتنائه فى بلاد العالم القديم كله ، ولا يفتأ العلماء يشيدون بما قدمته مصر من صناعات للحضارة البشرية .

وقد ساعد على ارتقاء الصناعات المصرية وما بلغته من الدقة والإتقان ، رعاية الدولة لها ، وعنايتها بتوفير المواد اللازمة لقيامها وتقدمها ، كما ساعد على ذلك براعة الصانع المصرى وقدرته ومثابرته ، وما درج عليه من التخصص فى صناعة معينة وتوريثها لابنه من بعده . ومن ثم ظلت كل أسرة تتوارث صناعة واحدة طوال أجيال عديدة .

وقد وهب الله مصر فضلا عن خصوبة أرضها ، كنوزاً من الثروة المخبوءة

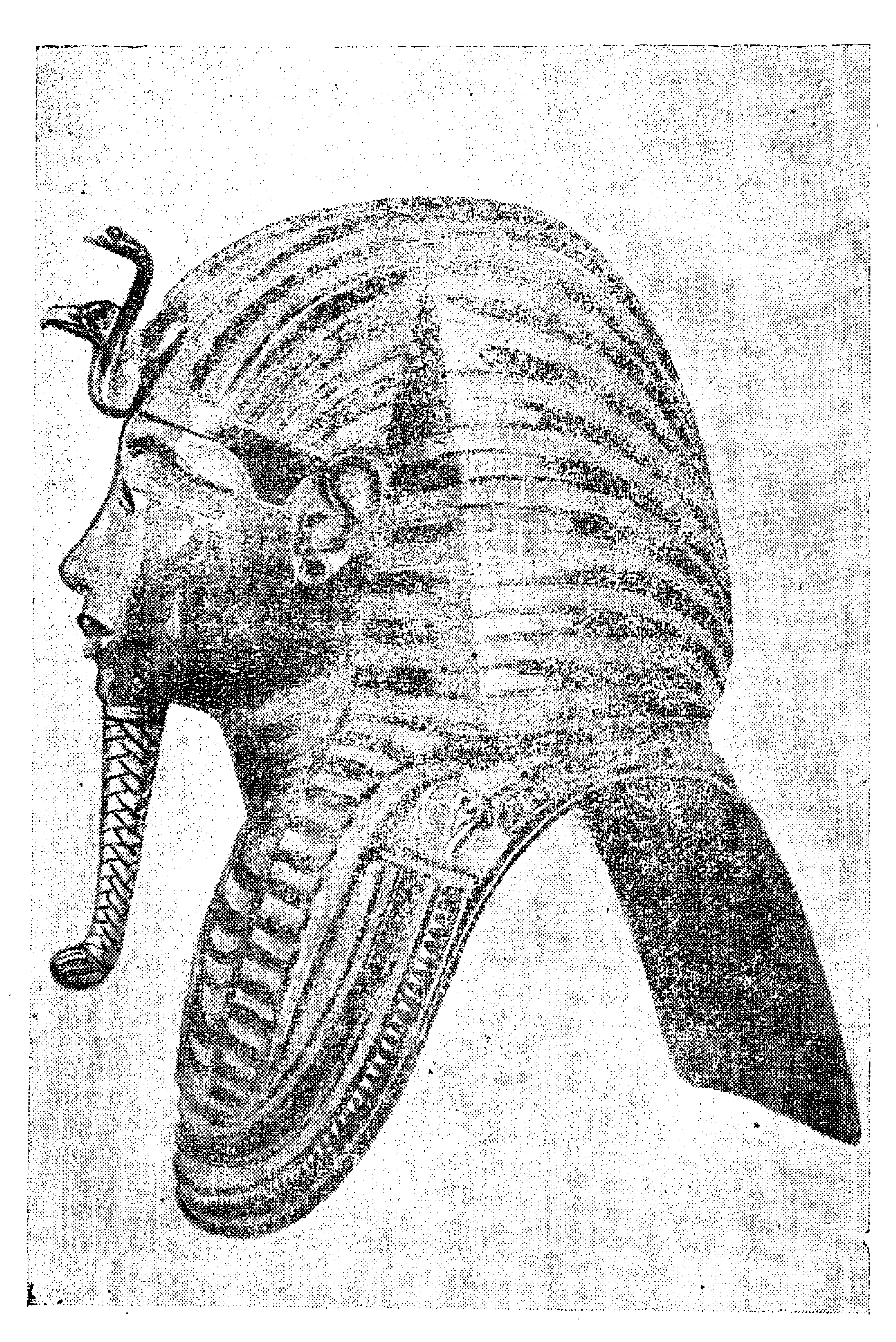
فى تربة هذه الأرض والمختلطة بثراها ، وتلك هى المعادن التى برع المصريون منذ أقدم العصور فى الكشف عنها واستخلاصها واستخدامها.فكانت هى الدعامة التى قامت الصناعة عليها .

وكان أول المعادن التى فطن المصريون إلى وجودها ومنفعتها هو معدن النحاس ، الذى عثروا عليه فى الصحراء الشرقية وفى صحراء سينا ، واستخرجوه بكميات وفيرة واستخدموه فى مختلف الصناعات . وكانوا بعد حصولهم عليه فى صورته الأولية يصهرونه فى أفران خاصة ، حتى إذا توصلوا إلى مادته النقية ، راحوا يطرقونها حتى تتحول إلى صحائف رقيقة ، يسهل عليهم بعد ذلك تشكيلها كما يشاءون . وهكذا أمكن للصانع المصرى منذ أوائل عصر الدولة القديمة أن يصنع الآنية والآلات والأسلحة وكل احتياجات المجتمع من النحاس المطروق .

ومنذ عصر الدولة الوسطى بدأ المصريون يخلطون النحاس بالقصدير فينتج لهم البرونز . وقد ظلوا يتوسعون فى استخدام هذا المعدن الجديد ، حتى حل فى عصر الدولة الحديثة محل النحاس .

أما الحديد فقد اكتشفه المصريون واستخرجوه منذ العصور السابقة على التاريخ ، ولكنهم لم ينتفعوا به إلا فى عصر الدولة الوسطى . وقد أكثروا من استخدامه بعد ذلك بالتدريج ، حتى استعاضوا به عن النحاس والبرونز فى كثير من الصناعات ، ولا سيما صناعة الأسلحة وغيرها من الآلات والأدوات التى تحتاج إلى كثير من الصلابة وقوة الاحتمال .

وكان الذهب كذلك من المعادن التى عرفها المصريون منذ أقدم العصور . وقد أظهروا فى صناعته براعة منقطعة النظير . ولا تزال بعض الحلى الذهبية التى بقيت لنا منذ الزمن السابق على التاريخ تشهد لهم بالحذق والذوق الرفيع .



« قناع من الذهب الخالص »

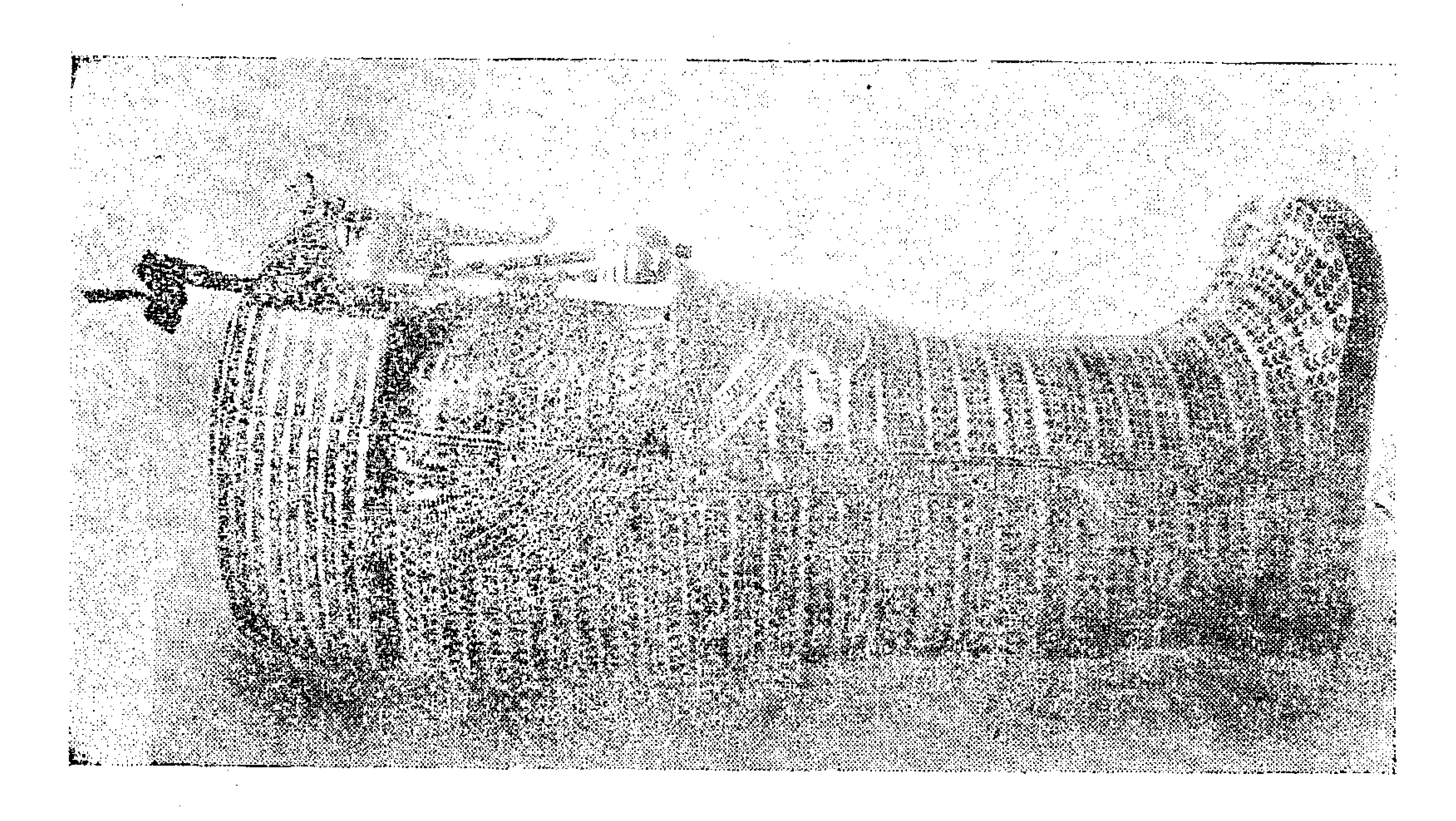
« كان يغطي رأس مومياء توت عنخ آمون »

ولم تقف قدرتهم فى هذا المضمار عند حد، ومن ثم بلغوا منزلة لا تقل عن منزلة أبرع الصائغين فى العصر الحديث. ولعل أروع دليل على ذلك مجموعة النفائس الذهبية التى تم اكتشافها فى مقبرة الملك « توت عنخ آمون » ، والتى تعتبر من أبدع التحف الفنية التى صنعتها يد الإنسان فى كل عصور التاريخ . وهى تتكون من عدد كبير من قطع الحلى المصنوعة من الذهب الخالص ، ومن عدد كبير كذلك من التوابيت والموائد والمقاعد وغير ذلك من قطع الأثاث المكسوة كلها برقائق الذهب فى منظر يخلب الألباب .

وعلى الرغم من ندرة الفضة فى الأراضى المصرية ، أظهر المصريون كذلك فى استخدامها براعة لا تقل عن براعتهم فى استخدام الذهب .

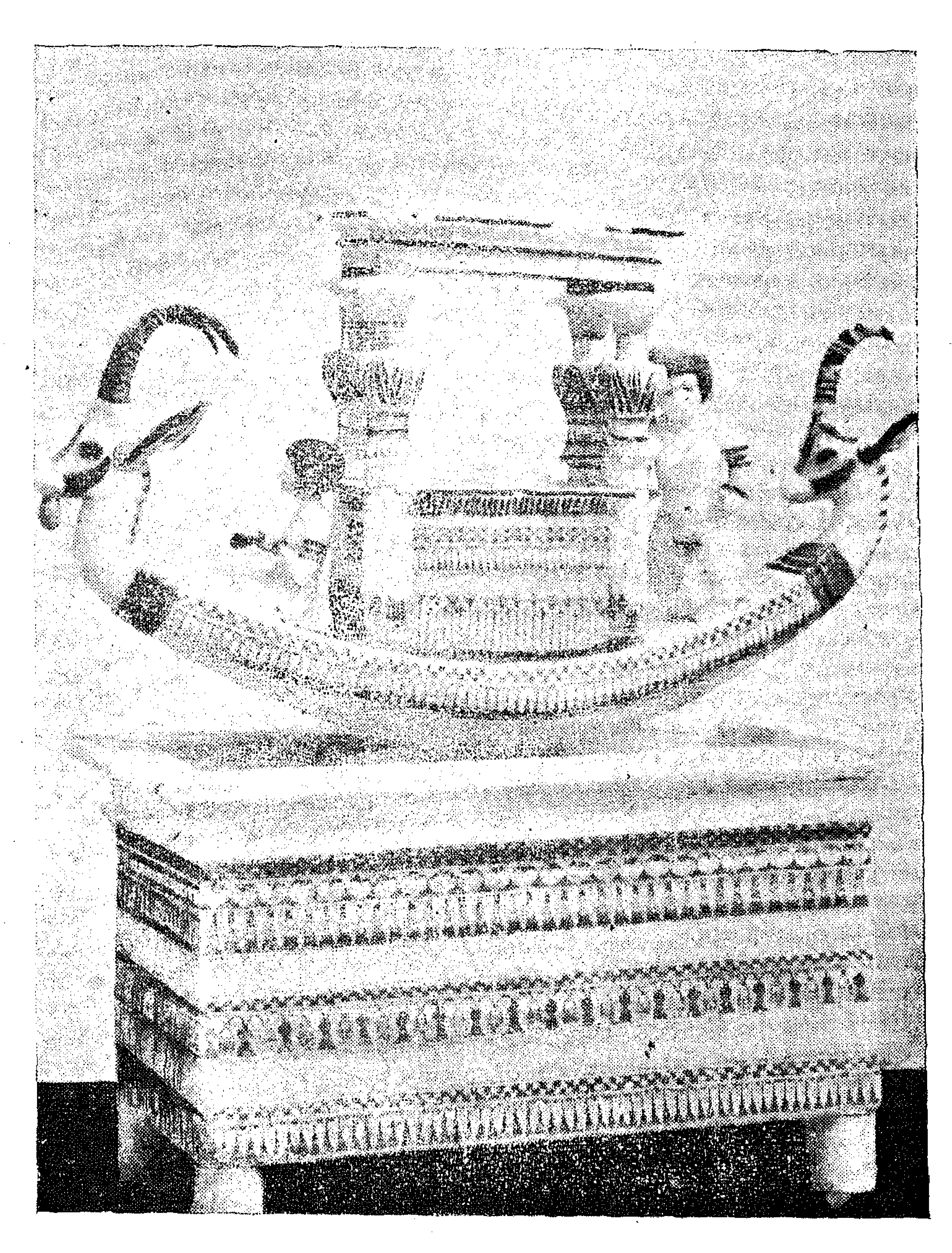
وفضلا عن الصناعات المعدنية ، أتقن المصريون الصناعات الخشبية . وقد توفرت لديهم الأخشاب المحلية المستخرجة من الأشجار المصرية كالجميز والأثل والسنط والنبق والصفصاف . ولكن هذه الأخشاب لم تكن تصلح للصناعات الراقية ، ومن ثم عمل المصريون على استيراد أنواع الخشب الجيد من الخارج كالأرز والسرو والأبنوس . بيد أن هذه الأخشاب لصعوبة الحصول عليها كان يقتصر استعمالها على المعابد والقصور الملكية والعمائر الحكومية وسوارى السفن والقوارب المقدسة . أما فيما عدا ذلك فكان المصريون يستخدمون الأخشاب المحلية ، وكانوا يصنعون منها السفن والتماثيل والتوابيت والنواويس وموائد القرابين وغير ذلك من أثاث المعابد والمنازل . وقد برعوا على الخصوص فى بناء السفن . وكانوا فى عصورهم الأولى يصنعون سفناً صغيرة أو قوارب من سيقان البردى تحملها مياه النيل ، ثم تدرجوا مع الزمن فى صناعتها حتى أصبح لمصر فى أوائل عصر الدولة القديمة سفن ضخمة من الخشب تجوب البحـــار . وكانت بعض هـذه السفن تقوم بنقل البضائع والأخشاب الثمينة من الساحل

الفينيقي إلى عاصمة مصر فى عهد الملك سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة . ومن ذلك أسطول يتكون من أربعين سفينة قام فى عهد هذا الملك بنقل حمولة ضخمة من الخشب الجيد الذى يمتاز به غربى آسيا . وقد بقيت لنا بين الآثار سفينة ضخمة يبلغ طولها أربعة وأربعين متراً ويبلغ عرضها عند الوسط ستة أمتار ، وقد تم صنعها فى عهد الملك خوفو من خشب الأرز المستورد من الساحل الفينيقى ، وتدل صناعتها على تفوق عظيم فى هذا المضمار ، لم يبلغه أى شعب من



« صندوق على شكل مومياء توت عنخ امون وهو من الخشب المطعم بالذهب »

الشعوب القديمة . وكان المصريون فى عصر الامبراطورية يقومون ببناء الأساطيل الضخمة من السفن الحربية . كما أنهم فى عصر الدولة الحديثة أصبحوا يزخرفون السفن ويزينونها بالرسوم الجميلة ويزوقونها بالألوان البراقة ويجعلون مؤخرتها على شكل باقة من زهور البردى . وقد أكثر المصريون من بناء السفن المتينة لنقل كتل الجرانيت والديوريت والبازلت وغيره من الأحجار الثقيلة من



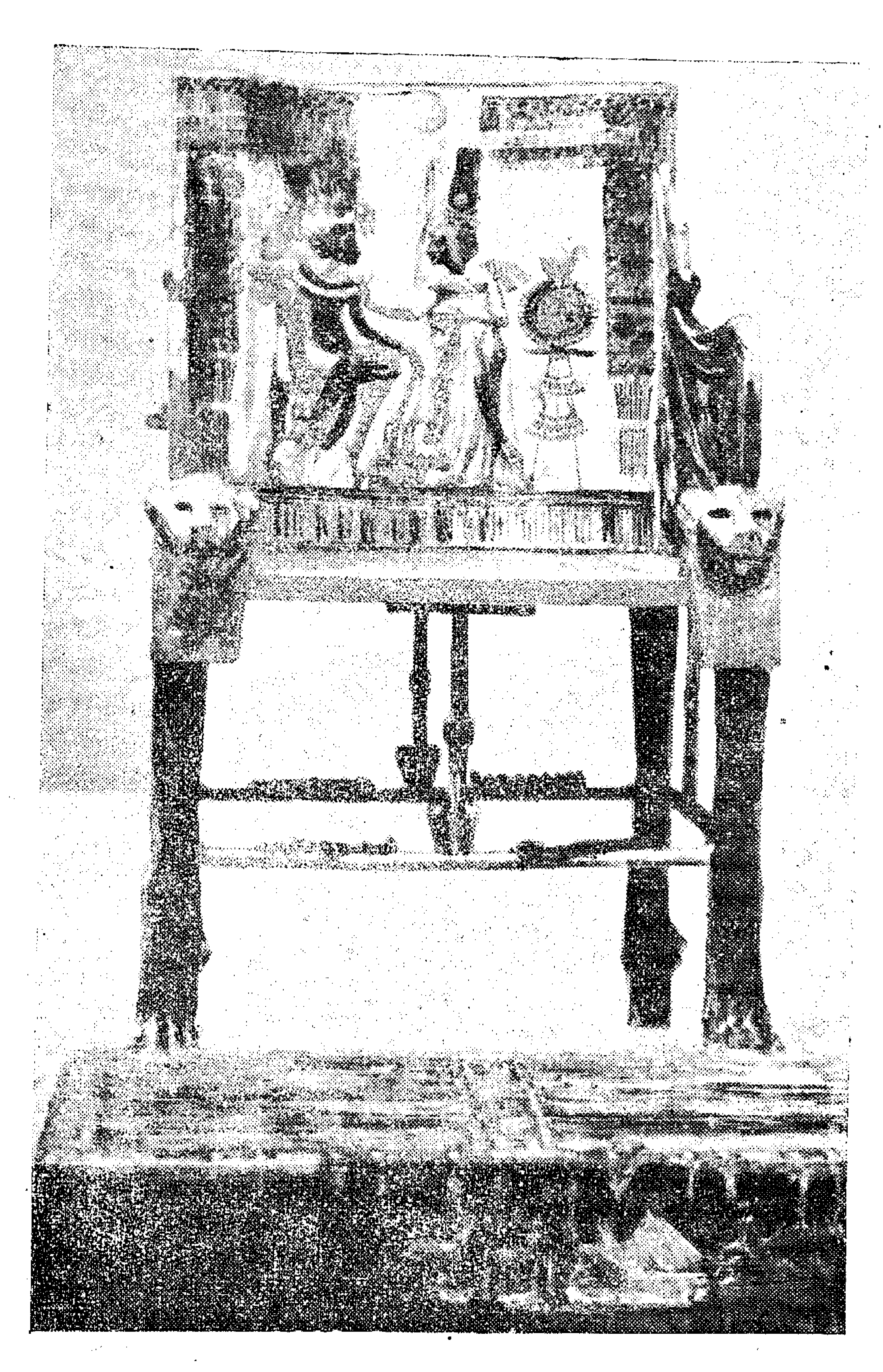
« صندوق مصنوع من المرمر من آثار توت عنخ آمون »
« وعلى غطائه تمثال سفينة رائعة »

المحاجر إلى مواطن بناء الأهرامات والمعابد عن طريق النيل ، وكانت بعض هذه الكتل تبلغ ألف طن . وفضلا عن استخدام الخشب فى بناء السفن ، استخدمه المصريون كذلك فى بناء المنازل ، فكانوا يصنعون منه سقوفها وأعمدتها وأبوابها ونوافذها وينقشونها بأبدع الألوان . كما كانوا يصنعون من الخشب كثيراً من قطع الأثاث كالمناضد والمقاعد والأرائك والأسرة ، وكانوا ينحتون أقدامها فى الغالب على شكل أقدام الأسود أو غيرها من الضوارى، وقد أبدعوا على الخصوص فى صنع أثاث الملوك ، فكانوا يصوغونه فى قوالب دقيقة رائعة ، ويكسونه برقائق الذهب والفضة ، ويطعمونه بالأحجار الكريمة المختلفة الأنواع والألوان ، ويرسمون عليه من الصور والمناظر الطبيعية ما يأخذ بالألباب . كما كانوا يصنعون من الخشب الأثاث الجنائزى ولا سيما التوابيت التى كانوا يجعلون بعضها على شكل المومياء البشرية ، وكانوا ينقشون عليها كثيراً من النصوص الدينية أو الرسوم المقدسة ويطلونها بأبدع الألوان . وكانوا يصنعون من الخشب كذلك أثاث المعابد كالصناديق والنواويس والتماثيل والقوارب المقدسة وغير ذلك من المقتنيات والتحف الثمينة .

وقد راج كذلك لدى المصريين استعمال الأبنوس فى صناعة الأثاث الفاخر المعابد والقصور . وكانوا يستوردونه من البلاد الجنوبية . وقد بقيت لنا من صناعة الأبنوس مجموعة بديعة من المقاعد والمناضد والصناديق والتماثيل والتوابيت والنواويس .

كما عرف المصريون صناعة العاج ، وكانوا يأخذونه من سن الفيل أو عظام فرس البحر ، ويصنعون منه الأدوات الصغيرة الدقيقة ولا سيما أدوات الزينة . وقد برعوا فى ذلك براعة عظيمة وأبدعوا كل إبداع .

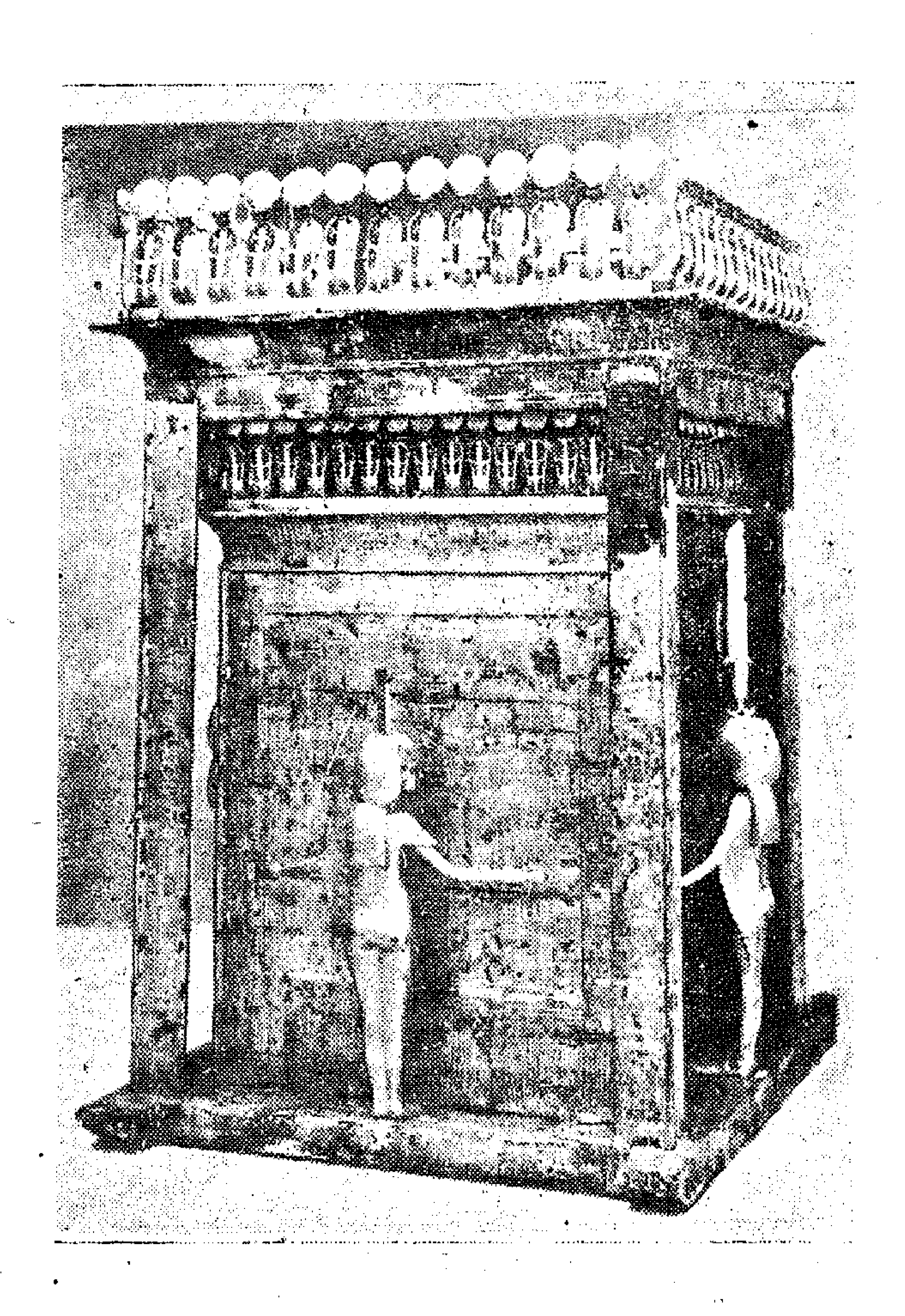
وعرف المصريون صناعة القيشانى منذ العصور السابقة على التاريخ ، ولم يفتأوا يرتقون بها حتى جعلوا منها صناعة رفيعة فى أوائل عصر الدولة القديمة . وقد كانوا يحصلون على القيشانى من حجر الكوارتز والرمل السليكى



« عرش توت عنخ آمون »
« وتبدو فيه دقة الصناعة وروعتها »

والنطرون ، وكانوا يصنعون منه التماثيل الصغيرة والتمائم والخرز وغير ذلك من الأشياء الدقيقة .

وقد توصلوا كذلك إلى صناعة الزجاج منذ بداية العصور التاريخية . بيد



« مقصورة عرش توت عنخ آمون تحيط بها تماثيل ذهبية »
« وهى من أروع أمثلة الصناعة المصرية الدقيقة »

أنهم لم يبلغوا الدرجة العظيمة من إتقان هذه الصناعة التى اشتهروا بها إلا فى عصر الدولة الوسطى ، حيث انتشرت صناعة الزجاج واتسعت مجالات استعماله

وارتفعت مستويات إنتاجه وتشكيله وزخرفته . وكانوا يصنعونه من الكوارتز أو الرمل السليكى مع النطرون ويضيفون إلى عجائنه بعض مركبات المعادن كالنحاس والحديد والمنجنيز والكوبالت والقصدير ، ليكتسب اللون المطلوب . وكانت أكثر ألوان الزجاج رواجاً لديهم الأبيض والأسود والأزرق والأحمر والأخضر والأصفر . وقد بلغت صناعة الزجاج ذروتهـــا فى القرن الثانى قبل الميلاد . وكانت الإسكندرية من أكبر مراكز إنتاجه فى العالم القديم .

وكان قدماء المصريين أول شعب يبرع فى صناعة الورق . وكانت هذه الصناعة من أعظم وأروع ما أسدته مصر للحضارة البشرية فى كل عصورها . وقد استنبط المصريون الأوائل صفحات الورق من سيقان البردى . وكان هذا النبات منتشراً بوادى النيل فى ذلك الحين . وكانوا يستخرجون الرقائق الرخوة التى يتكون منها لب السيقان ويجعلونها على هيئة شرائح ، ثم يلصقون أطرافها ويعالجونها حتى تصبح صفحات مستوية ملساء صالحة للكتابة . وكانوا يصنعون منها ملفات طويلة قد يبلغ الواحد منها خمسين متراً . وقد كانت هذه الصناعة - كما سبق أن رأينا - هى السبيل الأول والأعظم لانتشار الكتابة وازدهار الثقافة فى مصر وفى العالم كله بعد ذلك . وكما كان أبناء الأمم الأخرى يردون العلم فى مصر كانوا كذلك يستوردون الورق منها ليكون دعامة للعلم فى بلادهم . ومن ثم غدت مصر مركزاً لصناعة الورق وتصديره إلى كل أقطار العالم القديم .

وكانت صناعة الغزل والنسيج من أقدم الصناعات فى مصر . وكان المصريون ينتجون أنواعا فاخرة من القماش المصنوع من الكتان أو الصوف أو القطن

أو الحرير ، وقد اشتهروا بأنسجتهم التى تكاد تضاهى فى رقتها ونعومتها أرق المنسوجات فى عصرنا الحديث .

وتعتبر صناعة الفخار من أقدم الصناعات التى عرفها المصريون ، وكانت تقوم بدور هام فى حياتهم اليومية . وكانوا يصنعون الآنية الفخارية من الطمى، ثم يضعونها فى أفران خاصة لتكتسب الصلابة واللون المطلوب . وكانت ألوان الآنية الفخارية تتفاوت تبعاً لنوع الطمى الذى يستعملونه وما يدخل فى تركيبه من أكاسيد معدنية أو من مواد عضوية ، ومن هذه الألوان الأسود والأحمر والرمادى . وما فتىء المصريون يزدادون مهارة فى هذه الصناعة حتى أمكنهم منذ أقدم العصور أن ينتجوا نوعاً من الأوانى المصقولة المزدانة بالألوان المتباينة والنقوش البديعة .

كذلك تعتبر من أقدم الصناعات التى عرفها المصريون صناعة الآنية الحجرية . وقد استطاعوا أن ينحتوا من مختلف أنواع الأحجار اللينة والصلبة أنواعاً متباينة من الآنية . ومن أبدعها ما صنعوه من المرمر والديوريت والشست والبازلت والجرانيت . ومن أروع المجموعات الحجرية التى بقيت لنا من آثارهم مجموعة الملك زوسر ، التى عثرنا عليها داخل هرمه . ومن بينها آنية تبدو من فرط جمالها ودقة صناعتها كأنما استعان صانعها فى تشكيلها وصقلها بأحدث الآلات التى نستخدمها فى عصرنا الحاضر .

وكان من أبرز الصناعات المصرية وأبدعها أدوات الزينة والترف التى تفوق المصريون فى صنعها وسبقوا فى ذلك أكثر الأمم المعاصرة لهم . وكان من أجمل ما أنتجوه من هذه الأدوات القلائد والعقود والأساور والخواتم والأمشاط والدبابيس . وكانوا يصنعون هذه الأدوات من الحجر

أو الصدف أو العاج أو الزجاج أو القيشانى . كما كانوا يصنعون المساحيق والأصباغ التى لا تقل جودة عن أرقى المنتجات الحديثة .

وقد بلغ المصريون فى كل هذه الصناعات وفى غيرها شأواً لم تبلغه أمة أخرى ،فكانوا فى مجال الصناعة أساتذة كل الشعوب.

البحث الثالث

التجارة

حين فاضت حاصلات الزراعة ومنتجات الصناعة فى مصر منذ أقدم العصور ، شعر المصريون بالحاجة إلى التبادل ومن ثم ازدهرت التجارة لديهم وقد صنعوا السفن منذ العصور السابقة على التاريخ لنقل حاصلاتهم ومنتجاتهم على مياه النيل من مكان إلى آخر ليتبادلوها فيما بينهم . وكان لكل مدينة وقرية سوق عامة تقام كل أسبوع لتبادل الحاصلات والمنتجات كذلك .

وكانت وسيلة البيع والشراء بين المصريين فى بداية الأمر هى المقايضة ، ولكنهم لم يلبثوا أن ابتكروا حلقات ذات وزن معين من الذهب أو النحاس لتكون وسيلتهم فى التجارة فكانت هذه هى أول عملة عرفها التاريخ . كما أنهم عرفوا من وسائل التجارة الموازين والمكاييل والمقاييس ، وعرفوا عقود البيع والشراء والسجلات والإيصالات وغير ذلك من الوثائق التى لا زالت تستعمل فى التجارة إلى اليوم .

وحين تمكن المصريون من بناء السفن الكبيرة فى بداية عصورهم التاريخية ، خرجوا بها عن نطاق النيل إلى البحار الكبرى ، فكانت أساطيلهم التجارية

فى ذلك الزمن البعيد تجوب البحرين الأبيض والأحمر حاملة مختلف الحاصلات والمنتجات المصرية إلى فينيقيا وردوس وقبرص وكريت والسودان والصومال وغيرها ، ثم تعود منها حاملة بعض حاصلاتها ومنتجاتها كخشب الأرز والسرو والأبنوس والعاج والعطور والبخور . كما كانت مصر تستورد الذهب من النوبة ، والنحاس والمنجنيز من سينا ، والفضة واللازورد والأبسديان من غرب آسيا وأرخبيل اليونان .

وكان المصريون يستجلبون كثيراً من حاجياتهم من الصومال التى كانوا يسمونها بلاد « بونت » ، وكانوا لكى يصلوا إليها يضطرون إلى عبور الصحراء الشرقية القاحلة حتى يبلغوا شواطىء البحر الأحمر . وهى رحلة شاقة كثيرة الأخطار والتكاليف . ولذلك قام الملك سنوسرت الثالث فى عصر الدولة الوسطى بحفر قناة تصل البحر الأحمر عند خليج السويس بالبحيرات المرة فى شرق الدلتا . وكان المؤرخون اليونانيون يسمونها « قناة سيزوستريس » . وقد كانت هذه القناة فى ذلك الزمن البعيد تسلك طريقاً يطابق فى مسافة غير قصيرة ذات الطريق الذى تسلكه قناة السويس الحالية .

وكان اتصال قدماء المصريين بغيرهم من الأمم المعاصرة لهم بقصد تبادل السلع سبيلا كذلك إلى تبادل الثقافات وغيرها من عناصر الحضارة ومظاهرها . فكان لذلك أثره العميق فى مصر وفى الأمم الأخرى على السواء . وتدلنا الآثار على كثير من مظاهر الحضارة المصرية التى انتقلت إلى بلاد شمال أفريقيا وجنوب أوروبا وغرب آسيا . ومن ثم كانت التجارة هى الوسيلة لانتشار المدنية المصرية فى كل أقطار العالم القديم .

الفصل التاسع

مكانة مصر في العالم القديم

رأينا فى الفصول السالفة مدى ما وصل إليه المصريون فى أقدم العصور من حضارة . فما مدى تأثير حضارة المصريين فى غيرهم من الشعوب المعاصرة لهم ، وما المكانة التى بلغتها مصر بين غيرها من بلاد العالم القديم ؟

لقد قامت الصلة بين مصر و ما كان يجاورها من الأقطار منذ العصور السابقة على التاريخ ، وما فتئت تتوثق حتى بلغت ذروتها فى عصر الامبراطورية ، حين لم تقتصر هذه الصلة على معرفة المصريين لأحوال الكثير من تلك الأقطار وتبادلهم معها أنواع التجارة وألوان الثقافة وغيرها من مظاهر الحضارة المختلفة ، وإنما انتهى الأمر بهم إلى إخضاعها والسيطرة عليها وإدماجها فى دولة واحدة يجلس على عرشها فرعون

وقد كان المصريون منذ العصور السابقة على التاريخ لا يفتأون يتطلعون بأنظارهم إلى المناطق التى تتاخم بلادهم وإلى ما وراء هذه المناطق ، فكانوا يستخرجون النحاس من صحراء سيناء ، وكانوا يستخرجون الذهب من جبال النوبة ، وكانوا لا يفتأون يبعثون بالحملات لتأديب القبائل التى تغير على الحدود

ويطاردونها إلى مسافات بعيدة ، حتى يكفلوا تأمين الطرق إلى المناجم والمحاجر، كما يكفلوا تأمين طرق التجارة .

وكانوا منذ أوائل عصر الدولة القديمة يبعثون بالحملات نحو البلاد الجنوبية لتعود معها بما فى تلك البلاد من خيرات . فكانت تتوغل فى بلاد النوبة والسودان حتى تصل إلى الصومال وما جاورها من الأقطار الواقعة على الشاطئين الأفريقى والآسيوى وكانوا يسمونها بلاد « بونت » ، وتأتى معها بما كان يتوافر فيها من الحاصلات ولا سيما العاج والأبنوس والبخور والعطور . ومن ثم توثقت صلات مصر بتلك البلاد ، وانتشرت فيها الحضارة المصرية منذ بداية العصور التاريخية . أما على الحدود الغربية لمصر فكانت الحاميات المصرية لاتفتأ تصد عادية القبائل المغيرة ، ولاسيما قبائل شعبين كانوا يسمونهما « التحنو » و « التمحو » . وكان شعب « التحنو » من الشعوب الأفريقية التى تقيم فى الأراضى المتاخمة لمصر ، بينما كان شعب « التمحو » من الشعوب الشمالية البيضاء ، وقد هاجر من سواحل أوروبا واستقر فى شمال أفريقيا منذ أوائل عصر الدولة القديمة المصرية وأخذ يغير على شعب « التحنو » ويحتل أراضيه شيئاً فشيئاً . فكان هذا الشعب تحت ضغط الغزو يهجر مواطنه الأصلية محاولا التسلل إلى مصر . ولكن المصريين ردوه على أعقابه ، ومن ثم استسلم لسلطان شعب « التمحو » وانتهى الأمر باندماجه فيه ، وأصبحت السيطرة على حدود مصر الغربية لذلك الشعب الجديد الذى أصبح بدوره دائم التهديد لتلك الحدود والاعتداء عليها ، مما كان مبعث كثير من المتاعب لمصر ، ولكن المصريين كانوا يقهرونه على الدوام ويطردونه . أما فى الشمال فكانت السفن المصرية الكبيرة منذ بداية عصر الدولة القديمة ، بل وقبل ذلك ، تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط إلى كثير من شواطئه وجزره ولاسيما قبرص وكريت، وتنقل إليها كثيراً من مظاهر الحضارة المصرية التى انتقلت بعد ذلك إلى

اليونان ، وقام على أساسها صرح الحضارة اليونانية . وأما فى الشرق فكانت الصلة بين مصر ولبنان قائمة منذ أقدم العصور . وقد رأينا كيف أرسل الملك سنفرو فى بداية عصر الدولة القديمة أسطولا من السفن إلى لبنان لاستحضار حمولة ضخمة من أخشابه . كما كانت السفن لا تفتأ تروح وتجىء بين مصر وسوريا . وكان ثمة طريق برى يصل كذلك بين مصر وفلسطين عبر صحراء سينا . وكان الفراعنة منذ أقدم العصور يهتمون أعظم الاهتمام بتأمين ذلك الطريق ، حتى لقد اضطروا فى عهد الأسرتين الخامسة والسادسة إلى غزو بعض المدن الفلسطينية والاستيلاء عليها لكفالة الطمأنينة اللازمة للقوافل المصرية فى ذهابها وعودتها. وكانت المدن السومرية الواقعة فى منطقة ما بين النهرين تتطاحن فيما بينها منذ عام ٢٨٠٠ قبل الميلاد ، حتى أمكن للملك سرجون الأكدى أن يسيطر عليها فى عام ٢٣٥٠ قبل الميلاد ، ويؤسس أول امبراطورية سامية فى التاريخ . بيد أن هذه الامبراطورية لم تلبث أن انهارت بعد قرنين من الزمان تحت وطأة الجوتيين ، وهم من الشعوب غير السامية التى وفدت من شمال شرقى آسيا ، ومن ثم دخلت الحضارة السومرية فى عصرها الثانى . وقد ازدهرت فى ذلك العصر مملكة « أور » التى كان لها فى تاريخ تلك البلاد شأن عظيم . بيد أن هذه المملكة لم تلبث أن انهارت بدورها وظهرت فى بلاد ما بين النهرين الأسرة البابلية الأولى عام ١٨٠٣ قبل الميلاد ، وقد بلغت ذروة مجدها فى عهد الملك حورابى ، أى فى عام ١٧٢٨ قبل الميلاد ، وكان ذلك فى أواخر عصر الدولة الوسطى فى مصر . وقد كان للسومريين صلات قديمة بالمدن السورية ، ومن ثم كانت هذه المدن ملتقى الحضارتين المصرية والسومرية .

وقد حدث فى أواخر عصر الدولة الوسطى أن نزحت بعض شعوب آسيا إلى بلاد الشرق الأوسط ، فسقطت بابل تحت وطأة الكاسيين ، وسقطت مصر تحت وطأة الهكسوس . ولم تكن مصر قبل ذلك تعرف مرارة الخضوع للحكم

الأجنبي ، وإنما كانت تعيش داخل حدودها فى طمأنينة وسلام ، حتى حلت بها تلك النكبة ، فتعلمت منها درساً قاسياً يصعب عليها أن تنساه ، وأدركت أنها لا يمكن أن تنعم بالحرية أو الحياة الكريمة مادامت تترك قوى الشر من حولها تسعى إلى احتلالها وإذلالها . فما واتتها الفرصة حتى ثارت على الهكسوس وأعلنت الحرب عليهم وقهرتهم ثم طردتهم إلى خارج حدودها . ومنذ ذلك الحين ظلت مصر مفتوحة العينين ساهرة على سلامتها ، مما دعاها لأن تتخذ أهبة الدفاع عن نفسها ، كما دعاها لأن تبادر إلى إخضاع الشعوب التى تخشى غدرها أو لا تطمئن إلى نواياها . وقد كان التوفيق فى ذلك حليفها ، فظلت تنتقل من نصر إلى نصر ، حتى دانت لها كل بلاد غرب آسيا وجزر البحر الأبيض المتوسط ، ومن ثم ارتفع صرح الدولة المصرية واتسعت رقعتها ، فأصبح ملكها أقوى ملوك الأرض ، وأصبح سلطانه يشمل امبراطورية من أعظم امبراطوريات التاريخ . وكان أمراء البلاد الخاضعة لمصر فى ذلك العصر الزاهر يهرعون إليها ليقدموا لفرعون الجزية مع فروض الطاعة والولاء . وكانت تتاح لهم الفرصة بذلك لأن يروا تلك البلاد التى طالما تطلعوا إلى رؤيتها ، وطالما سمعوا عن روعة مدنها ورفعة مدنيتها ، حتى إذا بلغوا بعد ذلك ديارهم ، وقد بهرت الحضارة المصرية أنظارهم ، راحوا ينتهجون سبيلها وينسجون على منوالها . وقد كان للآثار المصرية الفضل الأكبر فى تخليد كثير من مظاهر حضارات الشعوب المختلفة التى خضعت لمصر أو تطلعت لصداقتها فى عصر الامبراطورية ، إذ احتفظت تلك الآثار بكثير من الصور التى تمثل أمراء تلك الشعوب وقد أقبلوا بأزيائهم الوطنية ، وسيماهم المتميزة يحملون خير ما أنتجته بلادهم من مزروعات ومصنوعات ومعادن ثمينة وأحجار كريمة وتحف نادرة ليقدموها جزية أو هدية لفرعون . وقد كانت هذه الصور هى المصدر الأوحد أحياناً

لكثير مما عرفناه عن شعوب قبرص وكريت وبابل وأشور وميتانى وخيتا وسوريا ولبنان وفلسطين وليبيا والسودان وبلاد بونت ، خلال عصر الامبراطورية المصرية ، أى منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام . وهكذا تدفقت خيرات العالم القديم على مصر فى ذلك الحين ، وامتلأت مخازنها وخزائنها بقدر هائل من نفائس الأرض ، فازدهرت الحضارة المصرية بهذا الثراء فى كل صورها وعناصرها ، وزخرت البلاد بروائع الفنون وبدائع الآداب ، وتمتع المصريون بحياة مليئة بأسباب السيادة والسعادة فى ظل الرفاهية والرخاء .

بيد أن الامبراطورية المصرية لم تلبث أن اصطدمت بكثير من المتاعب والمصاعب فى الداخل والخارج ، فما انتهى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، حتى كانت تعانى كثيراً من التفكك والتصدع ، وقد فقدت كثيراً من البلاد الخاضعة لها ، بل لقد تجرأت كثير من البلاد على مناوأتها والطمع فى غزوها والسيطرة عليها ، ولا سيما بعض الشعوب الأوروبية التى تحالفت مع القبائل الليبية وأغارت على مصر من البر والبحر ، فكان خطرها عليها لا يقل عن خطر الهكسوس ، بل يزيد عليه ، لولا أن تمكن الفراعنة من صدها ، وقد اشتبك معها رمسيس الثالث فى موقعة حاسمة وهزمها عام ١١٨٧ قبل الميلاد . وقد تمردت على مصر سوريا ولبنان وفلسطين واستطاع الملك داوود فى ذلك الحين تكوين مملكة اسرائيل ، منتهزاً فرصة الأزمات التى تواجه مصر . وبدأت دولة أشور تسيطر على بلاد ما بين النهرين ، وتتطلع بأنظارها نحو الأقطار الواقعة على حدودها الغربية فاصطدمت بمصر . ومن ثم دخلت مصر فى مرحلة عنيفة من التطاحن مع الآشوريين ، ثم مع الفرس ، ثم مع اليونان ، ثم مع الرومان ، فتفاعلت حضارتها مع حضارات هذه الأمم جميعاً وأثرت فيها

وتأثرت بها ، ولكنها احتفظت على الدوام بأسبقيتها وأصالتها .

وقد كان للحضارة المصرية الأثر الأكبر منذ أقدم العصور فى جزر البحر الأبيض ولا سيما قبرص وكريت ، كما كانت هى النبع الذى ارتوى منه علماء اليونان وفلاسفتهم منذ فجر تاريخهم ، وكان شعراؤهم وعلى رأسهم هوميروس يتغنون بحكمة مصر ورفعة شأنها فى كل ميادين العلم والأدب والفن . كما كان أفلاطون وغيره من أعظم المفكرين لديهم يفخرون بأنهم تلقوا العلم فى مصر ويشيدون بما للمصريين عليهم من فضل . وكان للحضارة المصرية الأثر الأكبر كذلك فى أقطار آسيا الغربية ، ولاسيما سوريا ولبنان وفلسطين وأشور وفارس . بل لقد بلغ أثرها أواسط آسيا كالقوقاز وجنوب روسيا ، كما بلغ الأناضول . وبلغ فى الجنوب دولة سبأ . أما فى أفريقيا فكان أثر الحضارة المصرية لا يقل قوة وعمقاً ، حتى أننا لا زلنا نجد العادات المصرية القديمة قائمة لدى بعض الشعوب الأفريقية إلى اليوم . وقد امتد أثر تلك الحضارة على طول الشاطىء الشمالى لأفريقيا ، وامتد على شاطئها الشرقى إلى المنطقة الاستوائية ، كما تغلغل فى أواسط أفريقيا فشمل المناطق النائية من السودان والصومال وأثيوبيا وأريتريا . فكانت مصر هى الشعلة التى توهج ضوؤها فى قلب العالم القديم فأنارت طريق الحضارة لكل الأمم التى عاصرتها أو جاءت بعدها ، ومن ثم كتب لها التاريخ فى صفحاته أروع آيات المجد والخلود .

« تم الجزء الثالث »



الأستاذ زكى شنوده

مراجع الكتاب

(١) تاريخ مصر القديمة ، تأليف الأستاذ سليم حسن .

(٢) تاريخ مصر من أقدم العصور ، تأليف جيمس هنرى برستد ، ترجمة الدكتور حسن كمال .

(٣) تاريخ الحضارة المصرية « المجلد الأول » ، تأليف الأساتذة محمد شفيق غربال ، ومصطفى عامر ، وسليمان حزين ، وسليم حسن ، وعبد المنعم أبو بكر ، وعبد الحميد سماحة ، وبول غليونجى ، وأحمد فخرى ، ونجيب ميخائيل ، ومحرم كمال ، وجمال الدين مختار ، وعبد العزيز صالح .

(٤) على هامش التاريخ المصرى القديم ، تأليف الأستاذ عبد القادر حمزة .

(٥) لمحات من الدراسات المصرية القديمة ، تأليف الدكتور باهور لبيب .

(٦) جولات فى رحاب التاريخ ، تأليف الدكتور حسين فوزى .

(٧) ديانة قدماء المصريين ، تأليف استندرف ، ترجمة الأستاذ سليم حسن .

(٨) الأدب المصرى القديم ، تأليف الأستاذ سليم حسن .

(٩) تاريخ الطب والصيدلة ، تأليف الدكتور عبد العزيز عبد الرحمن .

(١٠) مجموعة مجلة عين شمس ، للمرحوم أقلاديوس بك لبيب .

(١١) مجموعة مجلة الشرق والغرب .

12.—A History of Egypt, by Breasted.

13.—A History of The Ancient Egyptians, by Breasted.

14.—Ancient Records of Egypt, by Brcasted.

15.—A History of Egypt, by Petrie.

16.—A Short History of Fgypt, by Weigall.

17. A History of Egypt, by james Baikie

18 —The History of Egypt, by S. Sharpe.

19.—Histoiy of Egypt, hy Lane Pool.

20.—The Nile, by Wallis Budge.

21.—Prehistoric Egypt, by Petrie.

22.—The Ancient Empires of the East, by Sayce.

23.—Thc Religion of The Ancient Egyptian, by Steindorff.

24 - The Religion of tbe Ancient Egyptian, by Wiedemann.

25.—Religion of Ancient Egypt, by Sayce.

26.—A Handbook of Egyptian Religion, by Erman.

27.—Religions Life in Ancient Egypt, by Petrie.

28.—From the Stone Age to Christianity, by Anchor.

29.—From Fetish to God in Ancient Egxpt by Budge.

30.—The Development of Regligion and Tho.ght in Ancient Egypt, by Breasted.

31. The Wisdom of Egypt, by Oesterley.

32. Recherches sur Les Origines de L'Egypte, Par Morgan.

33. Histoire de la Civilisation Egyptienne, par jaquier.

34. L'Egypte sous les Pharaons, par Champollion.

35. Précis d'Histoire de L'Egypte, par Gauthier.

36. Resumé Chronologique de l'Histoire de l'Egypte, par Arthur Rhone.

37. Historie de l'Egypte, par Champollion Figeac.

38. Geographie Ancienne de la Basse Egypte, par Viconte jasque de Rougé.

39. Le Nil et la Civlisation Egyptienne, par Moret.

40. Memoires Sur L'Egypte Ancienne et Moderne, par Bourguignon d'Anville.

41. Memoires Géographique et historique Sur l'Egypate, par Quartermère.

42. La Religion des Egyptiens, par Wild.

43. La Religion des Egyptiens, par Naville.

44. Isis et Osiris, par Plutarque .

45. Histoire des Institutions de l'Ancienne Egypte, par Pirenne.

46. Recherches sur les sources Egyptiennes de la litterature Sapientale d'Israel, pa, paul Humbert.

47. Les Peuples de l'Orient Méditerranéen, Par Drioton et Vandier.

48.—Histoire de la Nation Egyptienne, par Hanotaux.

فهرس

صفحة

مطبعة التقدم

٤٤ شارع الخوارزمى بالنيرة - القاهرة

تليفون ٢١٠٢٦٠٢